مجلد ٢ — عدد ٧

أبريل ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين .... الساحرة المسحورة ٣٦٩
محمود عزمى .... انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة ٣٨٥
محمد رفعت............ مشكلة أسبانيا........................ ٣٩١
محمد عوض محمد .... الانتداب والوصاية والاستعمار ٤٠١
سليمان حزين.......... الحروب العالمية وموقع مصر ٤١٤
ملكة عبد العزيز .... الجناح الابيض (قصيدة) ٤٢٥
نجيب بلدى .... جان پول سارتر ومواقفه ٤٢٧
عزيز سوريال عطيه... رحلة فى برقة ٤٣٥
محمد عبدالله عنان ..... الملكة شجرة الدر ٤٤١
مراد كامل .... أريتريا - مشاهدات وآمال ٤٥٢
طه الحاجرى.......... أبو عبيدة.......................... ٤٦٣
خليل هنداوى......... مصرع طائر (قصيدة) ٤٦٨
روجيه كايوا .... سلطان اللفظ ٤٦٩
بهية فرج الله .... العراق ٤٨١
حبيب الزحلاوى ..... جناية (قصة) ٤٨٦

من هنا وهناك (بشر فارس ، ابراهيم الوائلى ، على حافظ)
شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح والسينما
من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً
فى مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العَقَدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق الكبير جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

على حسن عبد القادر
دكتور فى العلوم الاسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفِرَق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)





جمادى الأولى ١٣٦٥



ابريل ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٧

الساحرة المسحورة

فتح الحب العابس لها باب الدنيـا ، وفتح الحب الجادُّ لها باب الآخرة ، فسلكت بين هذين البابين طريقاً عسيرة بُثت فيها العِقاب واكتنفتها المصاعب ، وملأتها الآلام ، ولم تخلُ مع ذلك من لذة قليلة ، وبهجة ضئيلة ، ومتاع عقلى متصل . فلما اختطفها الموت قدّر الناس أنها قد أورثت بعض القلوب والعقول حزناً عظيما وبؤساً ممضًّا ، وأصبحت حديثاً من أحاديث التاريخ الأدبى ستحفظه ذاكرة الأيام وقتا يقصر أو يطول ، ثم يمسه النسيان قليلا قليلا حتى يمحوه فى يوم قريب أو بعيد ، كما محا كثيراً من الأحاديث لكثير من الناس فى كثير من العصور وفى كثير من البلاد . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد يتقدم قليلا حتى تبين أنها لم تترك للناس ذكراً فحسب ، وإنما تركت لهم آية أدبية من أروع آيات الأدب ، لا فى وطنها الفرنسى وحده ، ولا فى القرن الثامن عشر وحده ، بل فى جميع الأوطان المتحضرة ، وفى جميع العصور التى عُنيت فيها الإنسانية بالإنتاج الأدبى الرفيع .

هذه هى مدموازيل دى لسبيناس التى أريد أن أحدثك عنها فى هذا المقال ، والتى ولدت سنة ١٧٣٢ وتوفيت سنة ١٧٧٦ . لنفرُغ من ذكر الأرقام التى يظهر أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً إلا إذا حفظها وحققها ، واستقصى ما يتصل بها من الأحداث والخطوب .

واحب أن تعلم منذ الآن أنى لا أريد فى هـذا الفصل أن أكون مؤرخاً للأدب الفرنسى ، فلست من تاريخ هذا الأدب فى شئ ، وإنما قرأت عن هذه الآنسة فى بعض ما أقرأ فأعجبنى حديثها ، فحاولت أن أتعمق هذا الحديث فازددت به إعجاباً ، وجعلت لا أمضى فى استقصائه إلا دُفِعتُ إلى مزيد من التعمق حتى أنفقت فى ذلك شهراً وبعض شهر . ولعلى أغالط نفسى بعض المغالطة ؛ فقد أنفقت فى ذلك شهرين أو أكثر من شهرين ، ولم أفرغ منه بعدُ على كثرة الكتب والمجلات التى تجتمع بين يدى ، وتنتظر أن أفرغ لها ساعة من ليل أو ساعة من نهار . وأنا مع ذلك معرض عنها مُصِرٌّ على هذا الإعراض ؛ لأن أحاديث هذه الآنسة مازالت تدعونى ، وتلح فى الدعاء ، ولأن هذه الأحاديث لا تكاد تنقضى .

لا تنتظر منّى إذن بحثاً عن التاريخ الأدبى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، ولا تحقيقاً للحوادث ، ولا تحليلاً للنتائج والمقدمات ؛ فما أحب أن أعرض لشئ من ذلك الآن ، وما أكره أن أعرض له فى يوم من الأيام ، ولعلى أن أخصص كتاباً أعرض فيه حياة هذه الآنسة عرضاً مفصلاً دقيقاً ، فأما فى هذا الفصل فليكن تحدثى إليك عنها سهلاً سمحاً لا يكلّفك ولا يكلفنى مشقة ولا عناء ، وإنما نرسل فيه النفوس على سجيتها ، ونقف فيه أحيانا عند هذه العاطفة أو تلك ونتعمق فيه أحياناً أخرى هذا الخاطر أو ذاك . وأنت تعلم من غير شك أن حياة الطبقة الممتازة من الفرنسيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت قد دفعت إلى نوع من الحرية المسرفة يوشك أن يكون إباحة وإمعاناً فى المجون . دفعتها إلى ذلك أشياء كثيرة ، منها حاجة الفرنسيين إلى شئ من الهواء الطلق والتنفس الحر ، بعد أن ثقُلت عليهم تلك الحياة التى فرضها حكم لويس الرابع عشر عليهم ، نصف قرن أو أكثر من نصف قرن ، وكلفهم فيها كثيراً من الجهد وعرّضهم فيها لكثير من الخطوب ، وحمّلهم فيها كثيراً من التضحيات . فلم يكد هذا الملك العظيم ينتقل إلى الحياة الثانية حتى أحس الفرنسيون كأن عبئاً ثقيلاً جداً قد حُطّ عن كواهلهم ، فأصبحوا أقدر على الحركة ، وأميل إلى النشاط ، وأسرع إلى الاستمتاع بالحياة فى غير تكلف ولا استخفاء . ومنها أن العقل الفرنسى كان قد اتصل بالنهضة العلمية التجريبية كما تأثر بالفلسفة الحديثة التى تحررت من قيود أرسطاطاليس ، فتغير فيه كثير من القيم ، وعرف كثيراً مما كان ينكر ، وأنكر كثيراً مما كان يعرف ، ونظر إلى الحياة التقليدية نظرة

فيها كثير من السخرية والازدراء . ولم تلبث الحياة العملية أن دُفعت إلى الحرية التى دُفِع إليها العقل ، فأعلن الناس كثيراً مما كانوا يسرّون ، وأظهروا كثيراً مما كانوا يخفون .

ومنها أن الأدب الفرنسي نفسه كان قد أخذ فى هذا العصر يضيق بالقيود والقوانين التى فُرضت عليه أثناء القرن السابع عشر ، ورسمت له طرقاً لا ينبغى أن يعدوها ، ومذاهب لا ينبغى أن يخالف عن أمرها ، تخضعه بذلك لمذاهب القدماء من اليونانيين والرومانيين ، كما صورت فى إيطاليا أو كما صورها الفرنسيون لأنفسهم فى فرنسا نفسها أثناء القرن السادس عشر وفى أول القرن السابع عشر . فلم يكد عصر لويس الرابع عشر ينتهى أو يقارب الانتهاء حتى ظهر الخلاف ثم اشتدّ بين القدماء والمُحْدَثِين . وما من شك فى أن هناك أسباباً أخرى كثيرة دفعت الطبقة الممتازة فى فرنسا إلى استئناف هذه الحياة الجديدة الحرة الماجنة المتهالكة التى ظهرت قوية فى عهد الوصاية ، وجعلت تزداد قوة وتسلطا كلما تقدّمت الأيام . وهذه الأسباب تتصل بالسياسة ، وتتصل بالاقتصاد ، وتتصل بالثقافة ، وتتصل بهذا المركز الممتاز الذى أتيح لفرنسا فى ذلك العصر وجعلها أعظم مركز من مراكز الحضارة فى أوربا . ثم تتصل آخر الأمر بهذه العلاقات القوية التى استوثقت بين الفرنسيين وبين البلاد المجاورة لهم ، فجعلوا يرحلون إلى هذه البلاد ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة ، كما جعل أهل هذه البلاد يرحلون إلى فرنسا ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة أيضاً . والواقع من الأمر على كل حال هو أن فرنسا دُفعتْ فى هذا العصر إلى حياة جديدة تحرر فيها الممتازون من كثير جدًّا من قوانين الخُلق والعرف والدين .

ومولد الآنسة التى أريد أن أتحدث عنها فى هذا الفصل مظهر من مظاهر هذا الانحلال ، وأثر من آثاره فى وقت واحد . فقد كانت أمها سليلة أسرة نبيلة غنية ، وكان زوجها الكونت دالبون سليل أسرة نبيلة غنية أيضاً . وكان هذان الزوجان قد نعما بالحياة عصراً ورُزِقا فى أثناء ذلك الولد من الذكور والإناث . ولكن الأمر بينهما فسد — وما كان أكثر ما يفسد الأمر بين الأزواج ! — فاتصلت أسباب الزوجة برجل نبيل غنى هو الكونت جسپار دى فيشى ، ورُزِقتْ منه غلاما انتهت به الحياة إلى التربية الدينية ، وإلى أن أصبح رجلا من رجال الدين ، ورزقت منه طفلة هى هذه الآنسة التى نتخذها موضوعا

لهذا الحديث . وقد عُمِّدت هذه الطفلة فى كنيسة من كنائس ليون ، ولكن اسمَىْ أبويها قد اخترعا اختراعاً مخافة العار ، فلم تنسب إلى أمها ولا إلى أبيها ، وإنما ذكر للقسيس اسمان من أسماء الطبقة الوسطى العاملة . واطمأنت الأم إلى أن نفس ابنتها قد أصبحت نفساً مسيحية . وما ينبغى أن نفترض أن الأم قد قصرت فى ذات ابنتها أو أحبتها حبًّا فاتراً ، فقد كَلِفت الأم بابنتها كلفاً شديداً ، وعُنيت بتربيتها عناية متصلة ، لم تَسْتَخْفِ بشىء من ذلك ولم تحتط فيه ؛ وإنما ضمت ابنتها إليها ، وقامت على تأديبها وتثقيفها ، ومنحتها من حبها وعطفها مكاناً ممتازاً . ولم تقصّر إلا فى شىء واحد هو هذا الذى يتصل بالحياة المدنية الرسمية ؛ فهى لم تلحقها بأبيها لأن ذلك لم يكن ممكناً ، ولم تلحقها بأمها لأنها لم ترد أن تعترف على نفسها بالإثم ، وإنما أعطتها اسما من أسماء الأرض التى كانت ملكا لأسرتها الخاصة ، فسميت جولى دى لسبيناس ، ومنحتها بعد ذلك كل ما كانت تملك لأبنائها الشرعيين من الحب والعطف والإيثار .

على أن المشكلة لم تلبث أن ثارت غير مرة حين تقدّمت السن بالفتاة . وربما كان أيسر الأشياء ، أو قل أيسر الخطوب التى عرضت لهذه الفتاة ، أمر مستقبلها حين تقدّمت السن بأمها وأخذت تحس أنها تسعى إلى الموت مسرعة ، أو أن الموت يسعى إليها متمهلا ، كما يتمهل دائماً فى سعيه إلى الناس . فلم يكن من الممكن أن ترث الفتاة أمها ، وتشارك فى تركتها الضخمة . لم يكن ذلك ممكناً ؛ لأن الأم لم تستلحق ابنتها ، ولأن إخوة الفتاة لأمها يكرهون ذلك أشد الكره ويمانعون فيه أشد الممانعة . ولم يكن من الممكن أن توصى الأم لابنتها بشىء ذى خطر يحميها من عاديات الأيام ؛ فقد كانت الأسرة تراقب هذه الأم وتراقب تصرفها فى ثروتها كلما دنت من الموت أو دنا الموت منها .

ولذلك لقيت الأم البائسة من التفكير فى مستقبل ابنتها عناء شديدا ، وانتهت آخر الأمر إلى أن أوصت لها بإيراد ضئيل ، إن لم يتح لها الترف وخفض العيش فإنه يعصمها من البؤس ، ويكفل لها حياة محتملة .

على أن الأم قد احتالت لإيثار ابنتها ببعض الخير ، فادخرت لها مقداراً من الذهب لا بأس به ، وأظهرت الفتاةَ على مكانه ، وأسرّت إليها أن احتفظى لنفسك بهذا المال حين يدركنى الموت . ولكن الفتاة كانت نقية النفس ، كريمة الطبع ، نزيهة الخلق ، محبة لإخوتها ، فلم تحتفظ لنفسها بشىء ، وإنما أدت إلى أخيها الأكبر كل

شيء . وستتبين بعد حين أثر هذا كله فيما تعرضت له الفتاة في حياتها من الأحداث . على أن المشكلة الخطيرة التي عذّبت الفتاة عذاباً شديداً ، وعذبت أمها عذاباً ليس أقل مما احتملت الفتاة هولاً ، ولعله أن يكون أعمق أثراً وأعظم نكراً ، هي هذه التي ثارت حين أحب الكونت جسپار دى فيشى أبو الفتاة الآنسة ديان دالبون أخت الفتاة لأمها ، فخطبها واتخذها لنفسه زوجاً . ولم تستطع الأم البائسة أن تمانع أو تقاوم ، لأسباب تتصل بالثروة والشرف والعلاقة بين أسر النبلاء . وقد كانت هذه الخِطْبة وما تبعها من الزواج أساساً للمأساة التي قتلت نفس الأم وعذّبت نفس الفتاة عذاباً طويلاً ، وأثرت في الأدب الفرنسي كله آثاراً بعيدة المدى . وهذه المأساة التي لم يتخيلها أحد ولم ينشئها كاتب قديم أو حديث ، وإنما أنشأتها الظروف ومثلتها الحياة ، هذه المأساة ليست أقل روعة من أي مأساة أخرى تصوّرها القدماء أو المحدثون .

فهناك امرأة ترى عشيقها وأبا ابنيها يخطب ابنتها الشرعية ويتزوجها . فدع كرامة هذه المرأة ودع شرفها ، وقف عند الصراع العنيف بين حب المرأة لخليلها وحبها لابنتها الشرعية ، وحبها لابنتها الأخرى ، وشعورها بهذا الإثم المنكر وما نشأ عنه من تعقيد بغيض في حياة أبنائها ، وعجزها عن أن تقول في هذا كله شيئاً ، أو أن تقاوم هذا كله بشيء ، وإذعانها لحكم القضاء الذي لا مردّ له ولا منصرف عنه ، وعذاب نفسها المتصل حين ترى ابنتها زوجاً لخليلها وزوجاً لأبي أخويها .

ثم قدِّر موقف الفتاة نفسها من هذا كله ؛ فقد كانت تشعر به شعوراً غامضاً ، ثم جعل هذا الشعور يتضح شيئاً فشيئاً حتى عرفته الفتاة معرفة دقيقة .

فقدِّرْ موقفها من أبيها الذي أصبح لأختها زوجا ، ثم قدِّر موقفها حين ماتت أمها ، وحين انتقلت إلى قصر الكونت دى فيشى ، فعاشت بين أختها وأبيها . ثم قدِّر موقفها حين رُزِقَتْ أختها الولد فأصبح أبناء أختها لها إخوة قد منحهم الحياة أب واحد . وهي تعيش في هذا كله ، وتحتمل أثقال هذا كله ، وتألم من أعقاب هذا كله ، ولا تستطيع أن تجهر منه بشيء أو أن تنكر منه شيئاً ، أو أن تدفع عن نفسها من آثاره شيئاً .

قدِّرْ هذا كله وحدثني أيهما أبرع في التصور ، وأقدر على الابتكار ، وأمهر في ابتداع المأساة : خيال الكتّاب والشعراء أم خيال الحوادث والظروف ؟

مهما يكن من شيء فقد أنفقت الفتاة فى قصر أبيها وأختها أياماً طوالا ثقالا، ثم أرادت الظروف أن يزداد بؤسها نكراً حين تقدم إخوتها وأبناء أختها فى السن، فقامت منهم مقام المربية المؤدبة. وقد كانت الفتاة كريمة النفس، نبيلة القلب، نقية الطبع، فأحبت هؤلاء الأطفال حبًّا شديداً، وأخلصت فى تربيتهم وتأديبهم أتم الإخلاص وأمتنه. واقتضت ظروف الحياة فى عام من الأعوام أن يرتحل الزوجان عن القصر فى غيبة تطول بعض الشيء، فقامت هذه الأخت الخالة من إخوتها مقام الأم وشملتهم من العطف والرعاية والحنان بما حمل الأبوين على شكرها حين عادا إلى القصر. ولكن السعادة الخالصة لم تقدر للناس، وازدراء المنافع المادية لم يُتَحْ لكثير منهم، والارتفاع عن الظلم والطغيان والبطر لم يقدَّر إلا لأفراد يُحْصَوْنَ بين حين وحين. فقد كان الزوجان يضيقان بهذه الفتاة على رغم وداعتها وسماحة نفسها ونقاء ضميرها. تضيق بها أختها لمكان هذه الأخوة الآثمة، ولمجرد التفكير فى أن هذه الأخوة قد تثير اختلافاً حول المنافع المادية فى يوم من الأيام. ويضيق بها أبوها لمكان هذه الأبوة الآثمة، ولحرصه على المنافع المادية أيضاً بالقياس إلى نفسه وإلى أبنائه، ولهذا الحرج الثقيل الذى لم يكن بدٌّ من أن يجده بين حين وحين كلما فكر فى أن قصره يظل أختين إحداهما امرأته والأخرى ابنته. ولم تكن الفتاة أقل ضيقاً بهذه الحياة المنكرة من هذين الزوجين، يدفعها إلى هذا الضيق شعورها بهذا الإثم الذى يحيط بها والذى لا تحمل أوزاره لأنها لم تقترف منه شيئاً، وشعورها بهذا الحق المضيع والكرامة المهدرة بين قوم كان من الحق عليهم أن يشملوها بالحب والعطف والحنان. أبٌ من الحق عليه أن يبر ابنته وهو ينكرها ويظلمها. وأخت من الحق عليها أن تؤثر أختها بالمودة، وهى تعقّها وتستأثر من دونها بالخير كله، وتصرف عنها قلب أبيها، وتتخذها خادماً أو شيئاً يشبه الخادم. ومن أجل هذا كله أخذ الأمر يفسد شيئاً فشيئاً بين الزوجين وبين هذه الفتاة. وقد احتملت الفتاة ما استطاعت أن تحتمل، فلما لم تجد إلى الصبر سبيلا فكرت وقدّرت، وأزمعت أن تخرج من هذا السجن البغيض.

وكان أمامها طريقان للخروج من هذا السجن: إحداهما يسيرة سهلة ولكنها بغيضة إلى نفسها أشد البغض مناقضة لطبعها أشد المناقضة، وهى الطريق إلى الدير لتصبح راهبة. وما أكثر الراهبات اللاتى دفعن إلى الدير لا تأثراً بالدين

ولا تهالكاً على التقوى ، ولكن تفتهن ظروف الاقتصاد ، أو ظروف الاجتماع عن الحياة العاملة ! ولكن الفتاة لم تكن تطيق التفكير فى الدير ولا فى الانقطاع للدين ؛ فقد كانت حياتها أقوى وأغزر وأخصب وأكثر بعداً عن التصوف من أن تُعِدّها لهذا الانزواء الخامل الجدب فى أعماق الدير . أما الطريق الثانية فلم تكن ميسرة ولا خالية من العقاب . فقد كانت الفتاة تودّ لو استطاعت أن تستقل ، وتنعم بحياة حرة لا تخضع فيها لأحد . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإيرادها أضيق من أن يسع حاجاتها ومطالبها ! أليس من الممكن أن يعينها أخوها ذاك الذى يعمل ضابطاً فى الجيش والذى أظهر حبّاً لها وعطفاً عليها ؟ فلتعتمد عليه إذن ولتكتب إليه . ولكنه يردّ عليها مخيباً أملها ، لا بخلا ولا قسوة ، ولا تعمداً لإيذائها ، ولكن ظروفه لا تسمح له بأن يبذل لها المعونة التى ترجوها ، وهو من أجل ذلك يتقدم إليها فى ألا تحاول هذا الاستقلال ولا تطمع فيه .

وفى أثناء ذلك تزداد الحياة ثقلا فى القصر ، ويزداد الخلاف نكراً بين الأختين . وتلم بالقصر زائرة ذات خطر ، تواسى الفتاة وتسليها أول الأمر ، وتجد لها مخرجاً من ضيقها وفرجاً من حرجها آخر الأمر ، وهذه الزائرة الخطيرة هى مدام دى ديفان .

ومدام دى ديفان ليست فى حقيقة الأمر إلا عمة الفتاة ، نشأت كما نشأ أخوها فى هذا القصر ثم اختلفت بهما أسباب العيش ، فتزوجت من المركيز دى ديفان ، ثم فرّقت بينهما الأحداث ، فسلكت فى باريس وفى قصر الوصى على العرش مسالك الريبة والعبث ، واستمتعت بالحياة الماجنة وقتاً ما ، ثم ثابت إلى نفسها وراجعت أمرها وجددت سيرتها ، واتخذت لها رفيقاً خليلا من رجال القضاء ، ومضت تدبر حياتها فى حزم وجد حتى اكتسبت لنفسها فى باريس مركزاً ممتازاً . ثم اتخذت لنفسها داراً ملحقة بدير من الأديار فى باريس ، وجعلت تستقبل فى هذه الدار أعلام الأدب والفلسفة والسياسة ، حتى أصبح « صالونها » من أهم المراكز الثقافية الممتازة فى العاصمة الفرنسية. وقد توثقت الصلات بينها وبين الأعلام الممتازين فى الحياة الفرنسية حتى أصبح اسمها عَلَماً من الأعلام فى الحياة الأدبية الفرنسية وفى التاريخ الأدبى الفرنسى بوجه عام . وقد جعلت كلما تقدّمت بها السن تشعر بشيئين يدفعانها إلى التشاؤم دفعاً شديداً : أحدهما مادى

وهو هــذا الضعف الذى أخذ يصيب بصرها شيئاً فشيئاً ويصورها لنفسها ضريرة بعد وقت طويل أو قصير . والآخر معنوى وهو هذا البغض لأوضاع الحياة والشك فى قيمتها والإنكار لهذه القيمة آخر الأمر ، حتى انتهت إلى مثل ما انتهى إليه أبو العلاء حين قال :

هــذا جنــاه أبى علىّ (م) وما جنيت على أحَــدْ

فقد كانت تقول إن أبغض شىء فى حياة الإنسان هو حياة الإنسان . ولذلك أحست شيئاً شديداً من الضيق ، والتمست إلى العزاء والشفاء وسائل مختلفة ، ومن بين هذه الوسائل زيارتها لقصر أخيها . وفى هذه الزيارة لقيت هذه الفتاة فكَلِفتْ بها أشد الكلف ، وأعجبت بها أعظم الإعجاب ، ثم لم تلبث أن رأت فى هذه الفتاة رفيقاً لها فى حياتها البائسة فى باريس . فجعلت تتقرب إليها وتتلطف لها حتى ارتفعت بينهما الكُلْفة ، وأخذت الفتاة تبثها آلامها وأحزانها وتجد عنــدها التسلية والمواساة .

وقد عادت مدام دى ديفان إلى باريس ، وصممت الفتاة على ترك القصر ، ففارقته بعد خطوب ، وأوت إلى دير من الأديار فى مدينة ليون ، لم تلتحق به ، وإنما اتخذته لنفسها مثوى كما يأوى النــاس إلى الفنادق الآن . وقد أقامت فى هذا الدير وقتاً غير قصير ، ريثما تقنع أخاها بحسن رأيها فى الحياة المستقلة . وقد كان هذا الإقناع عسيرا ، جدّت فيه الفتاة ، وجدّت فيه مدام ديفان ، وتوسط فيه أحد الأساقفة ، وانتهت الفتاة بعد لأى إلى ما كانت تريد ، وظفرت مدام دى ديفان بعد مشقة بما كانت تتمنى . ووصلت الفتاة ذات يوم إلى باريس واستقرت عند عمتها أو صديقتها فى الطابق الأعلى من الدار .

وقد فُتن المختلفون إلى صالون مدام دى ديفان بهذه الفتــاة الوافدة من الأقاليم ، لا لجمالها فلم تكن ممتازة الجمال ، ولــكن لظَرْفها وخفة روحها ورجاحة عقلها ، وسعة معرفتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث التى كانت تدور فى هذه الاجتماعات .

وما أحب أن أفصل حياة الفتاة فى هذه الدار ، فذلك شىء لا يتسع له هذا الحديث ، ولــكنى ألاحظ أن إقامتها فى هذه الدار لم تطل حتى صَبَتْ إليها بعض القلوب ، فوجدت فى نفسها بعض الصدى ، ولــكن فى كثير من التحفظ

والاحتشام . صبا إليها قلب هذا القاضى الذى كان خليلا لعمتها ، وصبا إليها قلب نبيل فرنسى أديب آخر ، وصبا إليها بنوع خاص قلب نبيل إيرلندى كان يختلف إلى الدار ، وهمّت الفتاة أن تصبو إليه ، ولاحظت مدام دى ديفان ذلك فاصطنعت بعض العنف ، وطردت هذا الإيرلندى من دارها . ولم تلبث الفتاة أن ثابت إلى الرشد والحزم ، أو ثاب إليها الرشد والحزم .

على أنها لقيت فى صالون مدام دى ديفان فرنسيًّا آخر لم تلبث أن صَبَتْ إليه كما صبا إليها ، وإذا حياتها تتغير تغيراً جوهريًّا . والغريب من أمر هذا الفرنسى أنه كان يشبهها من بعض الوجوه ، ولعل هذا الشبه أن يكون له أثر فى هذا الود .

هذا الفرنسى هو دالمبير ، والقراء يعرفون من غير شك المركز الممتاز الذى كان دالمبير يشغله فى الحياة العقلية الفرنسية فى ذلك الوقت . فقد كان دالمبير فيلسوفاً وأديباً ورياضيًّا ، وكان متفوقاً فى هذا كله تفوق النبوغ ، وكانت الأندية الباريسية تختصم فيما بينها أشد الاختصام : أيها يظفر به ويحظى بزيارته .

وكان دالمبير ، كما كانت فتاتنا ، قد ولد لأبوين نبيلين سنة ١٧١٧ ، ولكنه ولد مولداً غير شرعى ، كما ولدت الفتاة مولداً غير شرعى . وقد حظيت الفتاة بعطف أمها ، فأما دالمبير فقد فَقَدَ هذا العطف فقداً تامًّا . وجده رئيس من رؤساء الشرطة عند كنيسة من الكنائس ، فالتقطه وعمّده والتمس له المراضع خارج باريس .

فقدت الفتاة عطف أبيها ، وحظيت بعطف أمها ، وفقد دالمبير عطف أمه مدام دى تنسين ، ولكنه ظفر بعطف أبيه مسيو دى توش . فقد عاد هذا الرجل إلى باريس من بعض المهمات التى كان كُلِّف القيام بها ، فعرف مولد الطفل واطراحه والتقاط الشرطة له ، وجدّ حتى اهتدى إليه والتمس له المراضع فى باريس نفسها ، ولم يستطع أن يستلحقه لأنه كان متزوجاً ، فقام على تربيته وأوصى له بما يكفل له حياة متواضعة .

وقد نشأ الصبى نشأة حسنة فى حجر مرضعته الفقيرة ، فدرس حتى تخرّج فى الأدب والفلسفة والطب والرياضيات ، وبرع فى هذا كله حتى أصبح علماً من أعلام الثقافة الفرنسية بل طابعاً لهذه الثقافة فى القرن الثامن عشر .

وكان الود متصلا بينه وبين مدام دى ديفان ، حتى استأثرت به استئثاراً ،

فلم يكن يختلف إلا إلى صالونها ؛ أو لم يكن يواظب إلا على صالونها . وكانت تؤثره أشد الإيثار وتختصه بمودتها وبرها . ولكنه لقي عندها هذه الفتاة ، فصبا إليها وصبت إليه ، واتصل بينهما ودٌّ لم تلبث صاحبة الدار أن ارتابت فيه ، ثم ضاقت به ، ثم لامت ، ثم عنفت في اللوم ، فاضطر دالمبير إلى أن يسافر من باريس ويذهب إلى برلين ، مستجيباً لدعوة فردريك يلتمس في هذا السفر إرضاء مدام دي ديفان ، وسلوًّا عن مدموازيل دي لسبيناس . على أنه عاد إلى باريس ، فإذا قلبه ما زال كما كان حين ارتحل عنها ، وإذا قلب الفتاة ما زال كما كان حين فارقها .

على أن دالمبير إن انفرد بحب الفتاة فهو لم ينفرد بإكبارها والكلف بحديثها ، وإنما شاركه في ذلك جماعة من الذين كانوا يختلفون إلى الدار ، فجعلوا يقدمون موعد زيارتهم ويصعدون إلى حيث كانت الفتاة تقيم ، فيتحدثون إليها ويسمعون منها ، حتى إذا كان موعد الاستقبال عند مدام دي ديفان في الساعة السادسة من المساء هبطوا إليها . وقد عرفت صاحبة الدار هذا الأمر ، فسخطت له أشد السخط ، ونفت عن دارها مدموازيل دي لسبيناس كما نفت عن دارها أثيرها دالمبير .

وأثيرت حرب شعواء بين السيدة والفتاة ، وانقسم الناس في أمرها انقساماً عظيما ، كانت له آثاره في الأدب الفرنسي . والمهم هو أن أصدقاء الفتاة من الرجال والنساء منحوها كثيراً من العطف والود ، واتخذوا لها داراً غير بعيد من دار مدام دي ديفان ، فأقامت فيها وجعلت تستقبل أصدقاءها . وما هي إلا مدة قصيرة حتى أصبح صالونها ممتازاً في باريس ينافس صالون مدام دي ديفان منافسة خطيرة حقًّا .

أقامت في الدار وحدها أول الأمر ، ولكن الظروف كانت تريد أن تجمع بينها وبين دالمبير في دار واحدة . وقد كان دالمبير يعيش عند مرضعه في بيتها الحقير ، لم يخطر له أن يفارقها ، ولكنه مرض مرضاً شديداً فقامت على تمريضه مدموازيل دي لسبيناس ولم تفارقه حتى أتيح له الشفاء .

ثم مرضت مدموازيل دي لسبيناس نفسها ، أصابها الجدري حتى عرّض حياتها للخطر ، وقام على تمريضها دالمبير حتى أتيح لها الشفاء .

وكذلك قضت الظروف أن يعيش الصديقان في دار واحدة : تعيش الفتاة في الطابق الأدنى ، ويعيش الرجل في الطابق الأعلى ، وألف الناس منهما ذلك ، فلم

ينكروه ولم يضيقوا به . والواقع أن هـذا الأمر لم يكن فيه ما يدعو إلى ضيق أو إنكار ؛ فقد تحابّ الصديقان ولـكن فى غير ريبة . ومع أن الألسـنة لم تمتنع عن التعريض والتلميح فى أول الأمر ، فقـد تبين أن الحب بين الصديقين لم ينزل قط عن مكان الحب الأفلاطونى النقى البرىء .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدموازيل دى لسپيناس علماً من أعلام الحياة العقلية الفرنسية ، وأصبح صالونهـا مركزاً من مراكز الثقافة العليا فى الأدب والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع . يختلف إليـه مرات فى كل أسبوع زعماء الحياة العقلية فى باريس ، فيحاورون ويجادلون ويقررون أيضاً . ويختلف إليه فى الوقت نفسه أعلام الأجانب الذين يمرون ببـاريس أو يقيمون فيها إقامة متصلة .

من هؤلاء الأجانب أدباء وساسة وفلاسفة ممتازون ، من الإنجليز ، والإيطاليين ، والأسبانيين ، والألمانيين أيضاً . ثم كانت مدموازيل دى لسپيناس وصديقها دالمبير يغشيان الصالونات المختلفة فى باريس عند مدام چوفران ومدام دى شوازل ومدام نيـكر ومدام هلڤسيوس ومدام دُهى لـكسمبورج ، وعند طائفة أخرى من السـيدات اللاتى كن يتخذن هذه الصالونات مراكز للحياة العقلية القوية الخصبة .

فى هذا الوقت لقيت مدموازيل دى لسپيناس فى أحد هذه الصالونات فتى أسبانيًّا ممتازاً امتيازاً أجمعت عليـه الصفوة الباريسية كلها ، وهو مسيو دى مورا . كان ضابطاً فى الجيش الأسبانى ، وكان أبوه سفيراً فى باريس . لم تكد مدموازيل دى لسپيناس تلقى هذا الفتى حتى صَبَتْ إليه ، ولم يكد هذا اللقاء يتكرر حتى وقع حبه فى قلبها كما وقع حبها فى قلبه . ولم يكن هذا الحب عابراً ولاسطحيًّا ، وإنما كان من هذا الحب الذى لا يكاد يبلغ القلوب حتى يستقر فيها ويستأثر بهـا ويملك عليها كل شىء ، ويصبح فتنة لا تجد النفوس عنـه منصرفاً ، ومحنة لا تجد القلوب إلى التخلص منه سبيلا . وقد كان هذا الحب محنة بأدق معانى هذه الـكلمة ، سَعِـد به العاشقان سعادة تعجز النفوس عن احتمالها وتقصر الألسنة عن وصفها ، وشقى به العاشقان شقاء كان سبيلهما إلى الموت .

كان حبًّا نقيًّا ممعناً فى النقاء ، ولـكنه على ذلك لم يكتف بنقائه الأفلاطونى وإنما حاول أن يسلك طريقه الشرعية إلى الرضا ، فهمَّ العاشقان أن يقترنا ، وقامت دون أمنيتهما هذه أهوال ثقال . أهوال مختلفة ، بعضها جاء من اختلاف

الطبقة ، فقد كان الفتى من أرفع الأسر الأسبانية منزلة وأعلاها مكانة وأعرقها نسباً وأعظمها ثروة وأوسعها جاهاً ونفوذاً . وكانت مدموازيل دى لسپيناس كما علمت لا أسرة لها وليس لها نسب إلا هذا الذى يعتز به المتنبى فى كثير من شعره ، والذى لا يرجع إلى الأسرة وما يكون لها من مجد قديم ، وإنما يرجع إلى الشخص وما يستحدث لنفسه من المجد .

فليس غريباً أن تضيق الأسرة الأسبانية بفكرة الزواج هذه وتراها ضلالاً وانحرافاً عن الجادّة ، وتقيم فى سبيلها العقاب التى لا يمكن تذليلها .

وليس غريباً أن يصمم الفتى على بلوغ ما أراد ، وأن تثار حرب عنيفة منكرة خفية بينه وبين أبويه . ولو أتيحت الصحة للفتى وواتته الظروف لكان من الممكن أن ينتصر آخر الأمر ، فقد كان حازماً عازماً شديد المضاء ، ولكن الأيام والحوادث كانت اشد منه حزماً وعزما وأبعد منه مضاء . أغرت به الأسرة وأغرت به المرض أيضاً ؛ فقاوم الأسرة ما وسعته المقاومة وكاد ينتصر عليها ، وقاوم المرض ما وسعته المقاومة ، ولكن المرض انتصر عليه وهو فى طريقه إلى باريس عائداً إليها من وطنه ليتم ما صمم عليه من الزواج .

ولم تصل إلينا الرسائل التى تبادلها العاشقان ، وقد كانت كثيرة ما فى ذلك شك ؛ فقد كتب الفتى إلى صاحبته اثنتين وعشرين رسالة فى عشرة أيام ، ولم يكن بعيداً عنها ، وإنما كان قريباً منها فى ضاحية من ضواحى باريس . وإنما عرفنا أخبار هذا العشق وخطوبه من رسائل أخرى لمدموازيل دى لسپيناس ومن رسائل تبودلت بين دالمبير وأسرة الفتى فى مدريد .

على أن أمور مدموازيل دى لسپيناس تعقدت فجأة تعقداً غريباً هو الذى أظهر الأدب على شخصيتها هذه الفذة وأورثه فنها هذا الرفيع . كان عاشقها فى مدريد يقاوم أسرته ويقاوم علته ، ويتخذ من حبه القوى أداة ناجعة لهذه المقاومة . وكانت هى فى باريس تنتظر ، سعيدة بالانتظار شقية به أيضاً ، مشفقة أشد الإشفاق على حبيبها من هذه العلة المرهقة . ولكنها أجابت ذات يوم مع دالمبير إلى وليمة من الولائم فى ضاحية من ضواحى باريس ، فى قصر فخم تحيط به طبيعة رائعة قد نسقتها الحضارة والفن أحسن تنسيق ، فجمعت فيها بين ترف المدينة وسذاجة الريف . فى هذا القصر لقيت مدموازيل دى لسپيناس فتى فرنسيا نبيلا كان الناس قد أخذوا يكبرونه ويعظمون شأنه لأنه أظهر تفوقاً وامتيازاً ،

كان ضابطاً فى الجيش ، وكان قد أصدر كتاباً فى فن الحرب اعجب به المختصون وفتن به المثقفون عامـة ، وقيل إن بونابرت كان يصحب هذا الكتاب بعد ذلك فى جميع مواقعه الحربيـة الكبرى . وكان هذا الفتى حلو الحديث راجح العقل حسن المحضر لطيف المدخل ، قد جمع إلى براعته فى فنـه العسكرى ظرفاً فاتناً وثقافة واسعة وأدباً رفيعاً ، حتى إن كثيراً من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين كانوا ينوطون به آمالا عراضاً ، ويعتقدون أن مسيو دى جيبير سيكون البطل الذى ينقذ فرنسا فى يوم من الأيام .

لقيت مدموازيل دى لسبيناس هذا الفتى فى ذلك القصر ، فتحدثت إليه وسمعت منه . وأكبر الظن أنها سايرته غير متكلفة فى بعض هذه الحدائق الرائعة ، فوقع من نفسها وأعجبها حديثه وظرفه وثقافته . فلما عادت إلى باريس قرأت كتابه فازداد إعجابها به وإكبارها له ، ولم تملك نفسها فكتبت إليه تثنى على هذا الكتاب . وأقبل هو يزورها ليشكر لها هذا الثناء . ولم ينصرف من هذه الزيارة حتى ترك فى قلب مدموازيل دى لسبيناس جذوة لا سبيل إلى إطفائها . وأصحاب علم النفس والمتعمقون لدقائق الحب وما يثير فى القلوب من العواطف والأهواء يستطيعون أن يجيبوا على هذا السؤال : كيف اجتمع السيفان فى غمد ! وكيف ائتلف الحبان فى قلب ! وكيف قامت الجذوة القديمة التى أوقدها الفتى الأسبانى منذ سنين إلى جانب الجذوة الحديثة التى أوقدها الفتى الفرنسى منذ أيام ؟ وقد أجاب جوت على هذا السؤال حين قال فى بعض كتبه : « إن القلب الإنسانى كبير يسع كل شىء وضعيف يحطمه أيسر شىء » . وقد اختلف الكتاب اختلافاً شديداً جداً فى حل هذه المشكلة . وما يعنينى من اختلافهم شىء ، فأنا لا أكتب حديثاً فى الحب ، وإنما أقص قصة امرأة جمعت فى قلبها بين حبين .

فهى لم تسل عن فتاها الأسبانى ، وإنما ازدادت به تعلقاً وبحبه استمساكا . ومن الحق أنها دافعت الحب الجديد عن نفسها فلم تستطع ، ثم خادعت نفسها عن هذا الحب فصورته على أنه مودة فلم يغن الخداع عنها شيئاً ، ثم وقفت حائرة ممزقة بين هذين الحبين : نصف قلبها فى أسبانيا ، ونصف قلبها الآخر فى باريس . أستغفر الله ! بل غرّب نصف قلبها إلى أسبانيا وشرّق نصفه الآخر إلى ألمانيا ؛ فقد سافر الكونت دى جيبير إلى ألمانيا والنمسا وكاد يسافر إلى روسيا ، فتبعه قلب

مدموازيل دى لسبيناس أو قل نصف قلبها ، أو قل إن شئت إنها جعلت ترسل إليه قلبها أقساطا منجّمة فى هذه الكتب التى كانت تكتبها اليه

وقد علمت مدموازيل دى لسبيناس أن قلب صاحبها الفرنسى لم يكن خالصاً وأنه كان يحب سيدة نبيلة أخرى ، وأنه لم يكن يبخل على نفسه باجتناء زهرات الحب واقتطاف ثمرته حين كان ذلك يتاح له بين حين وحين . علمت ذلك فذاقت مرارة الغيرة واصطلت بنارها المحرقة ، وعذّبت نفسها وعذبت صاحبها فى ذلك عذاباً شديداً ، واستيقنت منذ أحست هذه الغيرة أن قلبها لاينعم بالمودة الهادئة وإنما يشقى بالحب العنيف .

وما زالت تعـذّب نفسها وتعذب الفتى حتى استخلصته أو ظنت انها استخلصته لنفسها من دون النساء . وقد عاد الفتى الفرنسى إلى باريس ، وأخّر المرض عودة الفتى الأسبانى إليها ، فكانت تلقى صاحبها الفرنسى فى كل يوم تقول له ويقول لها ، والأمر بينهما مستقيم لايتجاوز النقاء الأفلاطونى البرىء . والناس يعلمون أنها تكبره وتؤثره بالود ، وأنه يكبرها ويؤثرها بالإجلال . والناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه . حتى كان يوم من أيام فبراير سنة ١٧٧٢ ذهب الصديقان فيه إلى الملعب وسمعا فيه الموسيقى ، وكان للموسيقى فى نفسهما أثر أى أثر ، فلم يتفرقا حتى شربا من تلك الكأس التى لا يعرف الناس أتقدّم لشاربيها رحيقاً أم حريقاً ، كما يقول ابن الرومى ، أتقدّم إليهم شرابا صفواً أم سمّا زعافاً . مهما يكن من شىء فقد كان قلب مدموازيل دى لسبيناس ينقسم نصفين : نصف لحب الفتى الأسبانى ونصف لحب الفتى الفرنسى . فقد أصبح منذ ذلك اليوم ينقسم أثلاثا ، ولا يخلص للحب وحده وإنما يقوم الندم فيه بين هذين الحبين مقاماً غريباً ، يشتد ويقسو حتى يخيل إليها أنها آثمة مجرمة قد خانت الرجل الذى تحبه وحده وتؤثره بحبها كله من دون الناس . ثم يضعف ويتضاءل حتى ينسيها نفسها وينسيها كل شىء ويقدمها ضحية متهالكة متضائلة إلى هذا الحب الآخر الجامح الذى لايعرف قصداً ولا اعتدالا . وقد أرادت الحياة أن تمعن فى القسوة حتى تبلغ بها أقصى غاياتها ، وأن تجعل كل شىء من أمر هذه المرأة غريباً حقّا .

ففى نفس اليوم الذى أثمت فيه اشتدت العلة على صاحبها الأسبانى حتى بلغت حد الأزمة المهلكة . وصلت إليها الأنباء بذلك بعد أيام ، فسجلته وسجلت معه ندماً ما أعرف أنه صور فى أدب من الآداب كما صور فى رسائل مدموازيل

دى لسبيناس . ثم جاءتها الأنباء بأن صاحبها الأسبانى قد مات فى طريقه إلى باريس ؛ فلم تشك فى أن خيانتها له قد قتلته وإن لم يعلم من أمر هذه الخيانة شيئاً . وقد همّت أن تقتل نفسها ، ولكن صاحبها الفرنسى ردها عن الموت أو رد عنها الموت . فعاشت بعد ذلك عيشة رائعة مروعة حقا : تحب كما لم يحب أحد قط ، وتندم كما لم يندم أحد قط ، وتصور ذلك فى رسائل لم يكتب أحد مثلها قط . بعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الحى ، وبعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الذى مات . وهى فى أثناء ذلك تعيش عيشتها المألوفة ، تستقبل الفلاسفة والأدباء والساسة وتزورهم ، وتغشى الصالونات وتختلف إلى ملاعب التمثيل والموسيقى ، وتسعى فى أن ينتخب فلان أو فلان عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وتسعى فى أن يحقق هذا الوزير أو ذاك لهذا الصديق أو ذاك هذا الأمل أو ذاك ، وتشارك فى النقد الأدبى وفى النقد السياسى وفى كل ما يشارك فيه الأدباء والساسة والفلاسفة ، وتكتب إلى أخيها من أختها وأبيها ، وتعنى بأمره عند السلطان وتظهره مع امرأته على باريس .

وتكتب فى أثناء هذا كله إلى عاشقها الفرنسى ، أو قل ترسل إلى هذا العاشق قطعا من النار المدمرة التى لا تبقى ولا تذر ، وقطعا من النسيم الحلو الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً وغبطة وابتهاجاً . ترسل إليه هذا الكتاب القصير الذى أعجب به سانت بوف والذى لا تؤرخه بيوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، وإنما تؤرخه بكل لحظة من لحظات حياتها : «أيها الصديق إنى آلم ، إنى أحبك ، إنى أنتظرك» .

وأغرب من هذا كله أن الناس لا يعلمون من أمر هذا الحب شيئاً ، وأن دالمبير الذى يعيش معها فى دار واحدة لا يعلم من أمر هذا الحب شيئاً ، وإنما يحس فتورها عنه ولا يجد لهذا الفتور تعليلا .

وقد قضت ظروف الحياة على الكونت دى جيبير أن يتزوج ، فتألمت مدموازيل دى لسبيناس وثارت وغضبت ، ثم أذعنت لأنها لم تكن تملك إلا الإذعان ، وقد عاهدت نفسها وعاهدت صاحبها على أن تحترم هذا الزواج وتحترم الفضيلة التى ينبغى أن تظله وتسيطر عليه . وقد وفت بالعهد واحتملت فى هذا الوفاء أهوالاً ثقالاً ، وهمّ صاحبها ذات ليلة أن يخرج عن هذا الوفاء النقى ، كان يقرأ معها بعض رسائلها إليه ، فصبا قلبه وثارت نفسه وجمحت عواطفه وطغت غرائزه ، ولكنها ردته رداً منكراً عنيفاً ، فعاد إلى داره متهالكا متخاذلا ، وكتب إليها من

ساعته معتذراً نادماً ، ووصل إليها كتابه فاذا هى غارقة فى دموعها لأنها كلفت نفسها من الجهد فوق ما تطيق . والفتى محب لزوجه ، مستبق صلته مع خليلته الأولى فى غير إثم كما يقــال . ولــكن مدموازيل دى لسپيناس تكتب إليه : « ضعنى حيث شئت من حبك القديم ومن حبك الجديد ؛ فلن اقول شيئاً ، ولــكن اجتهد فى ألا تنزلنى منزلة مخزية فانى لا أستحق هذا الخزى » .

وقد أخذت العلة تسعى إلى مدموازيل دى لسپيناس، وأخذت هى تستبطئ الموت ، حتى إذا تقدمت العلة فغيرت من شكلها ومن جسمها أوت إلى غرفتها ثم إلى سريرها ، ثم أبت أن تلقى صاحبها لأنها لم ترد أن يراها وقد تغير شكلها على غير ما يهوى .

أبت أن تلقاه ، ولــكنها مضت فى الــكتابة إليه إلى آخر لحظة . كان يعودها مرات فى كل يوم فتعلم بمكانه من دارها ، وتسعى الــكتب بينها وبينه ، حتى كان آخر شئ كتبته وهى فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة كتاب حمل إليه ، ولم يكد يبلغه حتى كانت مُحْتَضَرة تعالج سكرات الموت .

وقد ماتت مدموازيل دى لسپيناس ومضت على موتها أعوام وأعوام ، ومات الــكونت دى جيبير أيضاً ، ثم عرف الناس فى أول القرن الماضى وعرف من بقى من أصدقائها أمر ذلك الحب حين نشرت رسائلها إلى الــكونت دى جيبير .

وكم كنت أحب أن أتحدث عن هذه الرسائل، ولــكنى لم أكتب هذا الفصل إلا لأغرى القراء بقراءتها فى أصلها الفرنسى وبترجمتها إلى اللغة العربية . فما أعرف أن أدباً من الآداب الحية أو القديمة قد صوّر الحب والندم والألم والغيرة كما صورتها مدموازيل دى لسپيناس .

طه حسين

انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة [1]

كنت معتزماً منذ الصيف الذى أمضيته فى بلاد الشام، فى فلسطين وسوريا ولبنان — أن تكون رحلتى فى الشتاء إلى السودان . لكن تحديد اللجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة فى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر اليوم العاشر من شهر يناير بعده موعداً لانعقاد الجمعية العامة الأولى لتلك الهيئة من ناحية، وتوقانى إلى « الانغماس » فى البيئات الدولية التى استمرأت اجتماعاتها فى مؤتمرات الصلح والاقتصاد ونزع السلاح ودورات عصبة الأمم خلال ربع القرن المنقضى والتى حرمت منها أطول من ست سنين من ناحية ثانية، دفعا بى فجأة من اتجاه الجنوب على دفئه إلى اتجاه الشمال على برده ، وقضيت الثلاثة الأسابيع الأخيرة من يناير وشهر فبراير والأسبوع الأول من شهر مارس فى لندن وبروكسل وباريس أزور هذه للمرة الأولى بعد الحرب ، وبعد غيبة اثنتى عشرة سنة عن الأولى ، وست سنوات ونصف السنة عن الثانية والثالثة .
وقد تتبعت طوال إقامتى فى لندن اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ولاحقت أعمال مختلف مجالسها ولجانها ، وحضرت فى بروكسل يوم الانتخابات البلجيكية العامة وما سبقه من الخمسة الأيام الأخيرة من فترة الحملة الانتخابية ، وزرت باريس أو أديت فيها مناسك حجى إلى كعباتها الجامعية والدستورية والفنية ومايتخللها من تيارات اجتماعية منبعثة من حركات المقاومة والتحرر وإعادة التنظيم .
ثم عدت بعد ذلك كله بانطباعات عن ثلاث من دول أوربا الغربية يعمل فى

(١) أعجبت مدة إقامتى فى العراق ببعض تعبيرات يجرى بها الاستعمال هناك وتدل على معانيها دلالة أقوى من دلالة معانى مقابلاتها فى الاستعمال المصرى أو الشامى ، وبينها التعبير بـ « الانطباع » للدلالة على الأثر الذى يتركه المشهد أو الحديث فى النفس ، فآثرت استعماله اليوم ترجمة لكلمة Impression الفرنسية أو الانجليزية .

سبيل التغلب على ما أصابهن من ويلات الحرب ، وعن هيئة الأمم المتحدة التى تحاول إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة .

أما العواصم الثلاث فقد تجلى لى خلال ما شهدت فيها وماخبرت أن الإنجليز والبلجيكيين والفرنسيين قد أنهكت الحرب أجسامهم ونفوسهم إنهاكا فى عموم وإن كانت نسبة هذا الإنهاك وأثره فى القدرة على رد الفعل يختلفان عند كل فريق باختلاف ملابساته . وقد كانت هذه الحرب هى الأولى التى تفاجىء الإنجليز فى جزيرتهم بعد قرون كانت الحروب التى ساهموا فيها طوالها تقع خارج ديارهم . وكانت هى الأولى التى تستعمل فيها القذائف الموجهة التى تصيب الناس من حيث لا يعلمون . وكانت هى الأولى التى تكشفت فيها للفرنسيين أنواع وأنواع من كوامن الفوضى والتواكل والانزلاق إلى مهاوى الخيانة التى كان سوسها ينخر فى عظامهم قبل الحرب ذاتها بشهور وسنين . وكانت هى الأولى التى ذاق فيها البلجيكيون مرارة القسوة « النازية » المنظمة وإن لم تكن هى الأولى التى عرفوا فيها نكبات الاحتلال الأجنبى . ولذلك فقد كانت أعصاب الإنجليزى هى التى تأثرت ، وكانت نفسية الفرنسى هى التى مُسَّت ، وكان البلجيكى هو الذى عملت « مناعته » ، التى اكتسبها من تعاقب الاحتلالات ، على أن يكون أسبق من زميليه إلى العمل والاستعادة .

لاح لى الإنجليز خلال الأسبوع الأول من إقامتى فى لندن أن قد أصابهم جميعاً « مس » . أولئك المتحجرون يكثرون تحريك أيديهم والتلويح بأذرعتهم ، وأولئك المتئدون يتجهون يميناً ويصححون بعد لحظة اتجاههم يساراً ، يخرجون من الفندق ثم يدخلون إليه مع لفات الباب الدائر . وهم مع هذا وذاك وعلى مقدرتهم على الاحتمال بدءوا يتيهون فى دياجير القلق على مستقبلهم ، وبدءوا يتاخمون اليأس من استرداد رخائهم ، بل بدءوا يلمسون ما يتهددهم من حرمان على ما يطلب إليهم توفيره فى الانتاج لكن ليكون محل تصدير يستهلكه الأجنبى فى الخارج على مسيس حاجة الإنجليزى إليه فى الداخل . وهم من أجل ذلك قد أخذوا يتساءلون : « هل من ضرورة للعمل ؟ وهل من مصلحة فى بذل الجهود ؟ » . وبينما هم يعتمدون فى استئناف نشاطهم على « القرض الأمريكى » ، إذا ببعضهم يدعو الله ألا تقر الولايات المتحدة طلب القرض ؛ لأنهم يعتقدون أنهم به وبعده سيصبحون عبيداً للأمريكيين على حين هم يؤمنون بنوع من المعجزات

قد يدركهم وينشلهم من وهدتهم . وفى انتظار المعجزات تبذل الحكومة الإنجليزية جهوداً جبارة فى سبيل التفاهم السياسى ، أو فى سبيل النفوذ السياسى عن طريق التفاهم حيث لا يجدى طريق العنف ، مع البلاد التى تحسبها لازمة لها لزوما اقتصاديًّا . وإذا كان شىء من التميز بين سياسة العمال الذين يتولون الآن الحكم فى انجلترا وسياسة المحافظين التى كانوا يتولونها قبلهم لا يستبين فى وزارة الخارجية البريتانية ، فان تباين السياسة الاقتصادية والاجتماعية بين الناحيتين منجل فى وضوح . والعمال ملحون فى « تأميم » أكثر ما يستطيعون من وسائل التداول والإنتاج . وقد فرغوا من تأميم بنك انجلند ، وهم يجدّون الآن فى سبيل تأميم مناجم الفحم ووسائل النقل الحديدية والبرية والبحرية والجوية . والواقع أن ميلاً إلى اليسار يتضح فى البيئة الإنجليزية على العموم ، وإن كان هذا الميل لم ينجح بعد فى تقريب مسافة الخلف بين الشيوعيين والاشتراكيين . وقد حدث أن تقدم الحزب الشيوعى لحزب العمال بطلب اندماج الهيئتين فى منظمة واحدة عن طريق انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال ، فرفض العمال الطلب — وكان رفضهم هذا للمرة الثامنة فى تاريخ محاولات التوفيق بين الجانبين — معلنين أن خير ما يتبقى للشيوعيين « إنما هو ان يحلُّوا حزبهم وأن يتقدموا أفرادا بطلبات انضمام ينظر مجلس إدارة حزب العمال كل واحد منها على حدة » . لكن الشيوعيين لم ييأسوا وهم يعتبرون هذا الرفض صادراً عن اللجنة الإدارية لحزب العمال وحدها ، وسيعرضون الأمر على مؤتمر النقابات — وهو مؤتمر حزب العمال العام — حين ينعقد قريباً .

وأما فى باريس فالذى شاهدته لأول وهلة إنما هو الصخب وإنما هو الضجر . فلم أسمع غير شكوى ، ولم أنصت إلا إلى تفكير فى مغادرة البلاد إلى « أميريكا الجنوبية » . على أنك إذا حللت الشكوى وجدتها شكوى نظرية يشترك الشاكى فى المسئولية عن الشكوى التى يضج بها . فالضجيج يعلو من « السوق السوداء » ، لكن هذا الضجيج يصحبه فى الوقت عينه عرض لأصناف تجلب من السوق السوداء . وإنه ليخيل لك — وقد خيل لى بالفعل — أن فرنسا كلها « سوق سوداء » يشترك فيها الفرنسيون جميعاً ويشكون من قيامها جميعاً . . . وإذا كانت السوق السوداء لا يخلو منها بلد من بلاد أوربا فى هذه الأوقات فانها فى فرنسا تقوم تحت حماية السلطات العامة ، وأكاد أقول وباشتراك هذه

السلطات أيضاً ، فى حين أنها فى انجلترا تعرّض المقترب منها لأقسى أنواع العقاب .
وحادثان اثنان وقعا قبيل سفرى من باريس بيومين اثنين ، يكفيان للدلالة على ما انحدرت إليه الأحوال هناك . فقد قبض على عديد من الرؤساء فى محافظة باريس متهمين بالاتجار برُخَص القيادة والنقل وما إليها من إطارات للسيارات الصغيرة والكبيرة ، وحدث فى اليوم عينه أن دقّت النواقيس فى عاصمة « بريتانى » إعلاناً لسر كان متفقاً عليه هو أن موعد القطار الذى يحمل مندوبى مصلحة الضرائب والمراقبة الاقتصادية المكلفين بالتفتيش على حسابات التجار من أجل تحديد أرباحهم الاستثنائية قد حل . وإذن فقد هرع التجار ومن إليهم من أهل المدينة إلى محطتها وحاولوا بالقوة دون نزول أولئك المندوبين من القطار وأكرهوهم على العودة من حيث أتوا ، دون أن يمكّنوهم من تأدية واجبهم ؛ لأنهم لا يريدون أن يدفعوا ما يفرضه القانون على أرباحهم الاستثنائية من ضريبة .

وإذا كانت مظاهر الفوضى هى البادية خلال مثل تلك المواقف بين الفرنسيين فإن فى العاصمة الفرنسية مكانا يشع منه نور يرى فيه الناس دلالة من دلالات الأمل فى قرب انتظام الأمور ، وهو مقر مجلس النواب الذى تجتمع فيه الجمعية التأسيسية التى تمضى مسرعة فى وضع الدستور الجديد الذى سينبعث منه استفتاء جديد تتلوه انتخابات جديدة تقوم على أثرها هيئة نيابية جديدة . وقد عملت الجمعية التأسيسية حتى الآن بروح التغلب على كل صعوبة تقوم فى وجه التوفيق بين مختلف وجهات النظر ، وإن كان البادى هناك أن تيار الاتجاه إلى اليسار يكاد يكون جارفا .

على أن الباريسى وسط كل تلك الكوارث التى داهمته لم ينس خاصيته ، ورغم حرمانه المادى لم ينس غذاءه الفنى ؛ فالمسارح غاصة والمقاعد فيها مبيعة إلى أسبوعين ، ولو أن دور اللهو التى كانت متفشية فى باريس قد هجرت ، والحكومة تضيق الآن عليها الخناق فتفرض عليها الضرائب باهظة وتحدد ساعات قليلة لنشاطها . لكن المعارض الأدبية والفنية متتابعة ، ودور الموسيقى محل إقبال لا مثيل له ، وكذلك المحاضرات والمكاتب . . . ثم إن « السوربون » لا تزال هى « السوربون » !

أما بروكسل فتختلف الحياة فيها اختلافا بيناً عن لندن وباريس . فأهلها

تنطق معنوياتهم بحب العمل وبالإقدام فى سبيل الإنتاج لأجل هناءتهم وهناءة بلادهم . وقد كان لبلجيكا حظ اتصالها بالأميريكيين عنـد التحرر ، فقامت لهم بأعمال حربية وأدت لهم خـدمات اقتصادية ، أصبحت من جرائها دائنة للولايات المتحدة ، بل الدائنة الوحيدة للولايات المتحدة ، فكسبت عطفها وجاءتها البضائع الأميريكية والمواد الغـذائية الأميريكية تترى ، فانتعشت الحياة الاجتماعية فيها وأصبحت بروكسل تغص مطاعمها بالآكلين و « مبـايرها » بالشاربين ، وأصبحت حوانيتها آهلة بأدوات الاستهلاك الضرورية والمترفة أيضاً .

على أن هذا الهناء المعنوى والرخاء الاقتصادى يشوبهما ارتباك سياسى له مضاعفة اجتماعية . ويرجع الارتباك السياسى الذى تجلى خلال الانتخابات العامة إلى موقف الأمة البلجيكية من الملك ، وقد اتضح أن « الفلمنك » يريدونه وأن « الفالون » لا يريدونه ، وأن الاشتراكيين والشيوعيين أنفسهم لا يعادون « الملكية » فى ذاتها بل يريدونها نظاماً لبلجيكا ، لـكن شخص الملك هو الذى يعارضونه . وقد أدى هذا الارتباك إلى قيام أزمة تأليف الوزارة المنبعثة من الانتخابات الجديدة مدة طويلة . وأما المضاعفة الاجتماعية فمستندة إلى ما يبدو من منافسة قوية بين الاشتراكيين والشيوعيين . وهم مضطرون لأن يتعاونوا لمقاومة أحزاب اليمين وإن كانوا فى تعاونهم يتكارهون .

تلك هى الانطباعات العامة التى أعود بهـا من العواصم الثلاث عن حالات الدول الثلاث . أما هيئة الأمم المتحدة ، فقد كان انطباع الأسبوع الأول من أسابيع دورتها الأولى التى دامت من العاشر من شهر يناير إلى السابع عشر من شهر فبراير انطباع أمل وثقة . ذلك بأنه كان أسبوع الخطب التى انطوت على الترحيب بالمولود الجديد ، وتضمنت الوعود بالعمل لخير العالم الجديد . لـكن ما كاد ذلك الأسبوع الأول ينقضى وما كادت المجالس واللجان تتناول أعمالها حتى لاح فى الأفق أن « الليلة شبيهـة بالبارحة » وأن « الأمم المتحدة » لا يميزها عن « عصبة الأمم » إلا أن المناقشات تجرى فيهـا علنية . أما الرغبة فى سيطرة « العظميات » على الصغيرات فواحدة ، وأما الخلافات على هذه السيطرة وما يراد وراءها من نفوذ فواحدة ، وأما سياسة وخز الإبر فواحدة ، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير واحد .

لكن العلنية التى تمتاز بها « الأمم المتحدة » قد كان من شأنها أن جعلت مناقشاتها فى متناول المفكرين بمجرد حصولها ، فمكنهم ذلك من التعليق عليها فى حينها . ويلوح لى أن سيكون لهذا الوضع أثره فى دفع « العقليين » فى مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرعوا فكرة التعاون العالمى وأن يحولوا دون تعكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحكم .

وسيكون هذا طريق السلامة .

محمود عزمى

مشكلة أسبانيا

لا يقتصر التاريخ فى أسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون، بل إنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت أحداثه وتشابهت، وتباينت آراء أهله وتناقضت، مثل أسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هناك بلد مثل أسبانيا ازدهر فيه الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونفّذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الإمارات المسيحية الناهضة فى شمال أسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية، فتملكت على الناس عقولهم وتحكمت فى آرائهم وحرياتهم، ونشطت بين ظهرانيهم محاكم التفتيش فقضت على ألوف الأبرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين الأحرار، لا لذنب اقترفوه سوى أنهم أطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التى اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى إحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل أسبانيا أمة واتتها الفرصة فامتلكت فى أوربا الأراضى المنخفضة ونابلى والبرتغال، ووافاها الحظ السعيد فكشف لها كرستوف كولمب عن أمريكا وصارت إليها خيرات الدنيا الجديدة وما فى أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت أسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها، حتى أصبحت فى فترة وجيزة سيدة البحار وأكثر بلاد العالم مالا وأعز نفراً . ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون فى بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجىء حتى أخلدوا إلى الدعة والبذخ وأسرفوا فى الاستهلاك بقدر ما أهملوا فى الإنتاج، واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا أن محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية، فأقاموها فى الأراضى المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين

آزرتهم إنجلترا . وما هي إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول أسبانيا العظيم المعروف « بالأرمادا » يغزو سواحل إنجلترا ، فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجد إلى الدرك الأسفل .

وبقدر ما كان ارتفاع أسبانيا خاطفاً وعظيما كذلك كان اضمحلالها شاملا وسريعاً ، فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى ، مبتدئة بالأراضى المنخفضة والبرتغال فى القرن السابع عشر ، ثم بنابلى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت أسبانيا قد خسرت مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ، ولم يبق لها سوى جزر الفلبين فى الشرق الأقصى ، وكوبا وبورتوريكو فى أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضاً غنيمة سهلة فى يد الولايات المتحدة عقب انتصارها فى الحرب الأمريكية الأسبانية فى نهاية القرن الماضى .

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدراً لأزمات دولية حادة أدت فى أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول .

١ — ففى سنة ١٧٠٠ مات شارل الثانى آخر ملوك أسرة هابسبرج فى أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه ؛ فقامت بين الدول حرب ضروس هى حرب الوراثة الأسبانية التى استمرت إلى سنة ١٧١٣ ، وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة فى أيدى الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التى ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفى سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان فى أوج سلطانه على التدخل فى شؤون أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكا عليها ، فأسر ملكها فرديناند السابع ودخلت قواته مدريد ، وقام الشعب الأسبانى بأول ثورة قومية فى أوربا ضد نابليون ؛ فكانت هذه مقدمة لنهضة شعوب أوربا ضد النظام الذى فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ — وفى سنة ١٨٢٢ قامت فى أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديناند السابع لحنثه فى يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذى وضعه الثوار ، فاستنجد فرديناند بمؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا ، فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل

الجيش الفرنسى أسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقى محتلا البلاد ست سنوات .

٤ — وفى سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديننند السابع ولم يعقب سوى ابنة صغيرة ، فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلا يتنازعان السيطرة فى البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة إيزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كرستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخا الملك دون كارلوس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش .

وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والإنجليزية ، وكان رجال الدين والأشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتسندهم الحكومات الرجعية فى وسط أوربا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية فى البلاد ، فعمت الفوضى وملئت البلاد رعباً ، وأخذ كلا الجانبين يتنافسان فى التنكيل بمعارضيهم وصب الكوارث على رءوسهم حتى أقفرت البلاد ووقف دولاب الأعمال . واستمر هذا التطاحن المخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين ، وبقيت الملكتان وبطانتهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطخ التاج الأسبانى بالوحل ودنسه بالعار .

٥ — وفى سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة إيزابلا فنفيت من أسبانيا ، وسارعت أسرة هوهنزلرن فى بروسيا إلى ترشيح أمير من أمرائها لاعتلاء عرش أسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا حتى ثارت ثائرته وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هوهنزلرن من بروسيا شرقا ومن أسبانيا جنوبا ، فكلف سفيره فى برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسى رسميًّا ، وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسى لعرش أسبانيا مرة أخرى . وكان هذا الموقف داعياً إلى إثارة الحرب الفرنسية البروسية التى انتهت بهزيمة فرنسا وكانت من أقوى البواعث على إثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت أسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية أسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى ، فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثانى عشر ابن الملكة إيزابلا ملكا عليها ، وكان على نقيض أسلافه ملكا مصلحاً اكتسب وهو فى المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرساً ، فبدأ فى أسبانيا عهد

إصلاحات شملت جميع مرافق البلاد ، وأهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية ، وتهدئة العناصر المتطرفة بإعادة الدستور والحكم البرلمانى وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات فى سنة ١٨٨٥ كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل فى جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك فى حياته وارثا للعرش ، ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو ألفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الإصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا ، وقدموا لوطنهم فى تلك الفترة أجل الخدمات. ومع أن الحرب الأمريكية الأسبانية التى نشبت فى سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك أسبانيا فى عرض البحار كما قدمنا ، فإن هزيمة أسبانيا وإذلالها فى نظر الدول قد خلق فى الأسبان روحا جديدة حفزتهم إلى العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالد مجدهم . وما هى إلا سنوات قلائل حتى زخرت أسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين. وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق . وبعد أن كانت أسبانيا ركناً منعزلا فى جنوب أوربا الغربى لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءاً خاملا أقرب صلة بإفريقية منه بأوربا ، عادت أسبانيا فى أوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكانتها بين الدول . فلم يكد ينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع أسبانيا فى سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة الاتفاق الودى مع انجلترا . واعترفت فرنسا لأسبانيا فى تلك المعاهدة بامتداد نفوذها فى المنطقة الشمالية الغربية من مراكش ، وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجى الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت أسبانيا بحيدتها ، ونالت من وراء ذلك كسباً ماديًّا ودوليًّا ؛ إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب ألمانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت أسبانيا فى مقدمة الدول التى

دعيت لتأسيس عصبة الأمم، وأخذ شأنها الدولى يكبر حتى فازت بمقعد فى مجلس العصبة.

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية فى روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعمالية، قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية فى بيئات المدن الصناعية، فنزح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية وإلغاء الرهبنة والأديار والجماعات الدينية الكاثوليكية، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة فى أسبانيا على أثر تأميم التعليم فى فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته، كما زادتهم ثورة البرتغال ضد الملكية فى سنة ١٩١٠ قوة إلى قوتهم. وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءاً بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة، وكان لما أصاب الجيش من الخزى والتخاذل أمام قبائل الريف فى مراكش الأسبانية أثره فى نشوء حركات فى داخل الجيش. يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم المشتغلون بالزراعة، ثم رغبة إقليم كتالونيا فى شمال شرقى أسبانيا فى الانفصال عن أسبانيا، وهو إقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونة المشهور. ويبلغ عدد سكان هذا الإقليم ستة ملايين من مجموع سكان أسبانيا الذى يبلغ ٢٥ مليونا.

لكل ذلك لم يكن عجيباً أن يعم السخط والتمرد، وأن تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم فى هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين، وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية. وقد دعا ذلك كله فى النهاية إلى ظهور الدكتاتور الأسبانى الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera فى سنة ١٩٢٣.

وقد كان ده ريفيرا قائداً حربيًّا لمنطقة كتالونيا، وكان معروفاً بكفايته وغيرته الوطنية، فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم. وجاء الملك من مصيفه فى سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة، وأطلق عليها حكومة الإدارة، فألغى الوزارات وعطل الدستور وأعلن الأحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف.

وقد سار ده ريفيرا فى حكمه سيراً حكيماً أنجز فيه إصلاحات شاملة وبخاصة فى نظام الجيش وفى مراكش وفى ناحية الأشغال العامة والعمال. وفى هذه الفترة

زار الملك الفونسو إيطاليا ومعه ده ريفيرا ، واستمدا من الدوتشي العون والبركة لنجاح الدكتاتورية فى أسبانيا ، وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولى لسياسة أسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحدّ من سلطانه دستور أو برلمان صحيح مدة سبع سنوات . وأخيراً استيقظ الوعى الأسبانى وعادت إليه سليقته ، فثار على النظام الملكى الدكتاتورى ، فسقط ده ريفيرا ، ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حُرِم حقوقه المدنية . وقامت حكومة جمهورية فى سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادىء الاشتراكية ، فأعادوا الدستور ، وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة ، وأدخلوا إصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضى وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم فى أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبيًّا مرضياً . ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الأسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القاري ، فهم دائماً مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ، ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى ، وهكذا دواليك . وليس بين كل نقيضين من هذه النقائض إلا فترة وجيزة يستجمون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر آثار التطرف الجديد فى عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لأملاكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك ، مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة الجديدة إنما تعمل على إقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى ، وهو نظام إن وافق أهواء أهل المدن والأقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على كثرة الشعب الذين درجوا فى أحضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الإقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى أذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة ، على ماجرى به العرف فى تاريخ أسبانيا ، من ضباط الجيش . وكان فرنكو متوليا رياسة أركان حرب الجيش وحاكما على جزر قناريا أو الخالدات فى أغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراكش الأسبانية ليرأس الثورة . وقد انضم إليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الأسطول . وفى أكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيساً للدولة ،

وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشستى ، وقد انضمت إليه الأقاليم الواقعة جنوبى أسبانيا ووسطها وشماليها الغربى ، أما الشرق والشمال الشرقى فظل مواليا للحكومة الجمهورية ، وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادىء الفاشستية التى يمثلها فرنكو ومن ورائه إيطاليا وألمانيا وبين المبادىء الاشتراكية الدولية التى عرفت فى ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين فى أسبانيا نظريًا وسريًا فى أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجاً إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الإعلان الرسمى ؛ فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظيمة الاهتمام بمصاير الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل روسيا عن أسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرانكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصناً بعد حصن ، حتى سقطت مدريد فى ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم فى الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول فى آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو فى حكمه سيرة فاشستية ، فألف حزب الفلانج Falange على نمط الحزب الفاشستى فى إيطاليا ، وجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه انتهج فى سياسته خطة وطنية بحتة راعى فيها مصلحة أسبانيا قبل كل شىء . فقد حاولت دولتا المحور ضم أسبانيا إليهما فى محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده ، وآثر أن تبقى أسبانيا وهى لا تزال فى دور النقه بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكتفياً بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية فى مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دل على سياسة فرنكو الوطنية أنه لم يلق

بالاً إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار إليها لتتخذها قاعدة تعرقل منها نشاط فرنسا وإنجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عند ما اعلنت الحرب العالمية الثانية ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تناهض ثورة الوطنيين الأسبان ، فسارع فرنكو باعلان حيدة أسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدًّا من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعى الأسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أرصد فرنكو لأسبانيا فى ذمة روسيا ديناً ثقيلا من المقت والبغض والعداوة .

ولم يكن ميل كثرة الأسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ، بل كان ميل الرأى العام الوطنى ، على العكس ، إلى جانب دول المحور . ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام ألمانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يبق ثمة ما يفصلها عن أسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن ألمانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة إيبريا لهددت جبل طارق ، ولتعذر على الحلفاء أن ينزلوا بجيوشهم على ساحل إفريقية الشمالى لمناهضة قوات روميل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيراً على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث ، وأنه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمناً لانضمامه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل أسبانيا مخابئ للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الأحرار أيضاً فى اثناء الاحتلال الألمانى ، ولم يحل دون اتصالهم بساحل إفريقية الشمالى . وكل ما استفادته أسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجة وضمتها إلى حكمها .

ولما لاحت فى أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تفيد منها ألمانيا عسكريا ، وأبعد « سيرانو سونر » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشستية ، وحاول أن يستغفر لخطاياه الماضية ولكن بدون جدوى ؛ فقد ظلت تهمة الفاشستية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشستية . وإذن فلم يكن

هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لإبقاء الحلفاء على دولة فاشستية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشاً تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

والآن تبدو مشكلة أسبانيا معقدة غاية التعقيد ؛ فإن الجمهوريين من الأسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم فى المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios ورئيس حكومتها « جيرال » Giral من وزراء أسبانيا السابقين . وتجمّع الجمهوريون أخيراً جنوبى فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يتربصون الفرص للزحف عبر البرانس على أسبانيا ، وهم يعدون خططهم سرًّا وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون . ولكن كيف يكون ذلك ؟ وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون ، وهم قد نشطوا كذلك نشاطاً عظيما ، وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال ، واتخذ له ولأتباعه مقرًّا قريباً من لشبونة حيث استقبله سفير أسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد فى سنة ١٩٣٨ الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو . ويقولون إن هناك اتفاقاً سريًّا على أن تعود الملكية إلى أسبانيا فى الوقت الذى يراه فرنكو مناسباً .

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو : ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فانها تصرح بآرائها ضد فرنكو ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضّل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح .

وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم « إن نظام الحكم فى أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسبانى . . . وإن أى تعرض

من جانب الدول لشؤونها الداخلية لابد أن يثير الشعب الأسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبى » . وجاء فى البيان الثلاثى الذى أرسلته انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى أسبانيا فى أوائل مارس أنه «ليس فى النية التعرض لشؤون أسبانيا الداخلية ، فإن على الشعب الأسبانى نفسه أن يعمل لتكييف مصيره » .

وأضعف حلقة فى نظام فرنكو أنه وليد التدخل الأجنبى ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه . وإن حكومة لاتستند فى حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لاتستحق أن تعيش . ومع ذلك فها هم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصرونهما على حكومة فرنكو. وها نحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفى بإرسال البيان الثلاثى ، بل تنفرد فتعلن أسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وها هو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويعلن إغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك أسبانيا حرة فى تنظيم بيتها ؛ لأن فرنسا لا تزال تعتبر أسبانيا امتدادا جغرافيًا لها ، ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى شمال إفريقية عن طريق أسبانيا برًا وجزر البليار التابعة لأسبانيا بحرا . فإذا لم تكن حكومة أسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية فى أوربا وإفريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك فى أن تستطيع فرنسا الآن وهى فى مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين فى أسبانيا بالقوة ، لا سيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو مالم يتجه البندول الوطنى فى أسبانيا نحو الثورة . فهل استجم الشعب الأسبانى واستعاد نشاطه إلى الدرجة التى تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها فرانكو فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرانكو آخر من جديد ؟ هذه هى مشكلة أسبانيا .

محمد رفعت

الانتداب والوصاية والاستعمار

انتهينا من مقالنا الماضى[1] إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد فى الشؤون والعلاقات الدولية . فلم يكن فى ميدان التكالب الاستعمارى متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ؛ وذلك لأن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق فى هذا الميدان ، فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار فى مختلف القارات والأقاليم ، تجعل منها « مستعمرات تاج » أو « حمايات » أو « مناطق نفوذ » أو « قواعد عسكرية » أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التى اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة فى الميدان حقوق مكتسبة مقررة ، ولم تترك للدول « اللاحقة » أو المتخلفة ، سوى لقيمات خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ، ولا رى فيها للظمأ الاستعمارى الذى يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية ، وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء ، وإخلاف العهود ، والحنث بالأيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبجلة مثل بريطانيا ، يطلق عليها الكتّاب فى أوربا اسم ألبيون الخائنة perfide Albion ، ومع أن بريطانيا قد تكون عدلت عن هذه الخطة قليلا أو كثيراً فيما بعد ، غير أننا رأينا هذه البذرة الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ، حتى رأيناها تنضج فى أكمل صورة وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية ، التى جعلت من نقض المعاهدات فنًّا من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبّقت فنها هذا فى القارة الأوربية نفسها ، وهى الميدان الوحيد الذى تحامته السياسة الاستعمارية الحديثة . فكأن الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا وبريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوربية ، وأن تنأى بنشاطها الاستعمارى

---

(1) الكاتب المصرى عدد ٦ مارس ١٩٤٦ .

إلى « ما وراء البحار » لأن المسرح الأوربى واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتتعرض فيه السياسة الاستعمارية للمؤاخذة الشديدة ، مع أن فى الأقطار البعيدة عن أوربا ميداناً أوسع ، ومجالا أرحب ، وتجنباً للنقد واللوم . أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمه مثل تلك الاعتبارات ، وقد أغلق باب التوسع وراء البحار ، وهى على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت فى أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التى سارت عليها الدول الاستعمارية فى قارتى آسيا وإفريقية . وكأنها أرادت أن تذهب فى التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها فى مارس سنة ١٩٣٩ اسم « حماية » بوهيميا ومورافيا . ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبولنده ودانمارك حمايات أخرى . ولكن الدول التى تحرص على التوازن فى أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية ، التى أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أن ليس من الإسراف فى شىء ما ذهبنا إليه فى ختام المقال السابق من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر ، فى قيام الحرب العالمية الأولى والثانية ، وما جرته على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعى أن تعلن الدول المعادية للمحور ، أنها تشهر حرباً « مقدسة » ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك . وهذا التبرؤ نفسه ، اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شىء ينبغى التنصل منه ، كأنه وصمة تأبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبة لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهى دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الفريقين ، ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها . وكانت السنة القديمة تقضى بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة ، من غير أدنى تحرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة ، التى قامت بها الدول المتحالفة فى الحرب الأولى ، والأمم المتحدة فى الحرب الثانية ، كانت قد ملأت البقاع والأصقاع ، وانتشرت فى الشرق والغرب . وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يجعل من الممكن للدول الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ،

ولم يكن بدٌّ من أن تعدل عن الخطة القـديمة وأن تنهج فى التصرف فى مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً . ولذلك سنت مبدأ الانتداب فى المرة الأولى ومبدأ الوصاية فى المرة الثانية . وكان هـذا المسلك الجديد اعترافاً ضمنيًّا بأن الاستعمار من الشرور التى لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التى تؤذى العيون ، فلابد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلـكا ينطبق على المنطق السليم ؛ إذ لو كان الاستعمار فى نظرها شرًّا من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلـكات . لـكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضى القديمة حق مكتسب ، لا معنى للتخلى عنه ، وأن المبدأ الجديد لن يطبق إلا على الأراضى التي زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا ، وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة ، حتى نرى إلى أى مدى نستطيع أن نعـده شيئاً جديداً فى السياسة الدولية ، يتمشى مع المبـادىء الإنسانية ، التى تورط الحلفاء فى الدعاية لهـا ؛ أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تستر به الشهوة الاسـتعمارية ستراً جيداً أو ستراً رديئاً : لقـد كان بين المنادين بفكرة الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقًّا على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرقى والرخاء . ولـكن هذه الجماعات لم تكن هى التى قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفـكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول ، التى لم يكن مسلـكها الاستعمارى فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدى ، التى لم تكن طاهرة الطهارة كلها ، أن تنقلب فجأة إلى أداة كلها طهر ونبل وإخلاص ؟

تعريف الانتداب

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التى سلخت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت فى أوربا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا أو إيطاليا أو رومانيا أو يوجوسـلافيا وغيرها ، واعتبرت

هذه الإجراءات مجرد تعديل فى الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم ترنتينو ، ولا فرنسا منتدبة على ألزاس ولورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرا ، بل أصبحت هذه الأراضى جزءاً متمماً للدول التى ضمت إليها . وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضى التى زال عنها حكم تركيا وألمانيا فى قارتى آسيا وإفريقية . أى إنه كان مقصوراً على القارات ، التى كانت تدخل عادة فى نطاق التوسع الاستعمارى ، وعلى الأقطار التى كانت مطمح أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه :

«A self-imposed limitation by the conquerors on the sovereignty which they obtained over conquered nations.»

(هو عبارة عن حد ، فرضه الفاتحون على أنفسهم ، من حق السيادة التى أحرزوها على الأمم التى قهروها .)

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور فى اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم فى شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن تمعن النظر فى هذا التعريف ، الذى يلقى شيئاً من الضوء على العقلية الاستعمارية ، وأسلوبها فى التفكير . فنلاحظ فى هذا التعريف :

أولا : أنه يشير إلى الحد من حق السيادة ، ولم يقل النزول عن تلك السيادة ، كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التى ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانيا : وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم ، تنبئ من غير شك بأنهم أصحاب الشأن فى تحديد مدى هذا « التحديد » .

ثالثاً : أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية ، وصف أقل ما يقال فيه أنه ينافى تلك الدعايات الإنسانية التى كثر التحدث بها فى الدول الغربية .

رابعاً : أغرب شىء فى هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلا ، بأنه قهر للأمم العربية ، مع أنه لولا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرد الجيش التركى منها .

فهذا التعريف لمعنى الانتداب يفيدنا فى تفهم عقلية الساسة الذين تولوا تطبيق

الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا فى فهم المعنى الذى رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول فى سن هذا المبدأ .

وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ، ما جاء فى أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب :

« المستعمرات والأقطار التى زالت عنها ، بسبب الحرب ، سيادة الدول التى كانت تحكمها من قبل ، والتى يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم فى الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضى بأن رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة فى أعناق الدول المتمدنة ، ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل »

هذا النص أدنى إلى ما كان يجول بخاطر الذين سنوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف ، وبين ما ذهب إليه اللورد بالفورهو الفرق بين عقلية واضعى نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب

وقد جعل الانتداب جزءا لا ينفصل من عصبة الأمم ، وهى الهيئة التى أنشئت للسهر على الأمن ، ولتنظيم علاقات الشعوب طبقا لمبادىء العدل والتعاون . وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق العصبة لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع ، وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان فى الوعى السياسى ، والنمو الاقتصادى والثقافى ، وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما النوع الأول فيشمل تلك الأقطار التى كانت من قبل جزءا من الدولة العثمانية ، وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن الاعتراف بهم كأمم مستقلة ؛ وفى هذه الحالة يكون واجب الدولة التى تتولى الانتداب مقصورا على

بذل الارشاد والمساعدة ، إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسى الكامل، وتتمتع بالاستقلال التام . ومن الواجب أن يستأنس برأى هذه الأمم فى اختيار الدولة التى تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب الدرجة الثانية فيشمل المستعمرات الألمانية فى غرب وشرق إفريقية فى المنقطة الاستوائية ، وهذه الاقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها ، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه.

أما انتداب الدرجة الثالثة فيشمل إفريقية الجنوبية الغربية . وهى قطر نصف صحراوى قليل السكان متاخم لاتحاد إفريقية الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة فى المحيط الهادى التى كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفى هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شىء إلى النظام الاستعمارى القديم .

توزيع الانتدابات

كان الواضعون لمبدأ الانتداب ، والذين دعوا اليه يظنون أن توزيع الأقطار التى يطبق عليها نظام الانتداب سيجرى بطريقة خلاف التى اتبعت فعلا فيما بعد . كانوا يرون أن توضع تلك الأقطار جميعاً تحت تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق فى أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذى تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته . بل وللعصبة الحق فى نظرهم أن تتولى هى الإشراف على أى قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التى تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا الرأى أن ينصوا على هذا فى ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا الى النزول عنه .

ونظراً لأن الانتداب بالصورة التى حددها ميثاق العصبة ، عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به . وهو غرم وليس بغنم ، كان المنتظر أن تتردد الدول فى قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تتريث كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة . ولكن الذى حدث فعلا هو أنه كان هنالك تزاحم شديد على تولى الانتداب ، ورغبة حارة فى الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول

الظافرة فى الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات الى هيئة مستقلة — أو شبه مستقلة — مثل عصبة الأمم ، وفضلت أن تجرى بينها المساومات والمفاوضات فى اجتماعات خاصة تعقدها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفى النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمراً فى سان ريمو بإيطاليا ، فى ربيع عام ١٩٢٠ ، واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول ، وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد ، واختصت اليابان بجزر المحيط الهادى ، ماعدا جزيرة ساموا التى تركت لزيلندة الجديدة ، وكلّفت استراليا بإدارة الجزء الألمانى من جزيرة غينا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فاعطيت ، على سبيل جبر الخاطر ، قطعة من شرق إفريقية الألمانى ، وهى القطعة التى تشتمل على إقليم رواندا وأرندى . أما إيطاليا فلم تعط شيئاً مطلقاً ، وخرجت من المؤتمر صفر اليدين ، مع أنه عقد فى أرضها ، وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتزاحم والتدافع التى رأيناها من قبل فى النشاط الاستعمارى فى القارة الإفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فإن هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم . فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ، ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التى ستسألها عن تأديتها .

تنفيذ الانتداب

والآن لا بد لنا أن ننظر كيف يؤدى الانتداب وظيفته ، طبقاً للنظم التى قرّرتها عصبة الأمم . فهنالك هيئات مكلفة بالإشراف — ولو من بعيد — على نظام الانتداب ، ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ، ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن فى مراقبة الانتداب من بعيد هى مجلس عصبة الأمم ، المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع الأكبر للبت فى جميع الشؤون المتصلة بالانتداب ؛ فإليه ترفع التقارير والشكاوى ، والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب ، أو إلغاء الانتداب فى أى قطر من الأقطار ، وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتــداب فى اجتماعات الجمعية العامة ، التى تضم جميع أعضاء العصــبة . ولــكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة فى كل عام ، كان أثرها فى مسائل الانتداب ضئيلا لا يستحق الذكر .

ولــكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير فى شؤون الانتداب ، وهى الهيئة التى أطلق عليها اسم لجنة الانتداب ، وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحــكم والاستعمار ، يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده فى كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هــذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة فى كل عام على الأقل ، وتتلقى التقارير الرسمية ، التى ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التى كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب ، لــكى يجيب عن الأسئلة التى توجهها إليه اللجنة .

ولعل هــذه اللجنة هى الأداة الرئيسية فى نظام الانتداب ؛ لأنها هى التى كانت تتولى فعلاً مناقشة مندوبى الدول صاحبة الانتداب ، ومحاسبتهم عن أعمالهم . ولــكنها لا تملك من الســلطة أكثر من أن ترفع بياناً ببحثها هذا إلى مجلس العصبة ، لــكى يتصرف فى الأمر كما يشاء . وفوق ذلك لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ماتسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التى اطلق عليها أحياناً اسم « صك الانتداب » هى التى تتضمن الشروط التى يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذة الدولة المنتــدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفاً لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبــة الانتداب نفسها ، وهى التى رتبت فصولها وبنودها ، ثم رفعتها بعــد ذلك إلى مجلس العصبة لــكى يقرها . ومن الجائز أن يعدّل المجلس فيها تعديلاطفيفاً ، ولــكنه قلما يمس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شــك عيب كبير فى نظام الانتداب كله وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فلقد كانت الدولة تنتدب أولا على قطر من الأقطار ، ثم تقوم هى بوضع شروط الانتداب ، ثم تعرضها على المجلس للموافقة . وكان الواجب يقضى بأن تكون هنالك هيئة مستقلة — ولتكن السكرتارية العامة لعصبة

الأمم — تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقاً لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التى تقبل الانتداب طبقاً لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكّن بعض الدول من أن تضع فى صك الانتداب أموراً لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة ، بحيث لا تقيدها فى أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أى إجراء شاذ تقوم به . وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن لجنة الانتداب فى سنة ١٩٢٤ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة . ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدال بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسى على سوريا ، لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة الملطفة التى يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق التفتيش أو القيام بأى إجراء فى داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب الاكتفاء بالتقارير الرسمية التى ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التى تأتيه أحياناً من مختلف الهيئات والأفراد .

كذلك لم يكن فى ميثاق العصبة أى نص يخولها أن تؤاخذ الدولة المنتدبة على أى إجراء تقوم به أو أى جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب ، ونقله إلى دولة أخرى ، أو أى إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام فى كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب

إن غرضنا الأول من هذا المقال أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتتبع سير الانتداب فى كل قطر من الأقطار . ولكن لا بد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشىء من الإيجاز بعض الأحوال التى نجمت عن الانتداب فى بعض الجهات ، لكى ندرك إلى أى درجة كان هذا النظام الجديد

خيراً من النظام الاستعماري القديم! وحسبنا الآن أن نشير إلى الأمثلة الآتية:

١ — تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادي، ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها، واحتفظت بتلك الجزر، وأخذت تجعل منها قواعد حربية، وتديرها كأنها ملك لها لا تؤدي عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لأية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول.

٢ — ارتكبت فرنسا في انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة، أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف، مع أن الميثاق صريح في أن واجبها الأول تأييد الحركة الوطنية والسير بها إلى الاستقلال التام. وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من هذا خطراً؛ فقد نزلت لتركيا في عام ١٩٢٠ عن إقليم قليقية، ثم نزلت لها في عام ١٩٣٩ عن سنجق الاسكندرونة. وقامت بكلا الاجراءين، وهما يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب، دون الرجوع إلى عصبة الأمم.

٣ — بدأت بريطانيا سياستها في العراق بقمع الحركة الوطنية، وبإرسال جيش بقيادة الجنرال سير آيلمر هولدين لهذا الغرض في عام ١٩٢٠؛ ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر، وهو أن تنشئ معاهدة بينها وبين حكومة العراق، لتحل محل الانتداب. وهكذا استبدل العراق بقيود الانتداب قيداً جديداً قبله بمحض اختياره.

٤ — ولا يتسع المقام هنا للإشارة إلى الانتداب الفلسطيني الشاذ. ولكن أمره على كل حال معروف للقراء في جميع الأقطار العربية. وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الكتّاب، وهي أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقتها بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار، لكي تُثَبِّت أقدامها في هذا الركن الخطير من أركان العالم. فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربي، والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً لدولة مثل بريطانيا. ورأى الساسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل، ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكي تنال الاستقلال التام. فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد في السكان، بطريقة توغر صدور العرب. وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق، وتشتد الحاجة إلى حاكم محايد لكي يفصل

بين المختصمين ؛ وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها فى فلسطين إلى أجل غير مسمى .

وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين . ولكيلا يكون لدى القارئ أدنى شك فى هذا ، فإنى أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتاب البريطانيين أنفسهم .

فقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تمبرلى عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

« كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعتها إلى السياسة التى اتبعتها فى فلسطين . وهذه الاسباب قد نتبينها فى المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، فى إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا ومؤازرتها ، هذا إلى جانب ماتناله من تأييد اليهود فى جميع أنحاء العالم . هذه هى النظرة البعيدة التى اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية . »[١]

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت فى كتاب من الطراز الأول ، لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكنا رغبة فى زيادة الإيضاح نشير إلى ماجاء فى كتاب آخر لمؤلف وسياسى مشهور وهو السرمارتن كونواى[٢] . وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها. قال حضرته : « إن الخطر الحقيقى على قناة السويس لا يجىء من الغرب بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجىء الخطر الجدى دائما . . . ومن وراء فلسطين سوريا ، ومن وراء سوريا الأتراك ، ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا —: ألمانيا فى الماضى أو روسيا فى المستقبل . . . من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا ، لا أصدقاء يعاوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول .

«Great Britain's hold on Palestine is an Imperial interest of the first order.»

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمين فى

---

(١) Harold Temperly, *History of the Peace Conference*, vol. IV, p. 171 (1920-24).

(٢) Sir Martin Conway, *Palestine and Morocco*, chapter XII (1932).

فلسطين ، وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لكى تحمى كل فريق من عدوان الآخر . وهذه فى نظره حالة مثالية Ideal لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدد .

وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين ، وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والوصاية

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت فى ظله آثام وشرور جعاته بغيضا إلى العيون والأسماع . حتى آمن الناس جميعا بأن نظام الانتداب ماهو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قدتكون أبشع وأفظع مما عرف فى تاريخ الاستعمار كله .

من أجل ذلك أراد المرحوم الرئيس روزفلت أن يخلق نظاما جديدا ، وأن يجعل له اسماً جديداً ، واختار للحالة الجديدة اسم « الوصاية » بدلا من الاسم القديم المكروه . وقد أراد رحمه الله أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الوصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصورا على الأراضى التى سلخت من إيطاليا واليابان بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، فقضى نحبه قبل انعقاد مؤتمر سان فرانسسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذى أنشأ نظام الوصاية الجديد ، ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهى الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارئ فلا أشرح له تفاصيل نظام الوصاية ، كما سبق لى أن شرحت نظام الانتداب . فان مثل هذا الشرح التفصيلى يستدعى تكراراً مملا . وحسبى أن أذكر هنا النواحى الهامة التى يختلف فيها نظام الوصاية عن الانتداب ، من الناحية النظرية الصرفة . وتتلخص هذه الاختلافات فيما يلى :

١ — تمتاز وثيقة الوصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التى لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الوصاية الجديد . وذلك بأن تعهدت الدول فيما يختص

بتلك الأقطار بأمور هامة ، إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية رفاهية سكان هذه الأقاليم ، وأن تكفل تقدم هذه الشعوب فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمى فيها الحكم الذاتى ، وأن تقدر الأمانى السياسية لتلك الشعوب حق قدرها . وأن ترسل — فوق ذلك — بيانات عامة فى مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ — أدخلت فى نظام الوصاية ظاهرة جديدة ، وهى تقسيم الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية . والمفهوم أن هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ، ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى ، أو أى عدوان آخر فى المستقبل .

٣ — تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن . أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية ، وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ — لمجلس الوصاية حق التفتيش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .

٥ — يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هى الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس فى الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هنالك نص يمكّن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء إذا أساء الوصاية ، على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارئ أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه صورة ملطفة ، أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة على كل حال بالنصوص النظرية التى تضمنها هذا الميثاق أو ذاك ؛ فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن فى ذاتها رديئة . وإنما العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التى تمارس بها كل دولة عملها ، وتؤدى بها رسالتها ، وتنفذ عهودها .

محمد عوض محمد

بين الحرب والجغرافيا

الحروب العالمية وموقع مصر

تعتبر الحرب مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض . وهى كغيرها من تلك المظاهر يصح أن تدرس من نواح مختلفة غير الناحية الفنية الخالصة . فيدرسها علماء النفس مثلا من حيث إنها تتصل بحالات نفسانية معينة ، تدفع الناس إلى الشر والتطاحن دفعاً ، وتؤثر بذلك فى سلوك الأفراد من ناحية ، وسلوك الجماعات من ناحية أخرى . ويدرسها علماء الحياة (البيولوچيون) من حيث إنها ظاهرة تتصل بحياة الإنسان ككائن يتأثر فى تطوره بالكفاح من أجل بقاء الأصلح ؛ فتتيح فرصة يغلب فيها القوى الضعيف ، ووسيلة يأتى بها الصالح على غير الصالح . ويدرسها كذلك علماء الأخلاق من حيث إنها شر أو خير ، ومن حيث إنها دليل فساد الطبع أو صلاحه ؛ فهى قد ترجع إلى الأثرة الغريزية والفهم الفطرى وما يصحبهما من قسوة جاهلة أو من دهاء ماكر ، وهذا دليل الشر فى الانسان . وقد ترجع إلى روح الإباء والأنفة وتنطوى على كثير من حب التضحية وإنكار الذات ، وهذا دليل الخير فى الإنسان . والحرب يدرسها أيضاً علماء الاجتماع والاقتصاد ، من حيث إنها تستلزم نظاما اجتماعيًّا واقتصاديًّا معيناً يوجه جهود المجتمع فى الكفاح ، ويرتب الحقوق والواجبات بين المحاربين وغير المحاربين من أبناء المجتمع ، ويغذى أداة الحرب ويلهب سعيرها ويشد عصبها بما يضمن النصر ، أو يدرأ الكارثة عند الهزيمة . ويدرسها كذلك علماء التاريخ العام ، والتاريخ السياسى بنوع خاص ؛ فهى حلقة فى سلسلة من الحوادث ، ترتبط أسبابها بالماضى ، وتمتد نتائجها إلى المستقبل ؛ وهى لا تقوم لغير سبب ولا تنتهى إلى غير غاية . وكلما اشتدت فى عنفها واتسعت فى نطاقها كان ذلك دليل عمق أسبابها فى الماضى وبعد نتائجها فى المستقبل . وقد ترتب على هذه الظاهرة أن أصبح جانب هام من تاريخ كثير

من الأمم ، بل من تاريخ العالم ، ترديداً للحروب وما يتصل بها من احتكاك مسلح بين الأمم .

على أن هناك ناحية أخرى من دراسة الحرب قد تكون جديرة بالعناية ؛ تلك التي تتصل بالمسرح الذى تجرى عليه حوادثها ، وبالظروف الجغرافية الطبيعية التى تملى على قادتها ما يرسمون من خطط وما يتخذون من وسائل[1] . ومثل هذه الدراسة ضرورية لتفهم مجرى الحرب ، لأسباب كثيرة أبرزها أن الإنسان لا يحارب فى الفضاء ، وإنما يحارب فى « المكان » ، وأن ظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها ، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها ولم يستجب لما تقتضيه من عمل إيجابى ، أو ريث سالب . والقائد الماهر فى الحرب هو الذى يرسم الخطة التى تلائم الطبيعة ، ويترسم الطريق الذى لا تحفه المهالك . وفوق ذلك فإن الحروب الكبرى فى التاريخ يمكن أن ينظر إليها على أنها حروب بين « أوطان » و« أقاليم » ، كما أنها حروب بين « أمم » و « شعوب » . فالأمة القوية والشعب القاهر فى حرب من الحروب إنما يستمدان القوة والمنعة من الإقليم الذى يعيشان فيه ، ومن القاعدة التى يستندان إليها . ويندر فى تاريخ الحروب أن تنهزم قوة تعرف كيف تجعل الطبيعة فى جانبها ، وكيف تستعين بظروف الميدان الطبيعية على العدو . بل كثيراً ما غلبت فئة قليلةٌ فئة كثيرةً ؛ لأن ظروف البيئة الطبيعية أو الموقع الجغرافى كانت تقضى بذلك .

والحرب فى عرف الجغرافيين ثلاثة أنواع : حرب محلية أو أهلية تبدأ وتنتهى فى وطن صغير واحد ، وبين أفراد أمة واحدة . وحرب إقليمية تقوم بين أمم قليلة متجاورة ، ولا تتعداها إلى مناطق أو جهات بعيدة . وحرب عامة أو عالمية تتسع لتشمل جانبا كبيراً من العالم ، وتمتد بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . وليس يعنينا من هذه الحروب الآن ، وفيما يتصل بموقع

(١) ينبغى أن نميز هنا بين الخطط الاستراتيجية ، وهى الخطط العامة والتوجيهات الأساسية للحرب ، وبين الخطط التكتيكية التى تتصل بالحركات المحلية فى الميدان . وتعنى الجغرافيا العسكرية العامة بالناحية الأولى ؛ أما الناحية الثانية فتتصل بما يعرف بعلم الطبوغرافيا المحلية وبدراسة الخرائط التفصيلية وتحديد حركات الجند إبان المعارك ؛ وهى ناحية فنية خالصة ، لاسبيل بنا إليها فى مثل هذا المقال .

مصر بنوع خاص ، غير هذا النوع الأخير ، وإن كان الحديث سيجر بالضرورة بعضه بعضاً ، فيتناول طرفاً أو أطرافاً مما يتصل بالحروب الإقليمية فى الشرق الأدنى بين حين وحين .

ومصر أمة قديمة ذات تاريخ طويل . وقد أصابها فى تاريخها هذا من الحرب شىء كثير . ولكننا نستطيع أن نميز بين قسمين كبيرين من تاريخ مصر العسكرى ، بل من تاريخها القومى العام ، تفصل بينهما غزوة الإسكندر فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد . فأما القسم الأول ، ويشمل العصر الفرعونى وما سبقه من عصر ما قبل الأسرات ، فقد امتاز بالحروب الأهلية ، التى انتهت بتوحيد الوجهين ، ثم تجددت بعد ذلك فى فترتين أو فترات قليلة متقطعة ؛ كما امتاز ببعض الحروب الإقليمية التى شاركت مصر فيها بنصيب كبير لا سيما أيام الدولة الحديثة ، وتكوين الإمبراطورية المصرية فى الشرق القريب . ويظهر أن مجد مصر العسكرى ، بل مجدها العام فى هذا القسم من تاريخها قد ارتبط بمواردها المحلية وحسن استغلالها . ففى العهود التى استكملت فيها البلاد وحدتها المحلية ، وأحسنت استغلال مواردها الطبيعية ، استطاعت مصر أن تدفع عن نفسها خطر الغزو وأن توسع سلطانها وتمد نفوذها فى ناحية الشرق ؛ وفى العهود التى أهملت فيها مرافق البلاد ، وساد التنابذ بين أقاليمها المحلية ، وظهر نظام الإقطاع ، ضعفت البلاد وطمع فيها الغزاة الذين جاء أغلبهم من الشرق وقليل منهم من صحارى لوبيا المجاورة . فكأن مصر فى هذا القسم من تاريخها العام كان بيدها مفتاح تاريخها وزمامه . أما فى القسم الثانى الذى تلا غزوة الإسكندر وحروبه العالمية ، فقد أفلت زمام ذلك التاريخ من يد مصر ، واتصل بعوامل أخرى « عالمية » لا سبيل بمصر إلى التحكم فيها . ذلك أن حروب الإسكندر ربطت الشرق بالغرب ، فأبرزت قيمة موقع مصر الجغرافى كحلقة اتصال تتحكم فى مواصلات البر ومواصلات البحر على حد سواء . ومنذ ذلك الوقت طمع فى مصر الطامعون وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر ، وإن كانت هذه البلاد قد استطاعت فى فترات معينة أن تجمع لنفسها من القوة ما تغالب به طمع الطامعين ، وما يمكّن لها من السيطرة على المواصلات العالمية ، والإفادة من موقعها الجغرافى إلى أبعد الحدود .

وقد كانت حرب الإسكندر بحق أول حرب عالمية ، احتك فيها العالم اليونانى ببقية الشرق الأدنى وفارس وبلاد الهند والصين . وقبل عهد الاسكندر لم تكن الحروب تتعدى أقاليم محدودة . ففتوح تحتمس الثالث مثلا ، رغم عظمتها وما تجلّى فيها من فنّ ومقدرة على القيادة والتنظيم ، لم تجاوز أرض الفرات الأوسط . وحروب ملوك فارس الأخمينيين لم تجاوز مصر أو أرض اليونان . وحروب ملوك الهند والصين لم تخرج عن بلاد كل منهما إلا إلى ما جاورها مباشرة . فهى كلها تعتبر حروباً « إقليمية » ، وليس بينها ما يمكن أن يعتبر حرباً عالمية بالمعنى الصحيح . أما الإسكندر فكان أول محارب صال بجيوشه بين مغارب العالم المعروف ومشارقه ؛ فبدأ من بلاد اليونان ، وفتح الأطراف القريبة من إمبراطورية الفرس ؛ ثم انطلق نحو مصر فاستقبلته استقبال المنقذ من حكم الفرس ومفاسده . ومن مصر سار غرباً أول الأمر حتى بلغ حدود برقة وواحة سيوة ، حيث وضع الكاهن الأكبر ، فيما يقال ، على رأسه قرنى آمون ، ومن هناك عاد إلى أرض النيل ، ثم اندفع بجيوشه صوب فارس من جديد ، فاخترق الجزء الشمالى منها إلى بحر قزوين وتركستان ؛ وهناك شرّق حتى بلغ حدود إمبراطورية الصين بين تركستان الغربية والشرقية ؛ ثم اتجه جنوباً إلى أفغانستان وشمال الهند ، ومنها عاد فى رحلة كشفية عابراً بلاد بلوخستان وجنوب فارس إلى أرض العراق حيث قضى نحبه بعد حرب استمرت حوالى اثنتى عشرة سنة ، ولكنها تعتبر حرباً خاطفة إذا ما نحن راعينا العصر الذى تمّت فيه ، والبلدان التى دوّخها الإسكندر ثم ربط بين أطرافها بنظام من الحكم العسكرى والفلسفة السياسية العامة ، التى لولا موت صاحبها لغيرت وجه التاريخ فى كثير من ملامحه وتفاصيله .

ويعنينا من حرب الإسكندر أنها تكشفت عن إدراك صحيح لظروف البيئة الجغرافية ومقتضياتها العسكرية . وقد تمثل ذلك بوضوح فى عدة مسائل ، ربما كان أظهرها أنه عند ما أراد أن ينقضّ على الإمبراطورية الفارسية ، لم يتسرع فى ذلك ، وإنما عمد أولا إلى تأمين جناحه الغربى فى مصر ، فانحرف من أرض الشام إلى فلسطين وطريق الفرما ودلتا النيل . وقد ضمن بذلك أشياء كثيرة : منها أنه تسلط بأقل مجهود ممكن على هذه الأرض الغنية ، التى تصلح أن تكون قاعدة تغذى جيشه عند الحاجة ببعض ما قد يحتاج إليه ، رغم اضمحلال إنتاجها

فى أواخر أيام الحكم الفارسى ؛ أو أنه على الأقل قد قطع بتسلطه على مصر الطريق على أى جيش يستطيع الحاكم الفارسى فيها أن يعدّه ليهجم به من الخلف على جيوش الإسكندر ، بعد أن تتقدم نحو قلب الإمبراطورية الفارسية فى الشرق.

وفوق ذلك فقد تجلى بُعْدُ نظر الاسكندر كفاتح عسكرى وكواضع أسس إمبراطورية لم يتح له القدر أن يتربع على عرشها الموحد ، فى مسائل تفصيلية كثيرة : منها أنه فتح مصر عن طريق شبه جزيرة سينا ، ولم يحاول أن يغزوها بالبحر من بلاد اليونان مباشرة ، وقد كان غزو مصر عن طريق مدخلها الشمالى الشرقى أيسر فيما يبدو من غزوها عن طريق البحر ، ومنها أنه بعد أن فتح أرض وادى النيل لم يكتف بذلك ، وإنما أدرك أن الصحارى هى دروع مصر الطبيعية ، وأنه لا بد للسلطة الحاكمة فى الوادى من أن تمد أيديها إلى تلك الدروع تتمسك بها وتتمكن منها فى الشرق والغرب جميعاً ، فقام برحلته المعروفة إلى حدود برقة وسيوة . ومهما قيل عن الباعث لمثل هذه الرحلة ، فإن من يدرس الجغرافيا العسكرية لا يملك أن يتجاهل قيمتها فى تأمين حدود مصر من ناحية البدو اللوبيين ، وقد كانوا على الدوام مصدر قلق للحياة الآمنة المستقرة بأرض الوادى ودلتاه . كذلك تجلّى حسن إدراك الإسكندر فى أنه لم يكن فاتحاً فقط ، وإنما هو أراد أن يضع أسس ملك دائم ، فرأى أن يعترف بالأمر الواقع ، وهو أن مصر بلاد ذات حضارة عريقة ومجد تليد ، فاحترم تقاليد البلاد ، وبلغ به ذلك أن تسمى « بابن أمون » ؛ ولكنه فى الوقت نفسه شرع فى أن يوجه مصر توجيهاً سياسيًّا جديداً نحو البحر المتوسط وبلاد اليونان ، فوضع تخطيط الإسكندرية لتكون عاصمة تحل محل منف ، وترمز إلى التوجيه الجديد نحو الحياة البحرية ونحو الشمال . وكان ذلك بداءة تحول خطير فى حياة مصر واتصالاتها الخارجية ، مما كان لموقعها الجغرافى فيه أثر بعيد.

وبعد موت الإسكندر كانت مصر من نصيب أسرة البطالسة ، الذين بدءوا أولاً بتنظيم استغلال موارد مصر المحلية ؛ فشقّوا ترع الرى ، ووسعوا الأراضى الزراعية ، وعملوا على تحسين وسائل الزراعة ، واعتنوا بالمحاصيل الغذائية والتجارية ، ونظموا طرق المواصلات والتجارة ، وأعادوا تنظيم أداة الحكم والإدارة . وبذلك كله ازدهرت مصر ، وغدت قاعدة قوية صالحة للتوسع والأخذ بأسباب السيطرة على طرق المواصلات البرية والبحرية . وفعلاً لم يلبث

الأمر بالبطالسة أن اتسعت أطماعهم ؛ فلم يقنعوا بأن تكون لهم مصر ، وإنما هم اتخذوها قاعدة لتنفيذ سياسة ترمى إلى « السيطرة العالميـة » أو ما يسميه مؤرخو الألمان باسم Weltmacht Politik وقد ترتب هذا كله على أن حروب الإسكندر عرّفت الغرب بالشرق ، وأن حسن تنظيم البطالسة لموارد مصر ، واستخدامهم لها كقاعدة تتحكم فى طرق التجارة العالمية ، قد مكّن لهم من أن يجعلوا منها دولة تستطيع أن تستفيد من موقعها الجغرافى . ولولا أن الأمر قد استحال بالبطـالسة المتأخرين إلى استغلال غير منظم ، وإلى كثير من الترف والفساد ، لما انتهى الأمر بمصر أن تطمع فيها الإمبراطورية الرومانية ، عندما انقلبت قوة مصر ضعفاً و مَنَعَتُها إغراء بالفتح والعدوان .

ولـكن الدرس الهام الذى نخرج به من أول حرب عالمية فى التاريخ هو أنها أبرزت قيمة مصر أكثر مما أبرزت قيمة أى إقليم آخر من أقاليم الشرق القديم . فقد قسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده ؛ ولـكن مملـكة بطليموس التى لم تـكن قبل الإسكندر تعدو أن تكون ولاية مهملة من ولايات إمبراطورية فارس المتطرفة ، قد انقلبت فى فترة وجيزة إلى دولة فتية ، هى أقوى دول الشرق القريب ، تتحكم فى مواصلات العالم وفى تجارته ، وتشق طريقها فوق ذلك إلى أن تصبح بمدينتها الإسكندرية مركز الفكر والثقافة فى العالم . ومن الغريب ، أو لعله ليس غريباً ، أننا نستطيع أن نخرج بهـذا الدرس نفسه أو بمثله من كل حرب عالمية تلت ذلك فى تاريخ مصر بعد الإسكندر .

وليس يعنينا أن نفصل القول فى كل حرب من هذه الحروب العالمية التى فتح سيرتها الإسكندر . بل قد يكفينا أن نختار أمثلة تظهر لنا مكانة مصر من كل كفاح عالمى ، لاسيما ذلك الذى يمس صلات الشرق بالغرب ، أو صلات أهل البلاد المعتدلة بأهل البلاد الحارة ؛ ثم مبلغ تأثر مصر بهذه الحروب إبان استعارها من جهة ، وبعد هدوء العاصفة من جهة أخرى . وسنختار أمثلة نجمل القول فيها إجمالا ، مكتفين بما تلقيه دراستها من ضوء على قيمة موقع مصر الجغرافى ، وتاركين لمقال قادم تفصيل الحديث عن آخر حرب عالميـة ، وهى التى بدأت عام ١٩١٤ وانتهت ، أو يرجى أن تكون قد انتهت ، فى عام ١٩٤٥ .

ولعل أول حرب عالمية احتك فيها الشرق بالغرب احتكاكا صحيحاً بعد العهد الإغريقى الرومانى هى حرب الصليبيين . أما فتوح الإسلام الأولى فقد احتك

فيها بعض الشرق ببعضه الآخر احتكاكا عنيفاً ، وحاول الشرق أن ينفذ إلى الغرب الفرنجى من بابه الخلفى فى إسبانيا ؛ ولكن الاشتباك هناك كان اشتباكا جزئيًّا وغير حاسم ؛ بل إن الدولة الاسلامية فى الشرق الأدنى نفسه لم تفعل أكثر من أن اقتطعت من إمبراطورية الروم ولاياتها فى غرب آسيا وشمال إفريقية ؛ فهى لم تتخط البحر إلى بلاد الروم نفسها . ولذلك بقى احتكاك الإسلام بالغرب وبالفرنجة المسيحيين إقليميًّا فى مداه ؛ هادئًا فى جملته ، حتى جاءت الحروب الصليبية ، فاتخذت العلاقات شكلا جديداً ؛ إذ طمع الغرب فى أن يتسلط على جانب من قلب الشرق القريب . وقد استمر الكفاح من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر . ولكن الصليبيين أخطأوا منذ البداءة فى رسم خُطَطهم وتلمس طريقهم ، وقاسَوْا نتيجة هذا الخطأ حتى النهاية . ذلك أنهم عندما تقدموا أول الأمر لم يأتوا الشرق العربى الإسلامى من بابه الصحيح ؛ وإنما غزوه عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ، فأصابهم الهلاك فى مطلع هجومهم ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الأرض المقدسة ، ولكنهم أغفلوا شأن مصر التى كانت مفتاح الموقف كله ، ونقطة الارتكاز الأساسية لمن يريد التوغل فى الشرق القريب والسيطرة عليه . ومع أنهم حاولوا فتحها فى عامى ١١٦٧، ١١٦٨م . فإن محاولتهم جاءت متأخرة مترددة ، وانتهت بالإخفاق أو الارتداد على كل حال . واستتب الأمر فى مصر بعد ذلك لصلاح الدين الذى اتخذ منها قاعدة صالحة أعد نفسه فيها ، وقوى جيوشه بفضل ثروة البلاد ومواردها ، ثم انطلق بهذه الجيوش فى اتجاهات كثيرة ، فحرر البلاد المقدسة أو جانباً كبيراً منها ، وتوسع نحو اليمن وبلاد النوبة وبرقة وطرابلس ، وكون إمبراطورية أو شبه إمبراطورية ، وقفت بقوتها وثروتها فى وجه الصليبيين فكسرت شوكتهم فى وقت بلغت فيه حماستهم أقصاها . ولقد عاد هؤلاء الصليبيون فتنبهوا آخر الأمر إلى أهمية مصر وحاولوا غزوها بالبحر عن طريق دمياط والمنصورة ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك مرتين فى عامى ١٢٢١ ، ١٢٤٨ م . ذلك أن تنبههم هذا لم يجئ إلا بعد فوات الأوان . ولو أن الصليبيين اتجهوا أول الأمر نحو مصر فوطدوا أقدامهم فيها ثم استندوا إليها كقاعدة للتوسع نحو الشرق القريب ، كما فعل صلاح الدين وكثيرون من قبله ومن بعده ، لتغير وجه التاريخ لعدة قرون .

وفى أعقاب الحرب الصليبية ظهرت حرب عالمية أخرى . ولكن كان مصدرها

ومهبها فى هذه الحالة من الشرق البعيد ، حيث ظهرت قوة الرعاة المغول فى سهول منغوليا الشرقية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم اندفعت جموعهم نحو الغرب ، فبلغت أواسط أوربا فى ربع قرن أو أقل ، وكانت بذلك إحدى حروب التاريخ الخاطفة ، وربطت ما بين الصين ووسط آسيا وهضبة إيران وسهول روسيا وأوربا الشرقية . ومع ذلك فيظهر أن هؤلاء الرعاة قد استهواهم استواء السطح وكثرة المرعى فى سهول الروسيا الجنوبية ، فاندفعوا بخيلهم وركبهم فى ذلك الاتجاه ؛ ولم يصب الشرق الأدنى فى غرب آسيا غير جانب من ضغطهم انتهى بتخريب بغداد على يد هولاكو فى عام ١٢٥٨ م . ولكن قوة المغول ما لبثت أن تلاشت فى هذا الاتجاه ، واستطاع سلاطين مصر هزيمتهم فى عين جالوت عام ١٢٦٠ م . ثم فى حمص بعد ذلك . وأنقذت مصر بهذين النصرين الشرق العربى من التخريب الشامل على يد المغول . ولو أن هؤلاء الرعاة الجبابرة استطاعوا أن يكتسحوا سوريا وفلسطين وأن يفتحوا مصر لقاست مدنية العرب والإسلام على أيديهم فى هذه الأقطار مثل ما قاست بغداد ، ولكن مماليك مصر استطاعوا من قاعدتهم أن يردوا الشر وأن يدفعوا الخطر فى آخر لحظة ؛ وكانت انتصاراتهم نقطة تحول فى التاريخ انتهت عندها حروب المغول الخاطفة ، واستعادت بعدها مصر مكانتها ، فتحكم المماليك من جديد فى طريق التجارة البحرية ، وأنقذت مصر بلاد الشرق القريب وحضارته من خطر داهم من الشرق المغولى ، كما أنقذته فى القرن السابق من خطر متسلل من الغرب المسيحى .

فإذا ما نحن تركنا القرون الوسطى ووصلنا إلى العهد الحديث ، وجدنا حلقة أخرى من الكفاح العالمى أثارها نابليون فى حملته الشهيرة على مصر فى آخر القرن التاسع عشر . وقد كان نابليون أحد هؤلاء العسكريين الذين يدركون قيمة المواقع الجغرافية ويحسون بطبيعتهم فى أى اتجاه ينبغى أن تسدد الضربات ؛ فنفذ ببصيرته الثاقبة إلى أن مصر التى كانت طريق التجارة بين الهند وأوربا خلال العصور القديمة والوسيطة ، ينبغى أن تكون طريق الوصول العسكرى إلى الهند . وقد يقال فى ذلك إن نابليون سبق البريطانيين إلى كشف أهمية موقع مصر من هذه الناحية . وقد يقال أيضاً إن البريطانيين كانوا يدركون من جانبهم احتمال ما قد يكون لمصر من أهمية فى الاتصال بالهند للتجارة وغيرها ،

ولكنهم شاءوا عن قصد أن يبقى هذا الطريق مجهولا مهملا ، وأن تحافظ بريطانيا على طريق البحر الطويل حول إفريقية حيث لاينافسها منافس . وسواء أصح القول الأول أم الثانى ، فإن الحق الذى لامرية فيه أن حملة نابليون كشفت عن قيمة موقع مصر الجغرافى مرة أخرى ، ونبهت العالم إلى ما للشرق الأدنى كله من قيمة لأية قوة تريد أن تسيطر على مواصلات العالم . ومع ذلك فقد أخفق نابليون فى الغرض المباشر من حملته . وربما كان أحد أسباب ذلك أنه بلغ مصر ثم انقطعت به الطريق بعد تحطيم أسطوله على يد نلسون . ولكن قد يكون هناك سبب آخر هو أن نابليون تسرَّع فى التقدم من مصر نحو الشرق القريب قبل أن يستتب له الأمر فى مصر نفسها إلى درجة تسمح له باستخدامها كقاعدة لذلك التقدم . ومهما يكن من أمر فإن القدر لم يشأ أن يستغل نابليون موقع مصر ؛ وإنما شاء أن يخلفه فى هذا الموقع عسكرى وحاكم آخر : محمد على الكبير . ولعل التاريخ قد أعاد سيرته مرة أخرى ؛ فكما أبرز الإسكندر بحروبه قيمة موقع مصر ثم ورثه فى الحكم بطليموس ، كذلك كشف نابليون بحربه الموجه إلى قلب الشرق والعالم الإسلامى عن موقع مصر وقيمته ثم خلفه فيها محمد على ؛ مع فارق ظاهر هو أن الحاكم الجديد رغم نزعته القوية إلى التجديد والاقتباس من الغرب كان يمثل جانباً هامـًا من روح الشرق الذى أيقظته حملة نابليون وصدمته العنيفة من سُباته الطويل العميق .

وقد أدرك محمد على منذ البداءة ما فى هذه البلاد وأهلها من حيوية كامنة ، وما يمكن أن يكون لها من شأن لو أن مصادر القوة فيها وُجِّهت التوجيه الصحيح ؛ وكان فى ذلك نافذ البصيرة صادق الحكم . فنفخ فى روح مصر ، ووجَّه نهضتها توجيها عمليـًا ، واستطاع فى ربع قرن أو نحو ذلك أن يدفع بنفسه وبهذه البلاد إلى المقدمة فى القوة والجاه . ولكنه عند ما أراد أن يستغل موقع مصر الجغرافى لم يشأ أن يتحكم فى طرق التجارة ، ولا أن يأخذ بمشروعات وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، ولا أن يحاول الإفادة من مرور التجارة العالمية كما أفاد غيره من حكام مصر السابقين أيام البطالسة ثم أيام المماليك . ذلك أنه أدرك ، وكان صادقا فى إدراكه ، أن مصر مهما قويت واشتد ساعدها فلن يكون لها من القوة ما يناظر قوة أهل الغرب وذوى المصالح فى تجارة الشرق . وما دام الأمر كذلك فأولى لمصر أن تتواضع وأن تقتصد فيما قد ترمى إليه من

وراء التحكم فى المواصلات العالمية تحكما قد ينطوى على المغامرة بكيانها نفسه .
ومع ذلك فإن محمد على لم يتوانَ من جهة أخرى فى استغلال موقع مصر العسكرى ومواردها المادية عن طريق آخر . فلم يكد الأمر يستقر له فى هذه القاعدة حتى اندفع منها بجيوشه نحو الجنوب فى السودان ، ونحو الشرق فى بلاد العرب ، ونحو الشمال فى بلاد اليونان ، ثم أخيراً نحو الشمال الشرقى فى آسيا الصغرى . ولولا ما كان من تألب دول الغرب على هذه الأمة الناهضة وهذا الحاكم العظيم ، لكان لمصر وعاهلها إذ ذاك وبعد ذاك شأن آخر . . . بل إننا لا نجاوز حد المعقول إذا نحن نسبنا إلى هذا التدخل تحول الأمور عن مجراها الطبيعى ، الذى كان يقضى بأن تجنى مصر ثمار نهضتها لخيرها وخير الشرق القريب كله . فقد قطع التدخل الأجنبى الطريق على مصر وحال بينها وبين أن تصبح قاعدة لتكوين كتلة متماسكة فى الشرق الأدنى تخلف إمبراطورية العثمانيين المتداعية فى مواجهة الغرب الطامع . بل إن تدخل أوربا كان أبعد أثراً من ذلك ؛ فهو قد وقف نموّ النهضة المصرية وشل حركة تطورها الطبيعى من جهة ، كما أطال دور النزع فى الإمبراطورية العثمانية الفانية من جهة أخرى . وترتب على ذلك أن دخلت ولايات الشرق الأدنى بما فيها مصر فى دور من الاضطراب أفسد أمورها ، وعطل نهضتها ، وفتح الطريق أمام الغرب الأوربى فى أن يتلاعب بشؤونها ويتكالب من أجل السيطرة عليها . وكانت مصر أول فريسة وقعت للعدو من ولايات إمبراطورية الرجل العجوز ؛ فانقلبت الأوضاع ، وباعد التدخل ثم الاحتلال بين مصر وبين أن تتابع نهضتها الداخلية أو أن تتزعم الشرق فى نهضته العامة ، فشُغِل أبناؤها بجهادهم من أجل حريتهم المفقودة ، وهم لا يزالون ينفقون فى ذلك من الجهد ما كان أولى بهم أن ينفقوه فى دعم نهضة بلادهم أو فى الأخذ بيد إخوانهم فى بلاد الشرق التى عرفت فى مصر رائدتها الأولى فى كثير من نهضاتها التاريخية .

وهكذا بشّرت نهضة محمد على فى أول الأمر بأن يكون موقع مصر مصدر بركة وخير لها وللشرق القريب كله . ولكن هذا الموقع ذاته ما لبث أن انقلب بسبب تدخل الدول الأوربية وموت الإمبراطورية العثمانية موتاً بطيئاً إلى مصدر خطر لا تزال نعانى شره حتى الآن . وليس ما حدث خلال الأربعين سنة الأخيرة وفى هذه الحرب العالمية الكبرى التى يقال إنها انتهت منذ أقل

من عام ، إلا نتيجة طبيعية لما كان من تشابك المصالح وتطاحن الدول من أجل هذا الشرق القريب والسيطرة على موقعه الجغرافى . ولـكن قصة هذا التشابك والتطاحن أكثر تعقيداً من أن نستطيع تناولها فى هذا المقال .

على أننا نستطيع أن نخرج من هـذه الدراسة التاريخية بحقيقة كبرى فيما يختص بمصر وموقعها الجغرافى . ذلك أنه لم تحدث حرب « عالمية » بالمعنى الـكامل الصحيح لهذه الـكلمة ، منذ فتح الإسكندر باب هـذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفاً فيها . ولم تستطع هذه البلاد بموقعها الجغرافى الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التى دُفعت إليها دفعاً أو انساقت إليها انسياقاً ؛ فهى قد مستها حروب الإسكنـدر وحروب الرومان وفتوح العرب وحروب الصليبيين وغزوات المغول وفتح الأتراك وغزو نابليون وما تلاها من تشاحن فى الشرق لا تزال فى أعقابه حتى اليوم . كذلك كانت مصر طرفاً فى تأليف إمبراطوريات عالمية متتالية أيام الرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . وإذا كان تاريخ المصريين أيام الفراعنة وقبل الإسكندر قد ارتبط بعامل جغرافى أساسى هو البيئة المحلية ومبلغ استغلالهم لها استغلالا يعتبر مقياساً لازدهار المجتمع وقوة الدولة فى تلك الأيام ، فان تاريخهم بعد ذلك قد اتصل بعامل جغرافى آخر لا يملـكون التنصل منه ولا تجنب آثاره ، ذلك هو موقع بلادهم الجغرافى الذى أطمع فيهم الطامعين وأفلت بسببه زمام التاريخ من أيديهم إلا فى فترات قليلة عرف فيها أبناء البلاد وسادتها كيف يستغلون هذا الموقع لصالحهم ، وكيف يحققون لبلادهم من القوة والمنعة ما يناظرون به القوة الخارجية ، وكيف يتخذون من بلادهم قاعدة للتوسع فى الشرق أو التحكم فى التجارة العالمية ، كما حدث أيام البطالسة أو أيام صلاح الدين والمماليك ، وكما كان يجب أن يحدث لو أن نهضة محمد على سارت سيرها الطبيعى . . . ولعلنا نذكر بعض هذه الفترات وما فيها من عبر ودروس عند ما نتطلع إلى المستقبل فى أعقاب هذه الحرب المنتهية . . . والذكرى تنفع المؤمنين .

سليمان حزين

الجناح الأبيض

هزَّ الجنــاحَ وطِرْ كأنداء السَّحَرْ
كغمامةٍ بيضاء، كالزَّبدِ الجميل على النَّهَرْ
ما أبهجَ الأفقَ الفسيحَ ! وطلاقةَ الحقلِ الصبوحْ !
ووضاءةَ الماءِ السَّبُوحْ !

هزَّ الجنــاح وطِرْ كأحلامِ الوليدْ
ما أسعدَكْ ! في موكبكْ ! تطوي السَّماءَ كما تريدُ !
وتروحُ يحملُكَ النسيمْ بأناملٍ نُعْمِ الأديمْ
كأديم طفــلٍ ناضرٍ

أسرابُكَ البيضُ الخفُوقاتُ الجنــاحْ
كغلائلِ الخزِّ الرَّقيقةِ إذ تعابثها الرِّياح
تغدُو إلى الرَّوْضِ الغَضيرْ وتحُطُّ في الدَّوحِ النَّضيرْ
كلآلِىءِ البحرِ العميقْ

سبحانَ ربِّي ! جلَّ صُنْعُكَ ! ما أرَى ؟
الفتنةُ البيضاء تنبتُ في الغُصون وفي الذُّرَى
زهراً به نفس الحياهْ ثمراً يعِزُّ على الشفاهْ
يغذُو القلوبَ بسحرِه

هزَّ الجناحَ وطِرْ كما يهفو الخيالْ
يهفو يؤلفُ بينَ أشتاتِ المعاني والجمالْ
طِفْ بالمياهِ وبالثرى   طِفْ بالقصورِ وبالقرى
واجمعْ أهازيجَ الرواحْ

عُدْ يا حبيبَ النورِ فالنورُ ذوى !
عُدْ يا طليقَ الروحِ قبلَ الليلِ فالطيرُ أوى !
عُدْ، كم ترنحكَ الرياحْ   فتعالَ نمْ حتى الصباحْ
حتى يناديكَ السحرْ !

حملتْكَ (1) نحو عوالمِ الشوقِ البعيدْ !
حملتْكَ نحو العشِّ، نحو النورِ والروضِ النضيدْ
أعطتْكَ آفاقَ السماءْ   وغذتكَ أطيافَ الضياءْ
وحبتْكَ باللحنِ الجديدْ

عُدْ، كم ترنحكَ الرياحُ وكم ترى
مِن لهفةٍ في نفسكَ الظمأى تجوبُ بها الفضا
لمْ يشفِها جوبُ السماءْ   أو يطفِها ذوبُ الضياءْ
بلْ زادَها الجوبُ صدى

هزَّ الجناحَ وطِرْ تتابعكَ العيونْ
ترنو لخفقِ جناحكَ الصافي، بأشواقِ السجينْ
يا ليتني أهفو معكْ !   ما بينَ آفاقِ الفلكْ !
وأهيمُ كالروحِ الطليقْ !

مالكة عبد العزيز

---

(1) أي الرياح .

جان بول سارتر ومواقفه

الادراك والخيال

ليس بين كتاب فرنسا اليوم من بلغت شهرته مبلغ شهرة سارتر . وليس هناك من حديث يدور عن كتاب اليوم فى الصالونات والأندية العامة أو الخاصة بل فى مركبات سكك الحديد إلا تناول ذكر سارتر ؛ فيقول أحدهم : ألم تقرأ كتاب سارتر الأخير ؟ وما رأيك فى مقال « الفيجارو » عنه ؟ ويقول آخر فى حسرة : آه ! لم تتح لى قراءة سارتر إذ عند ما سمعت به ورغبت فى شراء مؤلفاته وجدتها كلها قد نفدت ، وهل من يعيرنى نسخة من « الحائط » ؟ أو « الوجود والعدم » ؟ أو « الذباب » ؟ .

من هو سارتر ؟ وما سر هذه الضجة حوله ؟ يجب ألا يخيل إلينا أن قراءه يعدّونه سيداً من سادة الأدب ، ورجلهم ، معلما لذوقهم وانموذجا لفنهم ، أو لأسلوبهم ، أو لما يحبون أن يكون عليه الأسلوب الفرنسى . هذا كان ولعله لا يزال شأن أندريه جيد و پول ڤاليرى .

ولا يدّعى سارتر لنفسه شيئاً من هذا ، ونجده يقرر أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى نفسه سيداً أو معلماً فى الأدب ، ويسخر من هؤلاء الذين يبحثون عن كاتب هو السيد أو المعلم ، وعن كِتاب هو الكِتاب المثالى أو القاعدة ، ويرى أن مثل هذه الدعوى لا تصح إلا بعد أن يكون قد مرّ قرن أو قرون على الكتّاب وكتبهم .

وليس هناك رجل أبعد من سارتر عن الجماهير . وهو يعتقد قبل كل شىء أنه كمفكر يجب أن يعيش وحده منفرداً منعزلا : المفكر يفكر فى طبيعته كفرد وفى مصيره وهو يعيش ويموت وحيداً . ولكن سارتر رجل النقائض ،

إذ نراه فى الظاهر يغشى الأندية بل يكتب فى الأندية ، بل لا يكاد يكتب إلا فى الأندية . وعند ما يلقى محاضرة يختار مكاناً معدًّا للمجتمعات العامة والسياسية بنوع خاص ، ومكاناً يسع جمهوراً كبيراً .

لا عجب إذن أن يكون موضوع حديث ومناقشة . فهو يعمل ما فى وسعه على إبعاد الناس من حوله ، ويعمل ما فى قدرته على جمع الناس من حوله ، ولكنه سواء جمع الناس حوله أو أبعدهم ، فهو بين همس الناس وضوضائهم ، يعمل ما فى وسعه على أن يحقق شخصيته ، شخصية قوية فريدة .

لست أعرف شيئاً عن صباه وشبابه الأول . أعرف فقط أنه من أسرة وسطى أو من « البورجوازيه » الفرنسية — وهو من أشد نقاد البورجوازيه وأعدائها — كما أن زوجه سيمون دى بوفوار من أسرة عريقة فى البورجوازيه ، ولو أنها تكره البورجوازيه وقيمها ، والأرستقراطية وتقاليدها .

لا أدرى سنه بالضبط ، ولكنى لا أظنه يتجاوز الأربعين . وسارتر دميم الخلقة ، قصير القامة ، بدين قوى ، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه ، وشعره لا لون له ، بين الأحمر القاتم والأخضر الرمادى . وهكذا قل عن لون بشرته ، غير متمايز ، بين الأصفر والأزرق . وله عينان جاحظتان ، وفم غليظ الشفتين ، لا استقامة فى خطه . وسارتر فى ملبسه مهمل قذر ، وكان فيما مضى أشد قذارة فى مظهره وأكثر إهمالا لملبسه . ولذا لم تغرم به الفتيات ، بل كن ينفرن منه ويهجرن مجلسه . وكان هذا مرًّا شديد المرارة على سارتر . ولا شك أن هذا يفسر إلى حد معين مكانة المسألة الجنسية من مؤلفاته .

فى عام ١٩٢٤ نجح سارتر فى مسابقة دخول مدرسة المعلمين العليا بباريس وهى من أصعب المسابقات . ولما تقدم لمسابقة الأجريجاسيون أخفق ، فأعاد الكرة ونجح فى سنة ١٩٢٩ أو فى سنة ١٩٣١ ، أعنى أنه يكون رسب ثلاث دفعات أو خمس دفعات . ولا شك فى أنه ليس لهذا الإخفاق أدنى أهمية فى تكوين فكر سارتر وتنمية شخصيته الثقافية ، ولكنه بدون شك ثبَّت فى ذهن سارتر فكرة أن الجامعيين عاجزون عن تقدير الموهبة الفلسفية الحقة ، وعاجزون عن الحكم على النبوغ الأدبى أو الفكرى .

وعين سارتر أستاذا فى مدرسة روان ثم نقل إلى الهافر . ويحكى أنه كان يجلس مع طلبته فى قاعة الدرس ومعظمهم لم يتجاوز السابعة عشرة ، ويوزع عليهم الدخان والسجاير ويدخنون جميعاً وهو يلقى عليهم درساً فلسفيًّا . وأحب الطلبة سارتر وأقبلوا على درسه ، لا للتدخين فحسب بل للاستماع له وللمناقشة معه . وكان ينتقل بهم من الدروس المرسومة بالبرنامج إلى موضوعات خارجة عنه من أحاديث أدبية وسياسية ، ومن هــذه دون شك إلى أحاديث خاصة شخصية . وكان سارتر يحب طلبته ويخلص لهم ويرعاهم حين يذهبون إلى الجامعة ، فيعين بعضهم فى اعداد شهاداته ويكتب لبعضهم الآخر بحوثه . أما هو فصمم ألا يكتب للدكتوراه ، وألا يعمل شيئا للارتقاء إلى التدريس الجامعى ، بل عول على أن يبقى طول حياته أو طول مدة تدريسه على الأقل فى المدارس الثانوية .

ولا شك أن حياته فى الهافر منذ سنة ١٩٣٥ كانت قاسية عليه ، شديدة الوطأة ، وهى التى أملت عليه كتاب « الغثيان » . ويحوى هذا الكتاب فيما يحويه وصفاً رائعاً للهافر ، سادسة مدن فرنسا ، وصفاً لأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . يصف سارتر فيه لون المنازل ولون الماء ولون السماء ، وتكَيُّفَ الناس بهذه الألوان ، وأثر هؤلاء فى هــذه المدينة ، سادسة مدن فرنسا وأبعثها للسآمة والضجر . وصف سارتر يدور على أشياء لا تحتملها النفس ، وصفٌ تضيق به النفس كما كانت نفس سارتر تضيق بالأشياء وبالمدينة ، وصفٌ يجعل شعورنا بالحياة مرًّا ، كما كانت حياة سارتر بالهافر مُرّة أشد المرارة .

شرع سارتر يكتب وهو فى الهافر ، ولـكنه لم يبدأ برواية « الغثيان » بل كان أول كتاب له فى سنة ١٩٣٥ « الخيال » . والـكتاب فلسفى فى عنوانه وفى مضمونه ، يدرس طبيعة الخيال والصورة الخيالية ، ويعالج النظريات الفلسفية التى تناولت فعل الخيال والصورة الخيالية ، يفسرها ويفسر منزلتهما من حياة النفس ومن المعرفة . وإن ابتداء سارتر بالتأليف الفلسفى ليعنى شيئاً كثيراً ، يعنى أننا يجب أن نعتبر سارتر فى المبدأ فيلسوفا ليس غير . ومضمون الـكتاب وطريقة العرض فيه والمناقشة يدلان على أن سارتر فيلسوف من الطبقة الأولى ، له صبر حتى مع من لا يقر رأيهم من الفلاسفة ، وله قوة على النقد والهدم ، وله عمق فى التحليل لم يبلغه أى فيلسوف معاصر .

ودراسة سارتر للخيال مناقشة أكثر منها عرضاً ، وهى تحليلاً نقديًا أكثر منها وصفاً موضوعيًا . وخلاصة الكتاب أن سارتر يرفض فيه جميع النظريات السابقة للخيال ، وأنه يتجه فى نهايته إلى موقف ظن أنه يحوى الحقيقة عن الخيال ، فيفحص عن هذا الموقف فيجده غير مقنع . ويقف كتاب سارتر عند هذه الملاحظة ، ويترك القارئ يبحث عن موقف نهائى دون أن يهتدى إليه .

لِمَ هذه المناقشة ؟ ولِمَ عرض سارتر لهذه المشكلة ؟ وما العلاقة بين هذه المناقشة الدقيقة وما سيصدر عن سارتر فيما بعد من المؤلفات الأدبية الرائعة ؟ هل نجد هنا ما يعدّ مؤلفاته ، ما يعد ثورته الفكرية ؟ لا يمكن أن نجيب على هذه الأسئلة ما لم نعين بالضبط مضمون الكتاب ، حتى ولو كان فى هذا التعيين ما يبعدنا عن ميدان الأدب والفن وما يقيدنا بشروط فلسفية دقيقة .

لما درس الفلاسفة المحدثون طبيعة الخيال ، وجهوا نظرهم إلى الصورة الخيالية ولم يعنوا بفعل الخيال فى ذاته . واعتقدوا أن الصورة الخيالية ، صورة هذا المثلث أو تلك الدائرة مثلا . الصورة التى لدىّ الآن عن شخص معين ، لا تختلف عن الإحساس بهذا المثلث أو بهذه الدائرة أو بهذا الشخص . وكما أن الإحساس والادراك الحسى أبعد الأشياء عن العقل والادراك العقلى ، فكذلك الصورة الخيالية . وكما أن الاحساس والادراك الحسى يعوقان النفس عن التفكير الصحيح ، فكذلك تعوق صور الخيال أفعال التفكير . ونجد عند ديكارت نصوصا يكاد يقرر فيها أن الخيال جسمى ، وأن الصورة الخيالية تقوم فى المخ أو فى ركن من أركان المخ . ونجد عنده أن الانسان إن تخيل فلأنه يوجه انتباهه إلى جسمه ، ولأنه متحد بجسمه . ثم نجد عند اسبينوزا أن الخيال يقابل تأثر جسمنا بالأجسام المجاورة ويجعل النفس لا تفكر فى الأشياء إلا عن طريق هذا التأثر . والنفس وهى تحت سلطة الخيال لا تفكر فى الأشياء كما هى فى ذاتها ، ولا فى علاقاتها الموضوعية ، بل تفكر فيها من جهة الجسم المتحد بها ، ومن جهة علاقات الأجسام بهذا الجسم . وما دامت النفس تحت سلطة الخيال ، فهى إذن عاجزة عن معرفة الأشياء فى ذاتها وفى علاقاتها .

يسائل سارتر : كيف أن نفساً طبيعتها الفعل تحمل فى ذاتها ما يناقض الفعل ؟ كيف يمكن أن تحمل النفس شيئاً مثل الصورة الخيالية التى هى جسم أو شبه جسم ؟ أو ليس هـذا تناقضاً صريحاً ؟ واحد إذن من أمرين : إما أن ننكر وجود الخيال جملة ، وفى هـذا الإنكار ما يخالف الواقع ، أو أن نقرر وجود الخيال بحيث لا يكون فى تقريرنا هذا ما يعارض طبيعة النفس المفكرة الفعالة . ولـكن كيف يصح هذا والصورة الخيالية تقوم فى الذهن أو فى المخ — إذا أردت — كما يقوم المثلث أمام عينى أو كما يظهر هذا الشخص الآن أمامى ؟

قد حاول برجسون فى أواخر القرن الماضى أن يخفف من هذه الصعوبات عند ما اعتبر الأجسام كلها صوراً أو مركبات صور ، وعنـد ما قرر أن المادة المطلقة ، تلك التى تعارض طبيعة الروح المطلقة ، لا وجود لهـا إلا فى أذهان الفلاسفة ، وأن طبيعة الأشـياء ليست روحاً بالمعنى الدقيق ، مثل روحى أنا أو مثل روح فلان ، وليست جسما جامداً بلا حراك ، بل إنها بين الاثنين عبارة عن مجموعة صور ، إن تركزت واتحدت فيما بينها اقتربت مما نسميه روحاً وفكراً ، وإن تشعبت وتبددت اقتربت مما نسميه مادة وجسما . ومن ثمّ ليس هناك فارق جوهرى بين الصورة الخيالية والروح من ناحية ، وبين هذه الصورة والأجسام من ناحية أخرى . ثم ليس هناك إذن أى إشـكال فى قبول التصور الخيالى فى النفس ما دامت النفس فى أصلها جملة صور وكانت هـذه الصور فى أصلها شـيئاً غير المادة البحتة . ولـكن ثمة نتيجة أخرى أشد خطورة : ليس هناك اختلاف جوهرى بين الإدراك الحسى والتصور الخيالى إن كان الإدراك الحسى حضور صورة أو صور لمجموعة صور أخرى ، والتصور الخيـالى مثول صورة أخرى لنفس هذه المجموعة من الصور . ويقوم الفرق الوحيـد بينهما فى أن حضور الصور للنفس فى الإدراك الحسى له منزلة حيوية عملية ، ومتعلق أشـد التعلق بمطالب النفس الآنية ، فى حين لا يخضع حضور الصور للنفس فى الخيال لمثل هذه الشروط ، سواء تركزت الصور وتركبت فيما بينها على نحو جـديد أو تحررت كلية من مطالب الحياة المشتركة الاجتماعية . ومن هنا كان الخيال ابتكاراً ، ومن هنا تكونت الأحلام .

يتعجب سارتر من موقف برجسون ومما صادفه من النجاح عند الفلاسـفة

وعلماء النفس . كيف يقنع الفيلسوف بموقف ينتهى به إلى إنكار ذات الحقيقة التى يعتمد عليها فى نقده وفى حكمه على الأشياء وتقديره لها ، أقصد حقيقة الفكر الخالص ، حقيقة الذهن الفعال ؟ إذ سواء قربت النفس من الجسم كما يفعل الماديون أو الجسم من النفس كما يفعل برجسون ، فأنت تهمل دون شك مزية النفس على الجسم واستقلالها عنه . وسواء اعتبرتَ الصورة الخيالية نسخة من الإحساس يعوق الذهن فى تفكيره كما يفعل ديكارت أو رجعتَ هذا التفكير إلى جملة صور كما يفعل برجسون ، فأنت تعترف بأن الخيال لن يتميز عن الإحساس ولن يتعدى حدود الإحساس والإدراك الحسى .

ولكن ثمة نتيجة مهمة أخرى لموقف برجسون ، كانت متضمنة فى مواقف ديكارت وأسپينوزا : إن كان التقريب بين الإحساس والصورة الخيالية مشروعاً والتعادل بينهما جائزاً ، لم يعد هناك أى داع للتمييز بين الموضوعات الخارجية وصور الخيال ، أو — كما يقول ديكارت — بين اليقظة والأحلام ، بين إدراكى الآن فى الوقت الحاضر لهذه المائدة كما هى أمامى أو لهذا الرداء الذى ألبسه ، وبين صورتى المائدة والرداء فى ذهنى حين أكون نائماً أحلم .

ولكن ألسنا مخطئين حتى فى استعمال كلمة « صورة » ؟ ألسنا نعرّض أنفسنا بهذا الاستعمال للوقوع فى الخلط بين إدراك الموضوع الخارجى وتصوره الخيالى ، للخلط بين الجسم الماثل أمامنا، وحضور هذا الجسم عندما نحلم به ؟ زد على ذلك أن من يتكلم عن « صورة » فهو يقصد « نسخة ». من شىء خارجى ، ومن يتكلم عن الصور التى فى الذهن عن الموضوعات الخارجية ، فكأنه يحمل الذهن نسخاً للموضوعات الخارجية ، كما تحمل العدسة الفوتوغرافية صور الأشخاص والأجسام . ولكن إذا كان الفكر فكراً حقيقيًا ، وإذا كان الشعور شعوراً حقيقيا ، فلا محل فيهما لا للصور ولا للنسخ ، وإذا كان الفكر فعالا ، فأحواله دائماً أفعال مهما اختلفت شروطها وموضوعاتها . لنترك إذن لفظة « الصورة » جانباً ولنتكلم فحسب عن الخيال وموضوعاته ، كما نتكلم عن الإدراك الحسى وموضوعاته .

ما الإدراك الحسى ؟ وما الخيال ؟ أقل ما يمكن أن يقال الآن ، هو أن الإدراك الحسى تمثلٌ للأشياء فى حضورها الحى ، أو كما يقول هورسل « بلحمها وعظمها » . والخيال تمثلٌ لنفس الأشياء ، ولكن فى غيبتها بالذات . وإذا

لم يقم فارق بين الإدراك والخيال فهذا معناه أن لا فارق بين الأجسام الحاضرة والأجسام الغائبة، أى إلى حد ما بين وجود الأجسام وعدمها. ولكن الفلسفة تبدأ بتمييز أساسى بين اتجاهين للنفس، أحدهما يرمى إلى تقرير وجود الأجسام، إلى تقرير حضورها فعليًا لا مراء فيه، والآخر يرمى إلى التفكير فى الأجسام فى غيابها غيابًا حقيقيًا.

يلتقى سارتر فى هذه اللحظة مع المدرسة الألمانية المعاصرة التى يترعمها هورسل، هذه المدرسة التى تطلق على نفسها اسمًا غريبًا هو «الفنومنولوجيا». والاسم يعنى حرفيًا «دراسة الظواهر». وإنما يقصدبه فى نظر هذه المدرسة، موقفًا يظهر الحقائق للعيان، فلسفة تصف الشعور وأفعاله وموضوعاته فى خصائصها الجوهرية.

اعترف سارتر بدينه للفلسفة الألمانية لما قامت به من التمييزات الهامة، وخاصة عند ما وصفت فعل الإدراك الحسى فى اتجاهه نحو موضوعاته، عند ما وصفت الكيفية التى يتجه بها الإدراك نحو موضوعاته، والنحوَ الذى تمثل به هذه الموضوعات للذهن فى الإدراك. وعَمِلَ سارتر على فهم موقف هذه الفلسفة من الخيال وموضوعاته، ولكنه لم يجدْ مفرًا من الاعتراف بأن هذه الفلسفة، وهورسل خاصة، قد عجزا عن حل مشكلة الخيال.

يريد سارتر أن يحدد طبيعة الخيال، والخيال غير منفصل فى الوجود عن موضوعاته. يجب عليه إذن أن يحدد أيضًا طبيعة هذه الموضوعات وكيفية مثولها للذهن فى الخيال. إذ لا يكفى إن نقول أن الخيال تصور لموضوعات غائبة الآن عنا، ولا يكفى أن نقول إن موضوع الخيال لا يمثل للذهن «بلحمه وعظمه» حسب تعبير هورسل، كما هو الحال للموضوع الحسى. بل إن مشكلة المشاكل هى هذه: كيف يتأتى لما كان موضوعًا حسيًا، أى موضوعًا يمثل للإنسان «بلحمه وعظمه»، أن يمثل للإنسان وهو غائب عنه بالذات؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يتصور هذه الموضوعات الحسية، وهى منعزلة عن شروط الموضوعات الحسية بالذات؟ وبتعبير آخر، كيف يصح لما كان موضوعًا حسيًا أن يحضر للذهن دون أن يكون حاضرًا للذهن؟ وكيف يصح لكائن مثل الإنسان يقوم بالادراك الحسى أن يقوم بفعل يعارضه تمام المعارضة؟

هذا سؤال أو هذه أسئلة سارتر فى الكتاب الذى أصدره سنة ١٩٣٥ . والسؤال له خطره لأن الإجابة عنه ستحملنا دون شك على أن نقرر قيام فعل للذهن متصل أشد الاتصال بالإدراك الحسى مع أنه متميز عنه كل التميز . وستدعونا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نقرر موضوعات هى أقرب الأشياء لموضوعات الحس والعالم الخارجى ، ولكنها مع ذلك أبعد الأشياء عنها ، موضوعات موجودة لأنها حاضرة للذهن المفكر ، وغير موجودة الآن بالفعل . والسؤال مهم لأن الإجابة عنه أو محاولة الإجابة تتصل عنه أشد الاتصال بمسألة الفن وموضوعاته : فإن كانت قوةُ الفنان ، قصصيًّا كان أو مثالاً أو مصوراً ، تقوم فى خياله ، فالفنان يتصور إذن موضوعات غير موجودة ، أو هو يتصور عدماً ، أو ما هو أسوأ من ذلك ، يعطى للعدم وجوداً . وسيؤدى بنا البحث فى هذه المسائل إلى الإجابة عن سؤال خطير : إذا كانت الموضوعات الخارجية وعلامتها الوجود تَمْثُلُ للذهن أحيانا كأنها غير موجودة ، فهل يعنى هذا أن الوجود يتخلله العدم ، أو أن الوجود يحمل فى ذاته ما يعدمه ؟

نجيب بامى

رحلة فى برقة

٢ (١)

إلى المرج : برقة وطلميثة

الطريق من الشحات إلى المرج حوالى مائة كيلومتر ، ومن المرج إلى طلميثة حوالى الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقة ، كما أن طلميثة هى بطلميوسة أو بطلاميد مدينة البطالمة . والأولى من مؤسسات الإغريق فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية أخذت اسمها عن بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦—٢٢١ ق . م .) الذى ورث برقة بحكم زواجه من بيرينيس ابنة أميرها . وكانت طلميثة منذ تأسيسها ميناء برقة ؛ ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الأولى بين مدن برقة الخمس (بنطابوليس) وتفوقت على برقة نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق إلى برقة يناطح فى جماله وروعته الطريق إلى رأس الهلال ، لا سيما فى وادى الكوف[٢] حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عموديًّا شاهقاً مروعاً ، وتنفغر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هى الكهوف التى سكنتها فرق المجاهدين العرب ضد الاستعمار الإيطالى ، أنزلوا إليها بالحبال ، وأتاهم إخوانهم من أعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعوا من مخابئهم الحصينة أن يقطعوا على الإيطاليين الطريق دون الوصول إلى إقليم برقة الشرق سنين عدة ؛ ولم يتمكن الغزاة من كبح جماحهم

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) الكوف : جمع كاف . يقال إنها مشتقة من أصل أوربى cave ومعناها كهف .

واستئصال مقاومتهم إلا بعد أن نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب فى وقت واحـد تحرسهم طائرات الهجوم من علٍ . أما طريق طلميتة فيبدأ قبيل الوصـول إلى برقة شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة ، قائم على أساس الطريق الذى شـقه الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة فى سهل زراعى خصيب متسع الأرجاء ، اشتهر فى التاريخ القديم بإنتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة إغريقية قديمة منقورة فى الصخر على بعد خمسة كيلومترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الإمبراطور جستنيان حوالى سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسته فى أبولونيا . وعلى السـاحة الـكبرى التى تتوسط المدينة والتى تدعى الآن « ساحة مونتجومرى » يوجد حصن كبير بناه الأتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرملى ، وهو الآن المركز الرئيسى للحكومة البريطانية الحربية بإقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لُوَحٍ وشواهد بالخط الـكوفى القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الـكبير الذى تأنق الإيطاليون فى بنائه ، وجلبوا له الرخام الملون والأثاث والرياش وأدوات الترف من إيطاليا ، وهو الآن نادى الضباط ، نزلت فيه فرأيته قطعة من أحسن منازل أوربا . وليس فى المرج إلا شارع رئيسى واحد هو الذى يقطع الساحة الـكبرى أمام الحصن العثمانى ويمر بالسوق والجامع حيث الحى الوطنى بأزقته وبيوته المتلاصقة . أما الحى الأوربى فهو حول الحصن ، وتمتاز بيوته بالسعة والنظام والبساتين الفسيحة .

وإذا كانت برقة فقيرة فى آثارها القديمة ، فإن طلميتة على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلميتة القديم واتساع أرجائها ؛ فإن ما بقى منها يدل على أنها كانت تمتد من الساحل فى عرض السهل إلى التـلال الجنوبية ، وأنها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الأخرى بما فيها الإسكندرية ؛ فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربى القديم الذى لا زال قائماً إلى ارتفاع يزيد عن ستة أمتار ، وعلى جدرانه نقوش إغريقية وعربية كثيرة ، وفى الجنوب آثار جسر للمياه كان يصل عيناً جارية على بعد أربعين كيلومتراً فى الجبل بخزان المـاء العظيم الذى يعد من أعظم

وأكمل الأمثلة لخزانات الماء الرومانية ، ينزل الإنسان إليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى فى زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هـذا الخزان السوق (الفوروم) ، يتوسطه هيكل وبعض أعمدة قد تكون جزءا من معبد لعبـادة القياصرة . والمدينة عامرة بآثار المبانى اليونانية الرومانية الفخمة ، قام الأثريون بإصلاح أحدها وهو قصر لثرى من أثريائها لا زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى فى قصر جانوس العظيم بأكروبول قورينا . وربما كان أمتع ما فيه الفسيفساء البديعة التى تزدان بها أرض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة ألوانها ، لا سيما صورة لرأس ميـدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق وألوان زاهيـة صافية . ووسط هذا القصر نافورة وحمام للسباحة يحيط بهما صـف من العُمُد الكبيرة المزخرفة الجميـلة الصناعة . وفى دور سفلى توجد الحمامات والمخازن ومساكن الخدم وعدد من الحوانيت الجانبية بحذاء الطريق العام الخارجى . وفى طلميتة غير ذلك آثار لدار تمثيـل يونانية وملعب رومانى ومدرج لألعاب المصارعة . غير أنه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التى ترجع إلى القرن الرابع المسيحى ؛ لأن بانيها هو الأسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة فى عالم الأدب والفلسفة الإغريقى القديم . ومن آثاره المنشورة تتكون مئات من الرسائل اليونانية البليغة التى يندب فيهـا حظ بلاده فى عصر الاضطراب والفوضى عندما اكتسح البربر مدائن برقة الخمس بعد أن هدم اليهود حصونها وذبحوا أهليها . وقد اهتم الإيطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيما ، وأعادوا بناء كثير من أجزائها كما كانت . وهى بلا نزاع من الأمثلة الفريدة للمبانى الدينية المحصنة فى عهد القلاقل والثورات . فمدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لأكثر من رجل أو رجلين بولوجه ، وحوائطها الخارجية كحيطان الحصون فى ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفى ردهاتها آبار وصهاريج لاختزان المياه تحت الأرض لتموين حاميتها إذا طال حصارها . وفوق كل ذلك يقول علماء الآثار إن بينها وبين الكنائس المصرية الرومانية شبهاً ملموساً من ناحية الفن والمعمار وتنسيق ردهاتها وهياكلها وقبابها مما لا يتسع المقام للكلام عنه . وفى طلميتة دار للتحف تحتوى على كثير

من التماثيل والأعمدة والرسوم الملونة وقطع من الفسيفساء وغير ذلك مما تجدر رؤيته ويصعب حصره فى هذا المقام .

طقرة وبنغازى

هذه هى المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة . والمسافة ما بين المرج وبنغازى حوالى مائة وعشرة من الكيلومترات . وتقع طقرة على أقل من منتصف الطريق إلى بنغازى . وطقرة مثل طلميتة كانت فى الماضى إحدى موانى مدينة برقة ، ولكنها الآن أعظم اتساعاً ، وأكثر تنسيقاً ، وألطف هواء ، وأخف روحاً من طلميتة ، إلا أن آثارها عبارة عن أكوام لم تمسها بعد يد الحفارين والأثريين المنقبين بجد ، فهى لذلك حقل بكر للبحث والإنتاج .

وطقرة الحديثة قائمة إلى الداخل بعيداً عن الساحل ، فى حين توجد المدينة القديمة بجوار قلعة تركية على شاطئ البحر . وحوائط المدينة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى ، وليس فى برقة القديمة بأكملها ما يضارع هذا الحائط فى احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحيـة الحصن العثمانى الطريق الرئيسى الذى يخترقها من الشرق إلى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجارة ، وإلى جانبه من الناحية الشرقية الجنوبية آثار هيكل وعُمُد رخامية ورءوس عمد مهشمة عليها صلبـان بيزنطية تدل على أن بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ أن على بعض أجزاء تلك العمد نقوشاً عربية من عهد متأخر . وفيما دون ذلك لا يكاد الرائى يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التى يختلط فى تلالها وأكوامها الرماد بالحجارة والأعمـدة المتكسرة . وخارجها نحو الشرق على مقربة من الناحية الأخرى للحصن التركى توجد آثار مقبرة منقورة فى الصخر ، كشف عنها طيار بريطانى فى العهـد الأخير ، ونقل محتوياتها المتواضعة من عظام وآنية فخارية وزجاجية وأدوات مختلفات إلى دار التحف الصغيرة فى منزل الإدارة بالمدينة الحديثة .

أما بنغازى فيدركها المسافر فى أرض منبسطة ، وفى حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحة التى تغمرها مياه ملحة قليلة الغور ، يستخرجون منها الملح على غرار ماهو حاصل فى بحيرة مريوط عند الاسكندرية . ويلاحظ الانسان

لأول وهلة من دخوله إياها أن ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة أخرى بشمال إفريقية غير طبرق . فانك لا ترى طريقا من طرقها إلا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . أما العمائر الكبرى التى بالغ الإيطاليون فى الإسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يتهدم منها بكامله ، أصابت القنابل بعض أجزائه ، وأصلح البريطانيون الأجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين وللسكنى . وميناء بنغازى العظيم أصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الأحياء التى لم تصبها القنابل باصابات كبيرة تنحصر فى منطقتى الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازى غير جذاب تغلب عليه الحرارة التى ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها .

وبالرغم من أن بنغازى ذات مكانة فى التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهى خالية من الآثار التى تدل على مجدها التليد . وكل ما يمتّ لذلك التاريخ بصلة هو أن الأقدمين حدّدوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا فى أساطير الآلهة الميثولوجية ، عند نقطة قريبة من بيرينيس فى جهة تدعى « ليتى » على عشرة كيلو مترات من بنغازى على طريق مطار بنينة الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجى [1] يختلف عن جهنم ذات السعير التى نعرفها فى كتبنا المقدسة ، فهو عبارة عن مغارة عميقة فى بطن الأرض واصلة إلى العالم السفلى . نزلت عشرات الدرج إلى فوهتها مع زميل يقودنى بين أحراش كثيفة ، فإذا ما وصلنا إلى حيث تبـدأ الرحلة الأبدية أوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا فى الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيـه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلى على رءوسنا ، فانحنينا وانحنينا حتى كادت ظهورنا تنفصم من شدة الانحناء . وأخيراً علا الصخر وانفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى لهبها فاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلكة هذا الليل الأبدى ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، وإذ بقائدى يصيح بى أن قف ، ولن تستطيع إلى ما بعد ذلك سبيلا .

---

(١) مغارة ليتى التى يسميها العرب الشق الكبير اعتبرها الكتاب الأقدمون أمثال بلينى وسترابون وبطليموس الجغرافى بما فيها من المياه نهراً من أنهار الجحيم الميثولوجى تشرب منه أرواح الموتى فتنسى أفراحها وأتراحها فى الماضى على الأرض .

فشعرت بقشعريرة غريبــة لا أدرى أهى ترجع لعامل الخوف الغريزى الذى يعترى المرء فى أعماق الظلمات وهو لا يعرف إلى أين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، أم هى البرودة التى يشعها ذلك المـاء المثلج الذى يملأ بقية المغـارة إلى مسافات طويلة ، والذى من أجله استوقفنى زميلى عند تلك النقطة ؟

عدنا أدراجنا من جديد نتخبط فى تلك الظلمات ، وطلبت من صديقى أن يرينى جنة الآلهة اليونانية التى حدثنى عنها لتعويض ما نالنى من جحيمهم ، فصعدنا إلى دنيانا نحن الأناسىّ ، وعبرنا الطريق المجاورة ، وإذا بصديقى يشير إلى مساحة من الأرض الحرام ، كتب على بابها أنها مخصصة لوزارة الطيران الحربى ، ثم قال : هذه هى الجنة[1] التى تنشد رؤيتها . فكان بذلك حسن الختام ، إذ لم تمض أيام معدودة حتى امتطيت متن الطائرة التى أقلتنى إلى أهلى ووطنى من مطار بنينة فى هذه المنطقة بعينها .

عزيز سوريال عطيه

(١) هذه المنطقة معروفة فى كتب الميثولوجيا باسم Hespérides ويقال إن زيوس وهرقل وغيرهما من آلهة اليونان كان لهم مغامرات مشهورة فى بساتينها .

الملكة شجرة الدر

١

لما توفى السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شامخة، ولكنها مفككة العرى؛ وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية، ففيه حطمت المملكة الصليبية فى فلسطين، واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ومزقت قوى الصليبيين فى سائر الأنحاء. وخلف صلاح الدين فى ملك مصر ولده الملك العزيز، وكان نائبه بها، وخلفه فى الشام ولده الأفضل، وفى حلب ولده المظفر. وبذا انقسمت المملكة المصرية الشامخة إلى ثلاث ممالك، وأخذت قواها التى حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين، تتبدد فى سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية، ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل. ولما توفى العزيز بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ، وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلا، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام. وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين، وطمع الفرنج فى استرداد بيت المقدس، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ — ١١٩٨ م). وفى عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالا مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر يومئذ وصفاً يرتجف له الفؤاد فرقا [١]. وفى سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر، وزحفوا على مدينة دمياط،

---

(١) راجع هذا الوصف فى كتاب « الافادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادى (مصر) ص ٤٩ وما بعدها.

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ؛ وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوبا ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفى الشام ولده الملك المعظم . وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) . وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن يخلى الفرنج دمياط ، ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور فى عهده وتوطدت أركان المملكة ، وانتعشت قواها المبددة . وتوفى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

فخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ، وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ؛ وسار فى أنصاره معلنا الخلاف ، ووصل إلى جنوبى الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب الكرك كميناً وأسره وزجه سجينا إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريته شجرة الدر أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) ، فلبث يوسف فى اسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفى أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته فى اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين فى شؤون الدولة ، فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وترى فى الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك وتتربص الفرص للوثوب عليه . فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك ، رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه فى معسكره ببلبيس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه

لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر فى عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦هـ) ؛ وبذا لقى نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة القاهرة فى سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) وبها نشأ وترعرع . ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائنهم حتى تنفذ شروط الصلح. ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩هـ) ثم أرسله فى سنة ٦٣١هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) . ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية ، حتى توفى أبوه فى سنة ٦٣٥هـ ولقى ما لقى من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصالح مصر فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعه شجرة الدر حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ ، فيما يبدو ، أول عهدها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها فى قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو فى طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت فى صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر .[1]

فمَنْ هذه المرأة التى سطعت غير بعيد فى بلاط مصر ، والتى قدّر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوئها الملك مثلا فريداً فى صحف التاريخ الإسلامى ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أو رومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب فى عجز الرواية عن

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهى لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللاتى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلاطين فى تلك العصور ، ولا تعرف الرواية عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن فى توجيه الشؤون .

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة فى سنة ٦٣٧ هـ وهى مع سيدها الملك الصالح فى طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ « بجاريته وحظيته وأم ولده خليل » . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلا لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو مايزال فى طور الطفولة . وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زُجّت مع سيدها إلى قلعة الكرك ، كانت حاملا فأسقطت غمًّا وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثانى بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ هـ فإنا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة التثقيف ، بارعة فى القراءة والكتابة . وتنوه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمور . وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية ، وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة نفسها مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت « بالملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »[1]

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه شجر الدر وليس شجرة الدر . وممن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر جمال الدين ابن واصل وهو مؤرخ معاصر وقد ذكرها على هذا النحو مراراً فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (مخطوط دار الكتب جـ ٢ لوحة ٣٣١ و ٣٦٢) .

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها، ورجحان عقلها؛ وكانت مذ جمع القدر بينهما تعاونه فى تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها، فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة، وغدت ملكة غير متوجة، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان؛ ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهى كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التى فتنته بخلالها الرفيعة، تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد، فأعتقها وتزوجها . ولم تبق شجرة الدر بعدُ جارية تسمو بجمالها وسحرها ولكنها غدت غير بعيدة سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحاكم المستنصر وأم ولده المؤيد فى بلاط قرطبة . ولما توفى ابنها خليل طفلا بعد ذلك بقليل، لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

و٣٧٢) وكذلك أبو الفداء فى تاريخه (جـ ٣ ص١٤٠ و١٤١ و١٤٢ و١٩٢) وابن خلدون (جـ ٥ ص ٣٦٢ و٣٦٣ و٣٧٧) وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الاسلامية فى مقال شجر الدر، وكذلك المستشرق لاين بول فى كتابه عن تاريخ مصر ص ٢٥٥) ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعنى شجرة الدر ومن هؤلاء الصفدى فى « الوافى بالوفيات » وابن قزأوغلى فى « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزى فى كتاب السلوك وفى الخطط) وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات جـ ١ ص ٩٧) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ولو أنه فى كتابه المنهل الصافى يسميها شجر الدر (مخطوط دار الكتب جـ ٢ ص ١٧٦ و١٧٧) والسيوطى فى حسن المحاضرة (جـ٢ ص ٣٨ و٣٩) وابن إياس فى (بدائع الزهور فى جـ ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر فى سائر المواطن التى لها علاقة بها مع أنه يحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعادل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم شجر الدر هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية خصوصاً وأن ابن واصل وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية فانه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم شجرة الدر هو الاسم الغالب الذى كانت تعرف به الملكة فى البلاط وفى الحكومة، أو بعبارة أخرى هو الاسم الشعبى الذى غلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين وفى مقدمتهم المقريزى . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعا .

وكان الصالح نجم الدين ملكا متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة ، يمقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب . وكان يكل شؤون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالجة ، وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلالها الشخصية البديعة امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها فى هذا السبيل مآثر لا تحصى .[1]

ولم يكن للملك الصالح فى الوقت الذى بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة ، وكانت زوجا لمملوكه الجوكندار (حامل الصولجان) . فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديدات من تدانى شجرة الدر فى مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

وعُنِى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة ، وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها الصاحب جمال الدين يحيي بن مطروح ، وعين ولده المعظم توران شاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين فى النواحى .

وحالفه التوفيق أيضاً فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التى سُلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد)

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ، وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم فى ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم فى جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم بأسطول نهرى من الشوانى المسلحة التى أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال (الحَلْقة) أو الحرس السلطانى ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة فى القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة فى أوائل سنة ٦٤٦ هـ وقد وصف بأنه ناسور وعسر بول تلته قرحة فى الرئة . وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لوءلوء الأمينى صاحب حلب على حمص ، فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل فى محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة فى طريقها إلى مصر . فاضطر إلى النزول عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر فى محفته ، وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط التى كانت فى ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيرت إليها ، وهى الحملة الصليبية السابعة التى قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرص ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩) . وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شىء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح

مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط فى حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم . فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرّع بالشجاعة والأمل ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضى بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه مَلكَ الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه .(1)

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح ، وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربى ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقى ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ؛ وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة . واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بخنق عدة كبيرة من مقدمى الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا فى محفته إلى المنصورة ، وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥ هـ ونزل بقصرها المتواضع . وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها ، وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية فى تلك القاعدة الجديدة ، وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ورابط فى النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطانى سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج فى أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

---

(1) راجع نص هذين الكتابين فى « السلوك فى دول الملوك » للمقريزى ج ١ .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالا بين المسلمين والفرنج ، وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى فى يد المسلمين أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهرى الذى ساد عليه الوجوم مذ سقطت دمياط . واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩) والسلطان الصالح أثناء ذلك يعانى أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة ، فتوفى فى قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه فى الديار الشرقية ، وكان يومئذ فى حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان فى تلك الآونة العصيبة ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير . ولكن القدر كان رحيما بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة ، تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض فى قلب المعسكر السلطانى ، تشرف على تدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر بمعاونة رجال الخاص المخلصين ، وفى مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ، ومحسن الطواشى . وكانت ترقب سير المرض بجزع ، وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر . فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم فى أرضها يتأهب لإنزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخاص ، ومحسن الطواشى وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فأذعنا للأمر . وكان الأمير فخر الدين رجلا وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة ، أصدق العون ، فأخـذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والغلمان ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان فى تابوت حمل تحت جنح الظلام إلى الروضة ، ثم دفن فيما بعد فى تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم « السلطان مريض ما يصل إليه أحد» . وكان السماط السلطانى يمد فى مواعيده ، وكأن السلطان حى يتناول طعامه كالمعتـاد ، وكانت الأوامر والـكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية فى تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بهـا على إخفاء موته حتى يحضر ولده . ويقول البعض الآخر إن شجرة الدر كانت لبراعتها فى الـكتابة تقلد العـلامة السلطانية على الأوامر بمهارة . وفى رواية ثالثة أن الذى كان يقوم بتقليد العلامة السلطانيـة هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل[1] .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب . وفى غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه ، أن يكون سلطانا بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ، فأذعن الأمراء للأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حيا ، ولـكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر . وأنفذت شجرة الدر فى نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً ممهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتحليف أكابر الدولة

---

(١) راجع ابن واصل فى «مفرج الـكروب» (مخطوط دار الـكتب ج٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك فى دول الملوك (ج١ـ٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٤) والنجوم الزاهرة عن مرآة الزمان (ج٦ ص ٣٣٣) .

ومقدمى الجند بالقاهرة على ماتقدم ، فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الانشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم توران شاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حينا على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر باشراف شجرة الدر وتوجيهها . وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاى .

محمد عبد الله عنان

(للبحث بقية)

أريتريا

مشاهدات وآمال

١

أليس من حق كل مصرى أن يتشوق إلى رؤية بلاد تربطه بها علاقات سياسية وثقافية وتاريخية : بلاد تجاور بلادنا بل تتاخم حدودنا وقلما نعيرها اهتماماً ! رحلت إلى أريتريا وأنا أتطلع لأرى ما تركناه فيها من أثر بعد صلات طويلة مستمرة وتاريخ حافل . فاستعدت ما وعته الذاكرة من هذا التاريخ فتلاحقت عصوره نصب عينى :

خلّفت الصلات التجارية بين مصر الفرعونية وأريتريا جاليات مصرية على سواحل أريتريا قبل عصر البطالسة ، ثم ازدادت هذه الصلات فى عصر البطالسة ، ولعل أظهر الموانى فى تلك العصور ميناء « عدول » التى تقع أطلالها الآن جنوبى « مصوع » . وقد أخذت فى الاضمحلال بعد هجرة العرب إليها فى القرنين الأول والثانى للهجرة . وقد تغنى بها شعراء العرب فذكروا سفنها ورماحها . وكانت عدول حلقة الاتصال بين تجار الحبشة والهند واليمن من جهة وتجار مصر من جهة أخرى . وظلت الجاليات المصرية فى أريتريا تحمل التجارة منها إلى مصر حتى القرون الأولى للبلاد ، إذ دخلت أريتريا تحت سلطان ملوك « أكسوم » الذين كانت بينهم وبين مصر صلات ود مكين . وقد حافظت أريتريا على استقلالها الداخلى تحت إشراف ولاة من قبل إمبراطور الحبشة . وكان الولاة يستقلون بها بين حين وآخر كلما وجدوا فرصة مواتية . وقد كان مظهر التنافس القائم بين الدول الكبرى لبسط سلطانها على البحر الأحمر يتجلى فى أريتريا . ففى القرن السادس عشر الميلادى استولى المصريون أيام الحكم التركى على بعض موانئ ومناطق فى أريتريا وظلت فى يدهم إلى عهد قريب . هذا وإليك استعراضاً سريعاً فى صورة شريط سينمائى عن أهم الحوادث والتطورات التى وقعت فى أريتريا منذ عام ١٨٦٥ .

فى عام ١٨٦٥ أراد الخديوى إسماعيل أن يربط ميناء «مصوع» بالنيل بخط حديدى بعد أن نزل له السلطان عن ميناءى سواكن ومصوع فى تلك السنة .

وفى عام ١٨٦٩ ازداد تسابق الدول الكبرى وهى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بعد فتح قناة السويس إلى الحصول على مناطق نفوذ فى البحر الأحمر . وقد تمكنت إحدى شركات الملاحة الايطالية من شراء منطقة فى خليج « عصب » بمال قليل من سلطانها الذى كان تابعاً للحكم المصرى . وطعن الخديوى إسماعيل فى صحة البيع ، وطالب بريطانيا باخلاء الجزر حتى لا تمعن الدول فى الجرى على هذه السنّة .

وفى عام ١٨٧٠ احتجت مصر على إيطاليا لهذا التصرف ، وأرسلت حملة إلى سلطان « عصب » ، ولكن الحملة لم تتمكن من النزول فاضطرت إلى العودة .

وفى عام ١٨٧٢ استولت مصر على منطقة « كيرين » و« بوجوس » ، وظلت فى يدها إلى أن أحرجت إلى سحب قواتها عام ١٨٨٤ بعد قيام ثورة المهدى .

وفى عام ١٨٧٩ احتل الطليان خليج « عصب » احتلالا عسكريا .

وفى عام ١٨٨١ هاجم الدناكل بعثة إيطالية كانت راجعة من الحبشة فاحتجت وزارة الخارجية الإيطالية بالاتفاق مع جلادستون على الحكومة المصرية باعتبارها مسئولة سياسيًا ، وطلبت منها إجراء تحقيق فى الحادث .

وفى عام ١٨٨٢ كان رد الطليان على احتجاج الحكومة المصرية فى مسألة عصب صدور مرسوم فى هذه السنة يضم « عصب » إلى المستعمرات الايطالية التابعة للتاج .

وفى عام ١٨٨٥ استولى الطليان على ميناء « بيلول » بعد موافقة بريطانيا ، ثم أنزلوا أول فرقة إيطالية فى « مصوع » واغتصبوها من الحامية المصرية وأنزلوا العلم المصرى وأجبروا الحامية المصرية على الجلاء ، ثم احتلوا المدينة مدنيًا بعد أن احتلوها عسكريًا . وقد وصل خبر هذا الاحتلال من محافظ « مصوع » بطريق « سواكن » إلى الحكومة المصرية ، فقررت الاحتجاج ، وأبلغ الجناب العالى فى مصر الذات الشاهانية فى الآستانة بالخبر ، وكانت الدولة العلية فى شغل شاغل بالبلقان ، وكانت انكلترا عاكفة على الانتخابات ، فلم تحتج الدول على هذا احتجاجاً رسميا ، إلا أن ذلك زاد فى أعداء إيطاليا فى اوربا .

وفى عام ١٨٨٧ هاجم الراس (ألولا) حصن « سحاتى » وقامت معركة دوجالى ، وحررت المناطق التى كان الطليان قد احتلوها من « سحاتى » إلى « مصوع » . ثم عادت إيطاليا فأعلنت الحماية على « حباب » واستردت « سحاتى » . نخضعت لها عدة قبائل .

وفى عام ١٨٨٨ أعلنت إيطاليا حمايتها على قبيلة بنى عامر .

وفى عام ١٨٨٩ احتل الطليان « كيرين » ثم « أسمرا » التى كانت تحت حكم الحبشة ، ثم استولوا على معظم أرتريا الحالية ، فاضطرت الحبشة فى شهر مايو من هذه السنة إلى عقد معاهدة « أوتشالى » معترفة بسلطان إيطاليا على المناطق التى فى شمال خط « أرافالى — هالاى — ساجانيتى — أسمرا — أتص يوحانس » .

وفى عام ١٨٩٠ استمر الطليان فى سياسة التوسع ، وتمكنوا من معاهدة سلطان « الأوسا » وقد حملوه على الاعتراف بحماية إيطاليا على الدناكل وهى المنطقة التى تمر فيها التجارة بين مقاطعة « شوا » وميناء « عصب » ثم احتلوا منطقة « عدوا » .

وصدر حينئذ مرسوم من ملك إيطاليا بتوحيد جميع الممتلكات الايطالية على سواحل البحر الأحمر وضمها إلى مستعمرة واحدة تحمل اسم أرتيريا ، نسبة إلى بحر أريتريا وهى التسمية اليونانية للبحر الأحمر (وكلمة أرتروس باليونانية معناها الأحمر) .

وفى شهر يونيه من هذه السنة هاجم الدراويش « أجوردات » واستولوا عليها وحصنوها .

وفى عام ١٨٩١ فى شهر مارس من هـذه السنة حددت مناطق النفوذ بين إيطاليا وبريطانيا فى أفريقيا الشرقية . واضطر الطليان رأس (منجشا) وبعض رؤساء قبائل « التيجرى » إلى الاعتراف لإيطاليا بالمناطق التى فى شمال خط « مارب — بيليسا — مونا » .

وفى عام ١٨٩٣ انهزم الدراويش فى « أجوردات » .

وفى عام ١٨٩٤ احتل الطليان مدينة « كسلا » ثم انسحب منها الدراويش إلى ما وراء العطبرة . وهزم الطليان جيش القائد الحبشى (باتا أجوس) .

وفى عام ١٨٩٦ انتصر الأحباش على الطليان فى معركة عدوا ، واضطرت إيطاليا أن تعترف لأتيوبيا باستقلالها . ولكن الطليان تمكنوا بعد ذلك من

الاستيلاء على « عديجرات » ومن ثم على « كسلا » ، إلا أن الأمر صدر من روما « انقلبوا إلى منازلكم » اى إلى أريتريا .

وفى عام ١٨٩٧ استرد الجيش المصرى « كسلا » من يد الطليان ، وحولت إيطاليا حكومة أرتيريا من عسكرية إلى مدنية طلباً لاستغلالها .

وفى عام ١٨٩٨ فى ديسمبر من هذه السنة اتفق على الحدود بين أرتيريا والسودان .

وفى عام ١٩٠٠ عقدت إيطاليا معاهدة مع الحبشة لتثبيت الحدود بين أريتريا والحبشة .

وفى عام ١٩٠١ تم بروتوكول الاتفاق على الحدود بين إريتريا والصومال الفرنسى .

وفى عام ١٩٠٢ اضطرت إيطاليا الحبشة إلى النزول عن منطقة قبائل « الكوناما » وضمها إلى أريتريا ، وقد وافقت بريطانيا على هذا .

وفى عام ١٩٠٣ اتفقت أريتريا مع السودان على إدخال تعديلات يسيرة فى الحدود .

وفى عام ١٩٠٨ وقع اتفاق بين أريتريا والحبشة لتحديد مسافة ستين كيلو متراً بين الشاطئ وبين حدود الحبشة ، وهى منطقة « الدناكل » التابعة لأريتريا .

وفى عام ١٩١٥ أبرمت معاهدة سرية فى لندن بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، هذا نص المادة ١٣ منها : « إذا اتسعت أملاك فرنسا وبريطانيا فى أفريقيا على حساب المستعمرات الألمانية ، فان فرنسا وبريطانيا ستتساهلان فى توسع إيطاليا فى أريتريا والصومال وليبيا وفى المناطق المتطرفة من المستعمرات الفرنسية والبريطانية على سبيل التعويض » . هذا هو النص كما نشره الطليان ، إلا أن الفرنسيين أذاعوه بشكل مختلف هو هذا : « إذا وسعت فرنسا وبريطانيا ممتلكاتهما الاستعمارية فى أفريقيا على حساب ألمانيا تعترف هاتان الدولتان بحق إيطاليا فى المطالبة ببعض تعويضات فيما يتعلق بالتوسع فى حدود أريتريا والصومال وليبيا والمستعمرات الفرنسية أو البريطانية المجاورة » . ومما يلاحظ أن هذه المعاهدة التى تتمسك بها إيطاليا يجب أن تسقط من الحساب ؛ إذ أن فرنسا وبريطانيا لاتملكان حق التصرف فيما عهد إليهما فى الاشراف عليه . أضف

إلى هـذا أن روسيا تخلّت عن تلك المعاهدة ، وأن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى قد غير من سير هذه الحرب .

وفى عام ١٩١٦ اعترف مؤتمر نابلى لشؤون المستعمرات لإيطاليا بحدود أريتريا الطبيعية على العطبرة ، وضمن الصلات التجارية بين أريتريا وسواحل البحر الأحمر .

وفى عام ١٩١٩ عقد مؤتمر روما ، ولم يكن الغرض منه الاتفاق على حدود أريتريا بل كان هدفه تثبيت ملكية الصومال الفرنسى والصومال البريطانى ، وكان من نتيجته أن أحيطت الحبشة من جميع الجهات .

وفى عام ١٩٣٥ كانت أريتريا الباب الذى تدفقت منه المعدات والقوات لغزو الحبشة .

وفى عام ١٩٤١ استولى الحلفاء على أريتريا .

هذا استعراض لتاريخ يدل على تهافت الدول على هـذا البلد الذى يعتبر قلب البحر الأحمر وطريق التجارة بين الحبشة والعالم الخارجى . وقد أظهرت الدول العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها اهتماماً كبيراً بأريتريا ، وكان هذا الاهتمام قد هدأ بعض الشئ فى الفترة بين الحربين . وإن هذا الاهتمام من شأنه أن يثير فى نفس المسافر إلى أريتريا روح التطلع وقوة الانتباه إلى مايجرى هناك حتى يفهم مصدر هذا الاهتمام .

أعطى البطالسة للعالم القديم معلومات جغرافية عن سواحل أفريقيا الشرقية ، ولكن بعد الشقة جعل من هذه السواحل أرضاً خرافية . ثم ظهر الإسلام فكان حاجزاً بين الحبشة المسيحية والعالم مما جعل الأوروبيين يؤلفون أسطورة « القسيس يوحنا » الملك المسيحى الذى يحكم على السود . ولكن الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية من فرنسيسكان ويسوعيين ومعظمهم من البرتغال ، تطرقوا إلى أريتريا منذ القرن الرابع عشر ، فاضطرت الحبشة وأرتيريا إلى إغلاق حدودها منذ القرن السابع عشر فى أوجه المبشرين ، إلى أن تجرأ الرحالة الاسكتلندى « بروس » فى القرن الثامن عشر ، ودخل الحبشة ومن ثم تتابعت الإرساليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والسويدية .

كل هذا حدث تحت أنوف المصريين الذين لم تنقطع علاقاتهم بأريتريا منذ عهد

الفراعنة، بل ازدادت قوة فى العصور المسيحية وتوطدت فى العصور الإسلامية. وعدد سكان أريتريا يبلغ نصف مليون نسمة، تتساوى بينهم نسبة المسيحيين والمسلمين. ومعظم المسلمين شافعية ومنهم قبائل الهدندوة وبنو عامر وهم بدو رعاة. وحباب وبلين وساهو ودنا كل وغيرها يسكن معظمهم القرى. وهناك الأريتريون المسيحيون، وهم يقيمون فى المدن ويحترفون الزراعة، وكذلك الوثنيون منهم كالباريا والكونامًا. وهناك عناصر أخرى هاجرت إلى أريتريا فى عصور مختلفة منهم العرب والهنود والسودان والصومال واليونان.

أما الموانئ فهى أهم وسائل المواصلات من الوجهة الاقتصادية للتصدير والاستيراد، تؤدى إليها السكك الحديدية أو الطرق البرية حاملة البضائع من داخلية البلاد. وقد اهتمت إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية بأن تقرب بين أريتريا وإيطاليا بخطوط الملاحة وأرصفة الشحن والتفريغ وتنظيم البريد والمواصلات التلغرافية والراديو. وذلك لأنها أدركت أن سهولة المواصلات تساعد على إنماء الثروة الفردية والثروة العامة، وهذا من شأنه أن يخلق جوًّا صالحاً لعيش الأوربى فى المستعمرات. واهتمام الطليان بالتقريب بين أريتريا وإيطاليا بشتى الطرق جعلهم يشعرون فى أريتريا بصلتهم الدائمة بإيطاليا.

وفى أريتريا خط حديدى واحد يصل ميناء «مصوع» بالعاصمة «أسمرا» ومنها إلى السودان فمصر. وقد برع الطليان فى مد شبكة من الطرق البرية لتسير عليها سيارات الشحن أو الأوتوبوس، أهمها طريق من ميناء مصوع إلى أديس أبابا مارًّا بأسمرا، وآخر من ميناء عصب إلى أديس أبابا مارًّا بديسى. ولعل أغرب هذه الطرق الطريق الحديدى من ميناء «مصوع» إلى «أسمرا» وطوله ١٢٠ كيلومتراً؛ إذ يصعد بك القطار من مصوع الواقعة على مستوى البحر تاركا وراءه حرارة ورطوبة لا تحتمل إلى أسمرا التى ترتفع حوالى ألفين وثلاثمائة متر فوق سطح البحر ببردها وجفافها فى نحو ثلاث ساعات فى طريق متعرج جميل.

وتتركز حركة أريتريا فى بعض مدن أهمها ميناء مصوع. وهذه اشتقت اسمها — ومعناه «مكان النداء» — من فعل صَوَّعَ بلغة (التيجرى) أى «نادى». وذلك لأن الواقف على الشاطئ يمكنه أن ينادى الواقف فى الجزيرة الموازية. وعدد سكان «مصوع» خمسة عشر ألف نسمة من الأريتريين، وخمسة آلاف من الطليان. ويلاحظ أن نسبة عدد الطليان إلى عدد السكان كبيرة. ويرجع ذلك إلى

أن حركة التجارة مركزة تقريباً فى مصوع ، وخاصة بعد أن وسع الطليان أرصفة الميناء وأقاموا عليها رافعات كبيرة قبل غزوهم للحبشة ، لتسهيل إنزال المواد الحربية الثقيلة . ويقاسى الأجانب كثيراً من جو مصوع ؛ فهى تعتبر من أشد بلاد العالم حرارة . ويستخرج فيها الملح . وقد أدى صيد الأسماك هناك إلى قيام صناعات كبيرة . وتعد مصوع أوسع وأهم ميناء فى البحر الأحمر ، تجتمع فيها تجارة الهند والحبشة وأوربا ، وقد كان يسميها الطليان « باب الإمبراطورية ».

وهناك ميناء «عصب» وبها سبعة آلاف أريترى وثمانمائة إيطالى . وهى أول مراكز الاحتلال الإيطالى تبعد ٣٨ ميلا عن ساحل بلاد العرب . وهى بعيدة عن أن تقاس بميناء « مصوع » ؛ لأن نسبة الحركة فيها إلى حركة ميناء مصوع نسبة واحد إلى أربعين . وقد فكر الطليان فى مد خط حديدى يربط أديس أبابا بعصب عن طريق « ديسى » ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ . وتعتبر « عصب » الميناء الطبيعية للحبشة على قدر « مصوع » و « جيبوتى » . ولكن وجود الخط الحديدى بين أديس أبابا وجيبوتى كان سبباً فى ضعف ميناء «عصب» . ومع ذلك احتفظت بأهميتها فى الاتجار مع اليمن ، فهى ميناء للمراكب الشراعية بها حى قديم معظم سكانه من « الدناكل » ، أما الحى الجديد فيسكنه العرب وفى عصب ملاحات كبيرة . وسيكون لعصب مستقبل تجارى لقربها من بلاد العرب ومن « عدن » ومن منطقة « الأوسا » ومنطقة « الوللوجالا » .

أما أسمرا فهى عاصمة صغيرة ، جوها جميل معتدل جاف يميل إلى البرودة طوال السنة ، ومبانيها متناسقة جديدة . ومعنى اسمها : « الغابة المزهرة » لنضرتها وكثرة زهورها . وحقًّا إنى ما كنت أتوقع أن أرى فى تلك البقعة من بقاع العالم مدينة تشبه فى تخطيطها ومبانيها أحدث المدن فى أوربا . وبها حى للأوربيين وآخر لأهالى البلاد . ويندر أن ترى أحد الأهالى فى الحى الأوربى ما عدا الخدم . وعدد سكانها ٥٣,٠٠٠ إيطالى و٤٥,٠٠٠ أريترى ، وهى تقع على ارتفاع ٢٣٤٧ متراً فوق سطح البحر .

أما مدينة « كيرين » فبها تسعة آلاف أريترى وسبعمائة إيطالى ، وكانت حصناً مصريًّا ، ترتفع فوق سطح البحر قرابة ١٤٠٠ متر تسكنها قبائل البوجوس والبلين ، وهى تقع وسط منطقة خصبة تنتج البن والصبار والدخان والموز والحبوب ، وقد كانت ملتقى قوافل السودان من « كسلا » إلى « مصوع » .

إلا أن إنشاء الخط الحديدى من « الخرطوم » إلى « سواكن » أضاع قيمتها الاقتصادية ، غير أنها حافظت على مركزها بالنظر إلى التجارة الداخلية .

وهناك مدينة تستحق الذكر وهى « ساجانيتى » بها ألفان من الأريتريين وبضع عشرات من الطليان ، وهى تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وأهلها من الأرثوذكس ، ويقطن المنطقة الجبلية منها مسلمون من قبيلة « الساهو » ، وهى وسط زراعى ، أرضها خصبة وجوها معتدل . وقد أطلق الأوربيون على هذه المنطقة « سويسرا أريتريا » . واشتهرت « ساجانيتى » بتجارة الماشية التى تكثر وترعى فى تلك المنطقة . وهى تتوسط طريق النقل بين « التيجرى » و « أسمرا » . وبجنب هذه المدن تجد مدنا أخرى صغيرة مثل « عدى أوجرى » و « أجوردات » و « وعدى قابى » و « بارنتو » ؛ وكل منها مركز تجارى للقبائل المحيطة بها .

السياسة : تلك لمحات تاريخية جغرافية اقتصادية سريعة أطمعت دولا ستًّا فى بلاد أريتريا ، وكل منها تطالب بحقها وتجاهد فى إثبات حجتها . وهذه الدول هى : أثيوبيا وإيطاليا والسودان وبريطانيا والروسيا ومصر . ولعل استعراض مطالب هذه الدول ومساعيها يجعلنا نعرف موقف مصر بإزائها ، أو نرى ما يمكن أن تحققه مصر هناك من آمال .

أثيوبيا : بدأت أثيوبيا منذ عام ١٩٤٤ بتنظيم جهودها فى المطالبة بضم أريتريا إلى أمها أثيوبيا فتكوّن فى أديس أبابا اتحاد أطلق على نفسه اتحاد أثيوبيا — أريتريا ، وأصدر جريدة أسبوعية (يأريتريا دمص) أى « صوت أريتريا» . وكذلك نظم هذا الاتحاد المظاهرات والاحتجاجات فى أديس أبابا . وفى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤٥ طاف المتظاهرون بالمفوضيات فى أديس أبابا وقدم رئيس الاتحاد طلباً باسم نصف مليون من سكان أريتريا بالانضمام إلى أثيوبيا ، ثم توّجت هذه المجهودات بمذكرة من وزارة الخارجية الأثيوبية مقدمة إلى مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن ، ووزعت على كثير من الهيئات فى الدول المختلفة أملاً فى النظر بعين الإنصاف إلى مطالب أثيوبيا وهى ضم أريتريا والصومال الإيطالى إليها .

إيطاليا: تحيرت إيطاليا فى الطريقة المثلى التى تقنع بها الحلفاء لاسترداد مستعمراتها. وقد طالعنا السنيور دى جاسبيرى وزير خارجيتها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ فى مجلس وزراء الخارجية بأن لجنة الحلفاء الفرعية تبحث مشروعاً أمريكيا فى مسألة المستعمرات لم ينشر بعد، وقال إن مسألة المستعمرات فى نظر إيطاليا الآن لا تبدو بالروح الإمبراطورية التى كانت رائد إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية، ولكنها مسألة ذات صبغة اجتماعية. وزاد أن خمسين سنة فى العمل والمساهمة فى التقدم العالمى لا يجوز أن تذهب هباء. وقال أيضاً إنه لا يمكن إعادة تنظيم الحياة الاستعمارية الإفريقية إذا أبعد الشعب الإيطالى أو جُعِل العمل مستحيلا عليه وبخاصة أن الحركة الديمقراطية على أتم استعداد لمنح المستعمرات الحكم الذاتى. وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ تبين مما تبودل من مذكرات نشرت فى واشنطون وروما أن الحكومة الإيطالية تقدمت بطلب صريح عن استرداد سيادتها على أريتريا وطرابلس والصومال، مع قبولها إنشاء منطقة حرة فى مصوع. وقد ذكرت إيطاليا أنها تريد مستعمراتها كوسيلة لامتصاص ما يزيد على ما تتسع له إيطاليا من الرجال، وليس غرضها أن تكون المستعمرات أداة تعمل على بث روح الإمبراطورية.

وقد توصلت إيطاليا إلى حجة أخرى للاحتفاظ بمستعمراتها وهى استدلالها بأنها قد حصلت على أريتريا والصومال وطرابلس وبرقة بتأييد البريطانيين وموافقتهم. ويقول الطليان إن بريطانيا أيدت إيطاليا فى استعمار الصومال وطرابلس وبرقة، وإن بريطانيا نظرت بعين الارتياح إلى احتلال عصب ومصوع؛ إذ أن الحكومة البريطانية التى كان عليها أن تتدخل فى الشؤون المصرية فى ثورة عرابى أغرت إيطاليا باحتلال هذين الميناءين حتى يمكن سحب القوات المصرية فى السودان عن طريقهما فى ثورة المهدى. وقالوا أيضاً إن موقف إيطاليا فى شرق أفريقيا كان قد دبر مع بريطانيا قبل أن يتمكن اللورد كتشنر من كسر شوكة المهدى.

السودان: فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ صرح السودانيون بآرائهم على صفحات الجرائد فيما يتعلق بأريتريا، ولكنهم لم يوحدوا جهودهم ولم ينظموا صفوفهم فتشعبت آراؤهم. فتجدهم يطالبون تارة بإعادة الأقاليم التى اقتطعت من

حدود السودان الشرقية ، وهى إقليم تسكنه جزء من قبيلة بنى عامر السودانية ، وإقليم شرق القلابات ، ومنطقة المتمة ، وإقليم قويا الذى تسكنه قبائل القمر والهمج ، وإقليم بنى شنقول وهو إقليم خصب به مناجم للذهب وقد كان جزءاً من السودان فى عهد الحكم المصرى .

ثم تجدهم تارة يعرضون النزول عن منطقة بنى شنقول التى استولت عليها الحبشة فى ظروف غامضة ، ويساومون فى أخذ منطقة بحيرة طانا بدلاً عنها ، وهى منطقة تهم السودان على حين أنها ليست بذات بال للأحباش — على حد تعبيرهم .

وقد بدأ السودانيون فى رسم خطتهم إزاء أريتريا فصرحوا بأن فيها ثلاثة اتجاهات سياسية :

١ — سكان من المسيحيين ينادون بالانضمام إلى الحبشة ويؤيدهم اتحاد أثيوبيا — أريتريا .

٢ — سكان من المسلمين يريدون الاستقلال التام أو الانضمام إلى السودان .

٣ — سكان السواحل من قبائل الساهو والمتطوعين وهم يطالبون بأن تفصل أراضيهم عن الأراضى التى يسكنها غيرهم وأن تكون لهم حكومة ساحلية .

وبعد عرض هذه الاتجاهات وجدت الحكومة السودانية من صالحها تشجيع الاتجاه الثانى . ونسمع فى أوائل هذا العام بوصول وفد من أريتريا إلى الخرطوم قوامه اثنان وعشرون من الأعيان وزعماء العشائر . وقد خصصت الحكومة السودانية بضعة آلاف من الجنيهات للحفاوة بهم واستقبالهم استقبالا شعبيا . وقد اهتم بمقدم هذا الوفد السيد على الميرغنى باشا إذ يدين له كثير من سكان أريتريا بالولاء من الناحية الدينية . وقد صرح الوفد بطلب ضم أريتريا إلى السودان لأن أريتريا لا تستطيع أن تستقل بنفسها اقتصاديًّا بسبب قلة مواردها ومحل أرضها .

بريطانيا : بعد أن احتل الحلفاء أريتريا عام ١٩٤١ بقليل استولت عليها وحدات من جيش الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأت فيها المصانع والمبانى ، واستبشر الأهالى بأن عهد رخاء سيعم البلاد . ولكن تسلم البريطانيون الادارة ومن ثم المصانع والمبانى ، وأصبحت البلاد فى يد بريطانيا وحدها دون غيرها

من الحلفاء ، وتزل لهم الأمريكان عن هذا الجزء من الأرض لسبب لا يعلمه إلا أهل السياسة . وبديهى أن بريطانيا لا تحتاج فى أريتريا إلى دعاية أو مطالبة ، فهى هناك بحكم الواقع . ولكن ربما أمكنها أن توجه الرأى العام فى الاتجاه الذى تراه صالحاً . فقد اقترح البريجادير كندى كوك الذى كان حاكما لكسلا فى شهر سبتمبر من العام الماضى إنشاء نظام ثنائى انجليزى — إيطالى على أريتريا ، وهذا بعد القيام بتعديلات إقليمية فى الأراضى المنخفضة المجاورة للسودان . ثم استطرد بأنه إذا استحال تنفيذ هذا الاقتراح ، وخاصة إذا ظلت ولاية النمر الحبشية تابعة لأثيوبيا ، فإنه يقترح ضم مستعمرة أريتريا كلها إلى السودان على أن يفرض عليها نظام شبيه بنظام الانتداب .

وقد تقدم البريجادير لونجريج مدير شؤون أريتريا باقتراح آخر وهو ضم الأراضى المرتفعة من أريتريا إلى السودان وفرض الوصاية البريطانية أو الأمريكية أو الدولية على المنطقة الساحلية وبها مصوع وولاية النمر الحبشية .

هذه بعض المقترحات التى أوحت بها بريطانيا إلى بعض المسئولين من رجالها . إلا أن التاريخ سيثبت لنا مقدرة بريطانيا على الاحتفاظ فى أى صورة كانت بأريتريا أو على الأقل بمصوع التى تعتبر قلب البحر الأحمر .

الروسيا : وقد أدلت روسيا بدلوها فى الدلاء وطالبت بمصوع . وحجتها فى ذلك أنها تريد أن يكون لها رقابة فى البحر الأحمر . ولا يعدو طلبها هذا خلق مشكلة سياسية جديدة .

مصر : أكثر هذه البلاد اتصالا بأريتريا من النواحى التاريخية والثقافية والدينية بل الاقتصادية . ولكن كل ما أمكننى أن ألمسه من المظاهر والمجهودات التى بذلت فى المطالبة بحق أو شبه حق لا يتعدى بعض عبارات وردت ضمن مقالات فى الصحف . والله أعلم .

مراد كامل

أبو عبيدة

٣ [1]

أين نلتمس بحث هـذه المسألة وتبين الوجه فيها[2] ؟ قـد يقال إن كتاب النقائض هو أكبر المصادر وأقربها وأوفاها بما نتساءل عنه ، وهو كتاب مجموع متحد الموضوع . ويقول الأستاذ أحمد أمين عنه إنه أكبر أثر لأبى عبيدة بين أيدينا يدل على طريقته ومنهجه فى التأليف ولغته وأسلوبه . ولـكن فى نسبة هذا الـكتاب ، فى صورته التى بين أيدينا ، لأبى عبيدة نظراً نرجو أن نرجع إلى بيانه . فلنتركه الآن ، ولنجعل أصلنا الذى نرجع إليه فى تبين أسلوب أبى عبيدة وخصائصه فى قصصه فى تلك الفصول التى نقلها عنه أبو الفرج فى أغانيه . فمن المتفق عليه أن أبا الفرج ثقة فيما ينقل ، متثبت من الأصل الذى ينقل عنه ، كما يصفه ابن النديم بقوله : « وأكثر تعويله كان على الـكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . وهو — فيما يخيل إلينا — نقل فى كتابه معظم كتاب الأيام لأبى عبيدة ، وهذا إلى أنه كان ينقل — فيما يبدو — دون اقتضاب أو تصرف .

والذى يظهر لأول وهلة من قراءة هـذه الفصول أن أبا عبيدة كان راوية مدققاً ، وقد اصطنع أسلوب المحدّثين فيما يروى عن الأعراب ؛ إذ يسند الأخبار إلى أصحابها ، ويتحرى فى هـذه النسبة الصدق والدقة ، حتى إذا اشتبه عليه الأمر فى أحد هؤلاء الذين يسند إليهم ، عبر عن شبهته ، وذكر الأمر كما وقع

---

(١) الـكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) تساءل الـكاتب فى نهاية الجزء الأول من المقال : ماذا صنع أبو عبيدة بالأخبار والأقاصيص أو بعبارة أخرى ماهو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

له ، فيقول مثلا : « وحدثني رجل يخيل إلى أنه أبو يحيي الغنوى » . ومثل هذا التحرى غريب فى مثل هذه المواضع ، ولـكنه يدلنا على أن الرجل كان شديد التحرج فى الأخذ بطريقة المحدِّثين ، فى رواية هذه الأخبار.

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأخذ به نفسه من إيراد الروايات المختلفة ، إذ كان يروى عن غير واحد فى الموضع الواحد ، فيقارن بين هذه الروايات بعضها وبعض ، حين يحتاج الأمر إلى المقارنة ، وذلك حين يقع الاختلاف بينها مهما كان هين الأمر طفيفاً . ولدينا من ذلك مثل قريب فى « مقتل زهير بن جذيمة العبسى » حين يذكر موطن زهير وموطن بنى عامر ، فأبو سوار الغنوى يذكر أن بنى عامر كانوا قريباً من أسرة زهير ولا يُشعَر بهم . ثم يعقب أبو عبيدة على ذلك بقوله : « قال عبد الحميد وأبو حية : بل بنو عامر بدَمْخ وزهير بالنفرات ، وبينهما ليلتان أو ثلاث » . ثم لا يقنع ضميره الروائى بذلك ، فيضيف رواية ثالثة عن سليمان بن المزاحم المازنى عن أبيـه أن بنى عامر كانت بالجريثة وزهير بالنفرات .

ومثل هذا كثير عند أبى عبيدة مما قد يضيق به البعض ، ولـكنه على كل حال مظهر من مظاهر الدقة التى نلاحظها دائما عنده ، والتى يتميز بها عن رجل كالأصمعى ، كما سنرى بعد .

وهناك ظاهرة بينة فى الروايات التى يرويها أبو عبيدة عن الأعراب تصدر ذلك المصدر ، وهو التفصيل فى الصور التى تؤديها هذه الروايات . وربما كان هذا التفصيل من الأشياء التى كان خصومه يستندون إليها فى اتهامه بالـكذب واختلاق الأخبار . ولـكنه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقة التى تدفعه إلى الاستيفاء ؛ فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها ، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤديها كما رويت له ، فى العبارة والمعنى . ومن ذلك كانت رواياته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يتمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربى بدوى ، والصور عربية بدوية خالصة ، والتفصيل فى أجزاء هـذه الصور هو ما نعهد فى الصور التى نراها فى الشعر الجاهلى ، كما فى شعر لبيد مثلا .

ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك كله تمثلا قويًّا إذا نحن نظرنا فى هذه الصورة

التى نجىء فى فصله عن « مقتل خالد بن جعفر » وهى تصور ناقة فى حال حلبها :

« . . . فأتى الابل ، فوجد حالبين يحلبان ناقة لهن يقال لها اللفاع ، وكانت لبونا كأغزر الإبل ، إذا حلبت اجترّت ، ودمعت عيناها ، وأصغت برأسها ، وتفاجّت تفاج البائل ، وهجمت فى المحلب هجماً حتى تسنّمه ، وتجاوبت أحاليلها بالشخب هثا وهثيما حتى تصفّ بين ثلاثة محالب . »

فهذه القطعة تعتبر من أروع مُثُل الفن التصويرى الفطرى ، دقة فى الوصف ، واستيفاء لمقومات الصورة التى تمثلها من نواحيها المختلفة ، وصدقاً فى العبارة التى تعبر عنها بمعانى ألفاظها وجرسها ونبرات حروفها جميعاً ، تعبيراً طبيعيًّا لا صنعة فيه ولا تكلف .

على أن هذا النزوع إلى الدقة الذى نراه فى تلك الظواهر كما يكون مرجعه إلى الروح العلمية التى تفرض على صاحبها الأمانة فى الرواية ، والدقة فى النقل عن الرواية ، كما هو الشأن عند المحدّثين ، يمكن أن يكون مرجعه أيضاً إلى الروح الفنية التى ترى فى هذه الدقة مظهراً من مظاهر الكمال الفنى ، فى إخراج الصورة حية نابضة ، وفى إبرازها بجميع أجزائها وملامحها وقسماتها ، وفى شتى الملابسات التى تلابسها وتحيط بها وتنشر الظلال حولها وتكيف الجو الطبيعى لها .

ويظهر أن كلا من الروحين : الروح العلمية والروح الفنية ، كان عاملا قوى الأثر فى عقلية أبى عبيدة ، وقد كانا يجتمعان فى هذا النزوع إلى الدقة ، ويختلفان فى بعض المظاهر الأخرى ، وإن كنا نرجح أن الروح الفنية كانت شديدة السيطرة عليه ، بعيدة الأثر فى احتفاظه بهذه الصور كاملة مفصلة على النحو الذى نراه . أما الروح العلمية فنرى من مظاهرها ذلك الحرص على تمييز الروايات المختلفة ، وإفراد كل رواية على حدتها ، وإن ترتب على ذلك تشتيت أجزاء الصورة الواحدة بين هذه الروايات التى تتكامل فيما بينها . ولولا هذه الروح العلمية المتحرجة لاستطاع دائماً أن يجمع بين هذه الروايات فى رواية واحدة ، تضم أجزاء الصورة جميعاً .

ولابد لنا من مثال يوضح هذا المنهج الذى يصدر عن هاتين الروحين معاً ، وليكن هذه القطعة من خبر ورقاء بن زهير ، وهى التى تمثل شاس بن زهير وهو عائد من عند النعمان .

ففى هذه القطعة نرى أبا عبيدة يورد روايتين ، تشتمل كل واحدة منهما على بعض أجزاء الصورة ، وتظهرها من إحدى ناحيتيها . فالأولى تصور ما كان شأس يحمله معه من لدن الملك النعمان : « مسكا وكُسًا وقُطُفاً وطنافس » وتصور حالة الجو حين أناخ راحلته ، وموضع الإناخة : « فى يوم شَمال وقُرّ ، على ردهة فى جبل ، ورياح بن الأسكّ أحد بنى رباع . . . على الردهة ، ليس غير بيته بالجبل » . وهذا هو أحد جانبى الصورة أبرزته هذه الرواية ، ثم تجمل صورة اغتساله ومقتله بعد ذلك ، وتطويها فى سرعة . فأما الرواية الثانية فتجمل هذه الصور التى عنيت الرواية الأولى بإبرازها مفصلة ، وتفصِّل ما أجملته ، فتصور وقت الإناخة بأنه كان فى الظهيرة ، ثم تذهب تبرز الجانب الآخر من الصورة ، فتصور شأس بن زهير وقد « ألقى ثيابه ، ثم قعد يُهَريق عليه الماء » ، وتصوره وهو قاعد عريان : « فاذا هو مثل الثور الأبيض » ، ثم تصور ما كان بين رياح وامرأته إزاء ذلك المشهد ، إذ يقول لها : « أنطينى قوسى » فمدت إليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله » . ثم تفصل صورة مقتله بسهم ليس فيه نصله : « فأهوى عجلان إليه ، فوضع السهم فى مستدق الصلب بين فقارتين ، ففصلهما ، وخر ساقطاً . وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحر جمله وأ كله » . وإلى هنا يمكن أن يقال : إن الصورة تمت ، واستطاع القارىء أن يتمثلها من جوانبها المختلفة . ولكن أبا عبيدة يلاحظ — ولنزعته الفنية شأن كبير فى هذه الملاحظة كما يبدو — أنه لا يزال فى الصورة موضع خلل ، فما بال هذه الهدايا التى كانت مع شأس ؟ وبذلك نراه يستكمل هذا النقص ويسد ذلك الخلل ، فيعقب على ذلك بقوله : « وقال عبد الحميد : أكل ركوبته وأولج متاعه بيته » .

فهذا مثال يبين لنا كيف كان يصنع أبو عبيدة بالروايات التى يرويها عن الحياة العربية ، وكيف كان فى سبيله التى اتخذها فى ذلك يتردد بين الروح الفنية والروح العلمية التى كانت بيئة البصرة إذ ذاك تفرضها فرضاً ، وكانت دراسته للحديث وفن الرواية ، وتلقيه عن مثل أبى عمرو ، يأخذه بها أخذاً شديداً . ومع ذلك استطاع — كما رأينا — أن يوفق بينها وبين الروح الفنية ذلك التوفيق ، وقد أعانه عليه ما ذكرنا منذ قليل من اشتراكهما فى تطلب الدقة .

ولعلنا نستطيع أن نتبين أسلوب أبى عبيدة فى هذا فوق ما أوردنا إذا نحن

قارناه بغيره، كأسلوب الأصمعى مثلا . وللأصمعى قطعة بين أيدينا تصور ذلك الموضوع نفسه الذى رأينا، فلننظر ماذا صنع، ولنقارن صورة بصورة . يقول الأصمعى : « حدثنى غير واحد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسى أن ابنه شأس بن زهير وفد إلى بعض الملوك، فرجع ومعه حباء قد حبى به، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة، وأبيات من بنى غنى، على ماء لبنى عامر أو غيرهم . قال : فاغتسل فناداه الغنوى : استتر، فلم يحفل بما قال، فقال : استتر ويحك ! البيوت بين يديك، فلم يحفل، فرماه الغنوى رياح بن الأسك بسهم، أو ضربه، فقتله . والحى خلوف » .

فلندع ما نفقده فى هذه القطعة من الروح العلمية التى نراها عند أبى عبيدة ظاهرة، وإن تكن مع ذلك متجملة، ولننظر فيما وراء ذلك نظرة سريعة . فسنرى الفرق واضحاً بين الرجلين : بين ما يعرضه أبو عبيدة فى رواياته المتفرقة وما يعرضه الأصمعى فى رواياته المجتمعة . فبالرغم من تشتت أجزاء الصورة عند أبى عبيدة نراها واضحة الملامح بينة الظلال حية نابضة، وقد استطاع أن يضع هذه الأجزاء، كما تؤديها الروايات المختلفة، فى سياق فنى . أما الأصمعى فلا نكاد نجد عنده شيئاً من ذلك . فهذه القطعة التى رأيناها لا تستطيع أن تحدث لنا تلك المتعة الفنية التى أحسسناها عند أبى عبيدة ؛ إذ كانت لا تنقل إلى خيالنا الا الخطوط الأولية للصورة، أو الهيكل العظمى للقصة، أما ملامح الصورة ونبضاتها وروحها المقومة لها، فلا أثر له فيها .

وكما أن هذه المقارنة بين هاتين القطعتين جديرة بأن تبين لنا عقلية أبى عبيدة والنزعات التى كانت تسيطر عليه، فانها توضح لنا الفرق بين هذين الرجلين اللذين جمعهما عصر واحد، وبيئة واحدة .

وبعد، فقد كان أبو عبيدة — فى جملة القول — رجلا مرهف الحس، دقيق التصور، قوى الخيال، حاد الذكاء . وكان يجمع بين خصائص العلماء وخصائص رجال الفن . وبذلك استطاع أن يؤدى صور الحياة العربية واضحة قوية، وأن يظفر فى ذلك بثقة معاصريه به وإكبارهم له . ولو أن تراثه من هذه الناحية وصل إلينا كاملا لكان لنا أن ندعى العلم بالحياة العربية علماً أدق وأوفى وأشمل .

طه الحاجرى

مصرع طائر

كأنى أحسُّ ارتعاشَ الغدير   يمرُّ بهِ الطائرُ المجفِلُ
رماه ، على غِرةٍ ، قانصٌ   فأدرك منه الذى يقتل
لِمَنْ مدَّ فى الأفقِ دامى الجناح ؟   وهام على الوجه لا يعقل
على جانبيهِ تزيفُ الدماء   وفى جانحيه هُدًى مُشعَل
ويَشمخُ حتى يَعُبَّ الشعاع   ويَنْهَلُ سكرانَ ما ينهل
ويُرسلُ آخرَ ألحانهِ   فلا يَرجِعُ الجوُّ ما يُرسِل
خفيفُ الجناحِ بأحلامه   ولكنَّ أحلامَه أثقل
تُناديه فى الأرضِ ذكرى هواه   فيرتدُّ خزيانَ ، لا يحفِل
فيسقطُ حتى يشمَّ التراب   كأنَّ أعاليَهُ أسفل
يَلوكُ الدِّماء بِمنقاره   ويذهبُ فى الحِلمِ يسترسل
كأنْ على طرْفهِ ومضةً   من النورِ ، يَنقِضى ولا تذبل
وإذ هوَ مِنْ تحتهِ مَجْهَلٌ   وإذ هوَ مِنْ فوْقهِ مجهَلُ
وإذ قلبُه قَبْضةٌ من رمادٍ   سلى الريحَ إنْ مرَّ ، ما يحْمِلُ
تَناسَاهُ فى الرَّوْضِ أترابُه   ولم يَذكرِ الغائبَ المنهلُ
رُوَيدَكِ ! لم يَبْقَ إلاَّ صَداهُ   وهيهاتَ رجعُ الصَّدَى ينقل !

[حلب]   خليل هنداوى

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ [1]

[نلفت القراء إلى هذا الفصل الذى يذكرهم بأصول البلاغة العربية القديمة حين كان بشر بن المعتمر وأبو هلال وعبد القاهر يدعون إلى أن تدل كل كلمة على معناها الدقيق ، وإلى أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام .]

قرأت لشاعر أقصوصة عجيبة ، تخيّل فيها أن بعض الأشخاص القاطنين فى الحواضر من هؤلاء الذين ليسوا أهلاً للوجود ، والذين انعدمت شخصيتهم فهم لا شىء ، ينتهزون فرصة العدد الكبير من السكان الذين تزدحم بهم هذه المدن ، فيندسّون وسط الجمهور ، ويتظاهرون مفلحين بالاستمتاع بحظ من الوجود الواقعى لا يقل عن حظ أولئك الذين يسايرونهم . فهم يتجولون ويشغلون أنفسهم ويسيرون سيرة غيرهم من الأفراد الذين من حولهم حتى إنهم يخدعونهم فى يسر . ولكن القاصّ يذكر أن العين المتدربة تستطيع تبينهم ، وأن فى مطاردتهم عندئذ كثيراً من التفكه . وحين ينكشف أمر هذه الظلال الطامحة ، تسعى إلى الفرار ؛ وهى تجتهد وُسْعَها فى الإفلات من متتبعيها مستعينة على ذلك بكل الوسائل . فتخترق الحوانيت الكبرى ، تدخل من باب وتخرج من آخر بعد أن تكون قد حاولت الاندماج فى غمرة المشترين ، أو

(١) صاحب هذا المقال روجيه كايوا من خريجى مدرسة المعلمين العليا بباريس . انضم فى أول حياته الأدبية إلى أصحاب مذهب السوريالزم ، وما لبث أن هجرهم وقطع الصلة بينه وبينهم فأخذ يدافع عن ضرورة خضوع الأثر الأدبى للفكر والنظام ، وعن ضرورة التشدد والزهد فى الأدب ، وهو فى هذا يخاصم أيضاً المذهب الرومانتيكى . وقد عين أثناء الحرب الماضية مديراً للمعهد الفرنسى للآداب فى الأرجنتين ، وبقى طوال الحرب فى هذا البلد حيث أنشأ مجلة « الآداب الفرنسية » التى ذاع صيتها وكان لها أثر كبير فى أدب أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . لم يكتب قصصاً أو شعراً ، وآثاره الأدبية كلها تعتبر على الحدود بين الأدب والفلسفة والنقد .

تستقل مركبة تنزل منها أثناء سيرها في وقت لا يمكن أن تتوقع فيه النزول . وهى تدخل منازل ذات منفذين تكون قد استدلت عليها من قبل . ومجمل القول أنها تلجأ إلى كل حيلة قد تكفل الهرب . على أن المهم ألا تغيب عن بصر الذين يقتفون آثارها . فاذا أقبل المساء كانت هذه الأشباح منهوكة القوى وأخذت تقلع عن الجهد . حينئذ تترك الأماكن المكتظة التى يكثر فيها تردد الناس ، والتى كانت ترجو إلى ذلك الوقت أن تضيع فيها ، وتسعى متجهة نحو الضواحى . هنــاك تؤثر أن تسلك الأزقة المظلمة الخاوية ، وقد كادت تشف أجسامها — إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « أجسام » بالقياس إليها — وأحاط بها شىء يشبه أن يكون إطاراً « مضيئاً » وكأنها تضمحل . لقد أدركت نهايتها . ويعتمد الشخص منها فجأة على حائط فيختفى على الفور ، ولا يبقى على الجدار إلا بقعة عفنة تتخذ من بعيد جداً شكلا إنسانياً .

١ — الألفاظ والمعانى

ولا إخال الأقصوصة تخلو من المغزى خلواً تاماً . فإن لم تصدق بالقياس إلى الناس فهى صادقة بالقياس إلى الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم . ولطالما استعملوا هذه الألفاظ ، واستعملوا قدراً كبيراً منها ، منذ ذلك اليوم الذى أخذوا فيه يتحدثون ويكتبون ، مدفوعين دائماً إلى استحداث الجديد منها . وهم فى تسرعهم يستخدمون هذا اللفظ أو ذاك دون تمييز بينهما . ولقد نشأ عن ذلك كله ظهور ألفاظ كثيرة لا تغنى شيئاً . وهذه الألفاظ تسير ، شأن غيرها ، وتتألف مثلها من حروف تتجمع فى مقاطع ، وتثبت فى المعاجم ، شأن غيرها أيضاً . على أن وجودها زائف خدّاع ؛ فهى لا تنمو ولا تنجح فى نموها إلا بفضل غفلة عامة ؛ لأنها لا تمثل حقيقة واقعة متميزة عن غيرها ، أو فكرة واضحة محـدودة يمكن تعريفها تعريفاً لا يحتمل اللبس ويظفر بموافقة إجماعية . ولـكنها مع ذلك تبعث الوهم ما دامت لم تعصر ، وقلما تعصر . لذلك يظل كل إنسان مطمئنا إلى أنها ملأى مثل غيرها ، لا فارغة كما هى فى الواقع . ثم إنه يستحيل إلغاؤها إلغاء تاما ؛ لأن الخدعة لا تحب العزلة . فليست هذه الألفاظ معينة متمايزة يكفى أن تعرف لنحكم عليها ، بل هى خاتلة غدارة لا يمكن أن تأخذها اليد ، تستخفى

وراء مقطع من هذه المقاطع الاضافية التى توضع فى أول الكلمة أو فى علامة من تلك العلامات التى تلحق بآخر الكلمة . ومصدر الكلمة لا يثير خشية ولا ريباً ؛ فهو معروف قد فهم معناه منذ نشأ . وهذا هو الذى ينيم الريبة ، إذ كانت قد استيقظت . غير أن كل اشتقاق يخفى شَرَكاً ؛ فهو فى أول الأمر مظهر من مظاهر العمل الفكرى يوسع المعنى ويبسّطه بسطاً قد لا يكون ملائماً حين يقع ، ولكنه يولد فيما بعد نوعاً من الغش يصعب كشفه . وقد يخرج اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز كما يقال ؛ فتكون الخدعة هذه المرة فى الاستعارة أو فى نسيانها بعد حين لكثرة الاستعمال ، وهذا سريع الحدوث . فبهذه الوسائل وبكثير أخرى غيرها ينشأ منذ أول الأمر بين الألفاظ وبين ما تعنى علاقات مريبة غير محدودة . فالألفاظ تتوالد ، كما تتوالد معانيها ، على مدى أوسع حتى يستحيل التمييز بين تلك التى تدل على شىء من الحقيقة الواقعة وتلك التى وجدت كأنما هُرّبت تهريباً . ويزداد الأمر خطراً على مرّ الزمن . وحين تكتسب الألفاظ هذا القدر من الأهمية تتخذ وسيلة للتعرف على الأشياء واختبارها ، تقوم فى ذلك مقام الأشياء نفسها . فهى تفرض نفسها على أذهان ساذجة وتكاد تشغلها إطلاقاً فتخفى عليها الواقع بدلا من أن تيسر لها سبل التعبير عنه . وهى تغمر هذا الواقع وتفسده ، وتخلط كل شىء ، وتجمع تحت عنوان واحد كاذب أشياء منوعة وأفكاراً متباينة لا يربط بينها إلا الإشارة إليها برمز واحد . وهذا الرمز ليس من شأنه إلا التضليل ؛ إذ أنه يخيل وجود روابط وعلاقات بين الأشياء ليست قائمة فى حقيقة الأمر .

والشخص الذى يستعمل لفظاً قلما يفكر فى تحديد معناه . وهو إذ يتحدث أو يكتب يدل به على معنى ثم على آخر ، ولا يقدر أن هذه المعانى لا يمكن الجمع بينها . وكلما زاد اللفظ إبهاماً سهل عليه إدراجه فى حديثه . وحتى إذا جهل مداه جهلا تامًّا فليس ما يمنعه من استعماله حسبما يرغب دون أن يتقيد بأى حال ولا يقف أى اعتراض فى سبيل اندفاعه . لذلك كثيراً ما نرى أشخاصاً يلذ لهم أن يجمعوا فى آلاف من الجمل الرنانة ألفاظاً يظنونها تفيض سحراً ، ولكنهم يعجزون عن تحديد ما تنطوى عليه من معنى لو طلب إليهم ذلك . وكأنهم ينظمون ألوانا من الخرز ، فأى رادع يقف فى سبيلهم ! وهم يرصّون ألفاظاً منقادة طيّعة لا تحقق شيئاً ، ولا يجد فيها العقل معنى يثبت له بحيث يستطيع

أن يتعلق به ، كما أنه لايلقى فيها المقاومة إن أراد أن يشتد عليها فى النقد والتحليل فليست إلا أصواتا أو مجموعة متلاحقة من الحروف تختلف معانيها باختلاف الحاجة التى تدعو إليها . ولا شك فى أن هذه الطواعية تجعل من اليسير جداً على فكر حاذق نشيط أن يجمع بينها فى غير تحرّج ، وهو ينظمها حسبما يحضره من خاطر ، لا يكلف نفسه لحظة عناء السؤال عن المعنى الذى يؤديه وهذا الإهمال نفسه يصبح مصدر حريته التى تتيح له هذه السهولة والتى قد توهم الذكاء ، وما هى إلا تألق زائف وتسلط كاذب يشبه القبض على الريح. وقد يكون هذا الذهن الرخيص باهراً خلابا ، فحسبه ألا يفكر ؛ لأن كل تفكير يقلل من نزواته وقد يحرم عليه إبداء الرأى ويضطره إلى الاحتياط ، وهو يظهره على مصاعب فى الأشياء والأفكار لم تكن لتظهرها له ألفاظه الجوفاء التى لاتدل على شىء . ولو قد ظهرت له وكان أميناً نزيهاً لنزل من غروره عن شىء كثير ولا بد من شىء من الخلق المتين ليمتنع الإنسان عن تكلف الذكاء ، وليحاول أن يكون ذكيًا بالفعل دون أن يتعمد إظهار ذلك إلى حد ما . على هذا النحو وحده أستطيع أن أفسر ذلك الميل الدائع الذى يدفع بعض الناس إلى استعمال ألفاظ لا يدركون معناها تمام الإدراك . فليس لذلك مصدر إلا أنهم فى مثل هذه الحالة أقل تبرماً بالألفاظ مما لو فهموا معانيها . فاذا قيل : مائدة ، أو ألم ، أو خبث ، فهم كل امرئ ما تعنى هذه الألفاظ ؛ لأنه خبر هذه الأشياء خبرة كافية ، فليس خداعه عنها سهلاً . ولكن إذا قيل « استدلال » مثلاً أو « سمو » فمجال الحرية واسع أمامنا ، ويتعرض كل واحد منا لاختلاط الأمر عليه والاندفاع إلى الخطأ والانخداع . فاذا ذكرت « العدل » أو « الحرية » دون أن تبين ماتريد من ذلك ، فكل شىء يباح لك ، حتى أن تطلق هذين اللفظين على الظلم والطغيان ؛ إذ أن قوام كل أمر متروك إلى تعريفه . ومن ذا الذى لا يذكر أن بعض الغزاة استعمل لفظ الحماية يدل به على الإخضاع والإذلال ، وكان التضليل ظاهراً ، فلم يضلل أحداً ! ولكنى لا أخاف هذا التضليل المكشوف ، وإنما أخاف التهور الساذج والمظاهر المختلفة التى تتخذ فى غير شعور . وهذه المظاهر مع الأسف موجودة دائماً فى كل مكان ، فما نكاد ننظر فى أية صحيفة حتى نراها ماثلة فى كل مكان . وواضح أن هنا على الأقل إعراضاً عن طواعية ورضا عن استعمال الألفاظ فى معانيها الحقيقية . أصدر هذا عن سذاجة أم عن دهاء؟

لعله صدر عن الأمرين جميعاً . إذ الدقة موضع سخر لأنها لا تظفر بربح ، على حين تستغل بعض الألفاظ لما توحى به من غواية وإغراء . وقد تحدث فكتور هوجو عن « خطاف أشهب » . . . كذلك نراهم يتحدثون عن « الحب المستقل للوطن » . . . وليس للعبارة معنى ، ولكن ما الحرج فى ذلك ؟ فالذى يستعمل هذا اللفظ هنا يريد أن يكسبه الدلالة التى يشعر أنها لازمة له فى عبارة « قيمة مستقلة للأشياء »

وهذا النحو هو الذى ينحوه التاجر حين يعلن أن بضاعته « ترف اقتصادى حقا » ، وهو الذى ينحوه أيضاً رجل السياسة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتقى العدوى كل الاتقاء ؟ والحق أن الإنسان يجد نفسه أمام مغامرة غريبة خطرة ، وهى استعمال الألفاظ ، لا لما تدل عليه من معنى ، بل لما تحدثه من أثر .

٢ — العبارات

ويزداد الخطر حين يؤلف بين الألفاظ ؛ فإنى إذ أستمع الناس يتحدثون عن « الأمم الشابة » أرانى حائراً مرتبكا . ولست أجهل ما يقصد بالشباب عند فرديولد وينمو ويهرم ثم يموت ؛ فهذا التحوّل مرسوم رسماً واحداً نهائيًّا بالقياس إلى مختلف الأفراد . إذ أن الذى يقصد بالشباب مرحلة محددة تحديداً دقيقاً من مراحل تطور مستمر . ولكن حين نطلق هذا اللفظ على أمة يلتبس الأمر فوراً : أيراد بالأمة الشابة الأمة القريبة العهد بدستورها ؟ أم تلك التى نشأت حديثاً فاحتد بها الشعور الوطنى وكان فيها أشد حساسية منه فى غيرها ؟ أم يقصد بها الأمة التى ارتفعت فيها نسبة الشباب بشكل واضح وانخفضت فيها نسبة الشيوخ بشكل واضح أيضاً ؟ أم يراد بهذا اللفظ أن الذين يتولون شؤونها ويشغلون المراكز الأساسية بها فى سنّ الشباب ، فاذا لم يكونوا شباباً فى السن أظهروا على الأقل حدّة الشباب وحماستهم واقتحامهم للصعاب وميلهم إلى المجازفة وغير ذلك من الصفات التى اتفق على نسبتها إلى الشباب ؟ أم يراد بذلك أيضاً أن السلطان السياسى والاقتصادى للأمة فى مرحلة من النموّ والتوسع بحيث ينافس الدول التى سبقته فى التوطد منافسة جديدة خطيرة ؟ لا يمكن الاختيار بين كل هذه المعانى ، ومع ذلك فلن يقطع أحد بأن كل هذه الخصال يجب أن تلتقى فى

وقت واحد فى هذه العبارة . وليس ما يدل على أنه لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض . كان ينبغى إذن التمييز بينها لو أريد ذكر شىء دقيق يسنده الواقع ويكفله . ولكن هل أريد ذلك ؟ فالسحر يتلاشى حين نعمد إلى حصر المعنى فى تحديد دقيق ؛ لأن الأمر لا يعدو حينئذ بيان بعض مزايا ضئيلة أو غير مؤكدة ، كما لو قصدنا بالعبارة أن تلك الأمة حديثة التكوين ، أو أن أفرادها حديثو السن ، أو أن مقاليد الحكم بها فى أيدى فتيان يافعين أو مجترئين ، أو أن يكون اقتصادها مزدهراً مبسوط النفوذ . فى حين أن الوصف بالشباب يكفل تفوقاً مطلقاً وحماسيًّا لا جدال فيه ؛ إذ الجدال لا يمكن أن ينصبّ إلاّ على موضوعات محدّدة

فلفظ « شاب » هنا لا يعبر عن واقع ، بل يعنى تفوقاً يتلاشى ويتبدد إذا ألحنا فى تحديده ، أى إذا التمسنا له تفسيراً دقيقاً ، لأنه لم يكن يعبّر عن شىء ، بل كان أشبه «بشيك» لا يقابله رصيد . ولا يفكر أحد مع الأسف أن يقدم هذا الشيك إلى البنك ، يمنعه الكسل من ذلك ؛ فهو يحوّله مغمض العينين إلى غيره من الاغرار . وتداول مثل هذه العملة من الورق يزداد باستمرار ؛ لأن هذه القيمة الباطلة تتوالد بسرعة مروعة . وبالتدريج تقل العادة فى المقابلة بين هذه الاشارات الزائفة ، وبين الأمور أو الآراء التى يتصوّر أنها تمثلها . ولا يعبأ بإدراك الأشياء نفسها ومعرفة خواصها ، بل يجمع على سبيل المصادفة إشارات لا حول لها ولا قوة ، وليس لها إلا أن تطيع . . . وأن تضلل .

كنت أقرأ ذات يوم هذا التعريف للرجل السياسى البارع : « الرجل الذى يرى الأشياء كما هى ويرسم خططه وفقاً لها » . هذا التعريف لايضارَع ، بشرط ألا يخطر على البال أن المعلومات التى يجب أن يلم بها الرجل السياسى من التعدد والتعقد بحيث يخرج عن مقدور الفكر الإنسانى إمكان الوصول إلى رؤية الأشياء كما هى .

فهذه العبارة نفسها تحير الفكر وتربكه . فهل تحتفظ بمعناها حتى حين لايراد بها — كما هو الحال هنا — أشياء معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، بل حالات واتجاهات ومصالح ومجموعة من العناصر غير الثابتة وغير المحددة التى تختلف حتى طبيعتها العقلية باختلاف الطريقة التى ترسم بها حدودها ، بل أكثر من ذلك

باختلاف الأهمية التى تضاف إليها ؟ فإن هذه العناصر رهينة أحياناً بمقدار ما نعلق عليها من اعتبار ، فهى تصبح حاسمة إذا خيفت ، أو مهملة القيمة إذا احتقرت . ومثل هذه الأشياء المزعومة ليست موجودة . أريد أنها لا توجد وجوداً صلباً ثابتاً كما يوحى بذلك لفظ « موجود » أو لفظ « شىء » . على أنها حتى لو تمتعت بهاتين الصفتين فلن يستطيع الرجل السياسى أن يراها بالضبط كما هى إلا أن يكون إلهاً . وعلى أى حال فسيراها كما تظهر له ، وستظهر له على الصورة التى يستطيع أن يراها بها وعن طريق مزاجه وعاداته ومعتقداته ومخاوفه وآماله ، أى عن طريق جميع مشيرى السوء الذى يفسدون الحكم ، والذين لا يستطيع أى فرد أن يتخلص منهم تخلصاً كاملا . وعلى ذلك فالسياسى البارع سيرى الأشياء على نفس النحو الذى سيراها السياسى الردىء ، كما لمح بذلك مؤلف الكتاب الذى استقيت منه التعريف . ألا يوجد إذن أى اختلاف بين هذا وذاك ؟ لا شك أن بينهما أوجه خلاف . فهذا أشد حرصاً فى القرارات التى يتخذها ، وذاك أكثر طلاقة . أحدهما يخضع فى يسر لما توصى به مقتضيات الواقع ، والآخر ينقاد لغريزته وشهوته ، ويخيّل إليه فى حسن نية أن جميع الظروف تعضد مشروعه . ولكن كليهما معرّض لنفس الأخطاء تعرضاً متفاوتاً ، ولا يلاحظ بينهما إلا اختلاف فى الدرجة ، على حين أن التعريف الذى أمامى يزعم إيجاد اختلاف فى الطبيعة . وقد يقال لى : « ألا تستطيع أن تطرح جانباً هذه الدقائق ، فتغفر للغة عدم إحكامها البرىء الذى لا يغيّر الأشياء فى مجموعها بحال ؟ ما بالك توجد هنا تمييزاً بين الدرجة والطبيعة ؟ إن هو إلا تمييز فقهى » . وأنا أرجو المعذرة ، فما أزال مصراً على تشددى ؛ لأنى أعلق أهمية خطيرة على أن تكون التفرقة فى الدرجة لا فى الطبيعة . فلو أنها كانت فى الطبيعة لما جاز لى أن أقول شيئاً ، ولأصبح السياسى البارع ذلك الذى وصف ، أى ذلك الرجل الذى منح بصيرة إلهية لا يعوضها شىء ، على حين يبدو الآخر على هيئة رجل بائس يتجه حتما نحو الإخفاق ، ومصيره أن يلبث فى الظلمات الخارجية مدى حياته كلها . أما إذا كان الاختلاف فى الدرجة ولم يقصد إلا زيادة فى الدرجة أو نقصان ، فإن التعريف تسقط قيمته على الفور ؛ لا لأن نظرة الرجل السياسى قد تكون حسب الظروف أقرب إلى الموضوع وأشد مطابقة له أو أبعد عنه وأقل مطابقة له ، وأنه يستطيع على أى حال أن يصلح هذه النظرة إذا أظهر على خطئه ، بل لأن من

المشكوك فيه أن الكمال يعتمد على فطنة ممعنة فى الحذق وعلى مجموعة كاملة وافية من البيانات الصحيحة ، بل قد ينشأ ، على العكس من ذلك ، من مزج بين بعض الامتثال للظروف وبعض الحماسة ! هذه الحماسة التى تدفعه من ناحيته إلى عدم التعلق بأشد البيانات دلالة حين تفرضها هذه الظروف . ولا أقصد أن هذه الحماسة تستند على نوع من الإدراك أو الإيحاء ينبىء العبقرى أن ليس أمامه هنا أكثر من مجرد مظهر بسيط لا يخفى شيئاً ؛ فإن الأمر لا يعدو فى هذه الحالة أن يكون تعمقاً فى الفطنة ، وإن شئت فقل نتيجة لنظرة إلى الأشياء أشد نفاذاً . أعنى بذلك أن حماسة الرجل السياسى وإرادته وذكاءه ومناوراته ومثابرته كثيراً ما تنجح فى تغيير الظروف نفسها ، وهى فى الواقع قابلة للتشكيل والتحويل ، وتتألف من نسب قابلة للتعديل ، ومن قوى تعمل للذين يعرفون كيف يأسرونها واثقين بها . وجغرافيا الرجل السياسى المتسعة لا تقتصر على مجموعة معقدة من الجداول والقمم والممرات الضيقة ، بل تشمل أيضاً جبالا شامخة تبدو مستقرة ثابتة حتى يقوم إيمان عنيف غير قابل للتفسير ، ولا يمكن أن يتنبأ به عقل أو منطق ، فيدفعها إلى الحركة . ويطلعنا التاريخ على كثير من هذه المعجزات الظاهرية ، وكثيراً ما رأينا فى المسائل الانسانية المرنة السهلة الصياغة أن التعصب يصل إلى تحقيق غاياته حيث يعجز عن ذلك العلم وصواب الحكم النافذ . وأحياناً يرجع التغلب على الصعاب إلى إنكارها وعدم الاعتراف بها ، أو إلى الاندفاع العنيف الذى يغمض عينى البطل بقدر يجعله لايكاد يراها ، ويمنحه بذلك حظاً من البأس يعينه على قهرها . وطبيعى أن المقصود ليس الاندفاع مع إغفال كل عامل ، فقد يعثر المتحمس عثرة سخيفة ويتحطم كالزجاج ، لأنه إزاء صعوبة ما لم يقدر ما تنطوى عليه من مقاومة حق قدرها . لذلك كنت أقول إن الخير فى مزاج يلائم بين مقادير من العوامل المختلفة . وتعريف المؤلف الذى ذكرته لم يكن ليشعر بذلك ، بل كان يستبعد حتى مجرد التفكير فيه . إنما المهم فى رأيى هو هذا . كما أن المهم أن يظهر أن هناك فارقاً بين الاختلاف فى الدرجة والاختلاف فى الطبيعة . ولم أكن أناقش فى هذه العبارة إلا معناها لاسداد حكمها ؛ لأنى أريد أن أبين كيف أن الألفاظ تغر . فليس يعنينى أن أتحقق من دقة التعريف أو قصوره ، ولو أنى حاولت ذلك لاضطررت إلى العدول عنه فوراً . لأن مرجع الأمر ما يقصد بالسياسى

البـارع : أيقصد به الماهر ؟ أم الأمين ؟ أم الخير ؟ وهل مقياس ذلك نجاح مشروعاته أو سمو خلقه أو حسن ما يبلغ من النتائج ؟ ووجهات النظر الثلاث لها ما يبررها . ويمكن إذن الاعتماد على كل منها وتعريف السياسى البارع . على أن اختيار أحدها دون سواها يكون موضع نزاع لا ينتهى . ومن ذا الذى يأخذ نفسه بذلك !

٣ — خداع الالفاظ

على أن الجملة المذكورة كانت خلابة المظهر ، كانت منسجمة تلذ السمع ، ولكنها لم تشتمل إلا على ألفاظ لا تصلح لأداء المعنى ، وعبارات لاحظ لها من الإفصاح . وقليلة تلك الجمل التى لا يخلب مظهرها ، غير أنه ليس من المستطاع تحليلها جميعاً . لكن ذلك واجب ، فليست هناك علامة خارجية تميز الجمل التى لا تنطوى إلا على ألوان من الاضطراب والسراب عن غيرها . فهى حسنة التركيب ، تتألف من ألفاظ عادية ، وتخضع فى نظامها لقواعد النحو المألوفة . وهى تملأ الحديث والكتابة ، وكل منا يسمعها ويرددها ، ولا يلبث أن يؤلف غيرها دون أن يعنى بتحليلها كما ينبغى ، شأن موظفى الجمارك الذين يتعذر عليهم فتح جميع الحقائب ؛ وهكذا تمر باستمرار بعض المهربات الضئيلة . ولكن إذا ما توقف ذهن يقظ لحظة عن القراءة أو الكلام أو الاستماع ، وحاول أن يختبر الألفاظ التى يستعملها أو مشتقاتها المختلفة ليعرف ماذا تعنى وأية حقيقة واقعة تزعم التعبير عنها ، هنالك ينهار كل شئ ، وينكشف البهرج الذى لم يكن يخفى إلا غروراً أجوف . ولم يكن الكلام إلا بناء غير متين أسبغ عليه غشاء يخدع الأبصار عنه طلاء غليظ . وكان الفكر المتسرع أو الغافل قد قدر أن له معنى ، لأنه اعتاد — وهذا هو الخطر — أن يقنع بالألفاظ المألوفة التى لا يصدمه فيها سخف ظاهر . فقد يكون عسيراً أن تبدو على الألفاظ سخافة . وأيسر من ذلك أن تأتلف ألفاظ لا يؤذى الجمع بينها ، بل يدعو بعضها بعضاً ، وتسرع بنفسها إلى اللسان أو القلم . ويجد الانسان فى هذا اليسر الخطر غبطة ورضا ، على حين يشق العقل على نفسه ، وينحرف عن طريقه ، ويمتنع على الكسل حين يؤلف بين ألفاظ يؤذيه الجمع بينها . لذلك يلاحظ أن معظم الجمل التى نلقاها يبدو عليها مسحة

ظاهرة من المعنى ، لكنها لاتعدو المسحة الظاهرة ، ولا تقوى على المقاومة عند أول اختبار لها . وأغلب الظن أن يكفى فى معظم الأحوال محاولة الإحداق بمعناها ومحاصرته ليتبيّن أنها خالية من المعنى .

ولا بد لهذا الاختبار من أن يقع . هناك يثوب العقل إلى نفسه فجأة بعد أن هام بين الألفاظ كأنه أنتشى بها ، فتعاوده الرغبة فى أن يعتمد على شىء أشد ثباتا . وهو يريد أن ينفذ خلال الألفاظ ليصل إلى الحقائق الواقعة ، أى يريد أن يلمس المعدن الذى لا مراء فيه والذى يكفل هذه الكمية الوافرة من أوراق النقد المصرفى . والواقع أن التجربة وحدها هى التى تبيّن لنا أن لفظاً من الألفاظ يساوى اكثر من الصوت الذى يحدثه حين تكشف عن أن اللفظ يستند إلى حقيقة قاطعة من تلك الحقائق التى دعمت دعماً نهائيًّا بالحواس أو بأى طريق آخر من طرق المعرفة والتحقيق . هنالك يخضع كل أمر لامتحان شديد ، فيمتنع الخلط بين الأشياء أو إمكان انكارها أو رفضها . فكل مايحاط به علماً قد عرف عن طريق اليقين . ويبقى فى النفس أثر كأنه التئام للجرح الناشىء عن هذا الاستكشاف الذى قد يكون مألوفاً بالقياس إلى بعض الناس أو نادراً بالقياس إلى البعض الآخر . هكذا يحتفظ كل واحد بذكريات تتكون منها ثروته الشخصية ويقابل بين هذه الذكريات وبين الألفاظ حين يريد أن يتحقق من صفتها ومن قيمتها . فمن وراء المجموعات الرنانة من الألفاظ التى يصادفها فى القراءة أو الحديث يريد أن يصل إلى بعض المعلومات التى لا يمكن نقضها ، ولا يستسلم قبل أن يصل إلى غرضه . ولا ريب أن الأحاديث أو الصفحات التى تثبت للتجربة قليلة ؛ ففى مرحلة من مراحل التحقيق إذ يوالى الفكر التعمق فى البحث تبدو هذه الألفاظ مجرد تكديس وتنتثر الأعضاء التى تتألف منها الجمل قبل أن يتمكن من وضع يده على حقيقة يتثبت منها . تخيب حينئذ آماله ولا يبقى أمامه إلا تركيب نحوى وعناصر مضطربة يعجز عن ربطها بعضها ببعض ويضطر أن يعيدها إلى المعجم لعجزه عن فهم ما بينها من علاقات . وفى الحق أنه لم يكن وراء ذلك شىء آخر : فمن ناحية قالب من هذه القوالب العادية الدارجة التى تضعها اللغة تحت تصرف الفكر فيستعملها الفكر ليصبّ فيه ما يريد الإفصاح عنه . ومن ناحية أخرى ألفاظ تلقتها الآذان فى غير وعى واستعملت على الفور دون أن يُدَلّ بها على معانٍ محققة قد استقصاها العقل

استقصاء دقيقاً ورتّب بعضها على بعض كما ترتب النتائج على المقدمات ترتيباً لا سبيل إلى نقضه .

ولكن من ذا الذى لا يقنع بأن يتخذ من الألفاظ نفسها ضماناً يحميه من خداعها ؟ ومن ذا الذى يفرض على نفسه أن ينزل فى كل مرة إلى الحقائق الأولية المؤكدة أو على الأقل أن يتحقق من أن الطرق التى تؤدى إليها مأمونة ؟ الخير فى هذه الحالة التزام الصمت ، وأظن أن أرق الأذهان يضطر إلى ذلك فى نهاية الأمر . ولكنى أقتصر على الأذهان المتوسطة وما يحيط بها من ظروف عادية . فمن المحقق أن الذين يتخذون الاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الحالات قليلون نادرون . ثم إنه لن يستطيع أحد أن يتخذ دائماً هذه الاحتياطات فى هذه الحالات نفسها . ينشأ عن ذلك أن تغمر الألفاظ كل شىء ، ولا ينتظر لاستعمالها أن تكون التجربة قد أسبغت عليها أقل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، فبمقدار ما يقل معناها بالقياس إلى الذى يستعملها يزداد ادعاؤه أن من حقه أن يفرغها فى أية عبارة ، ظنّـاً منه أنه بهذه الحيلة يزيد فى معناها . فترى أحدهم يقول : « ما العدالة إلا قرار من . . . » كفى . فقد عرفت أن العدالة قابلة لتعاريف أخرى . عرفت ذلك مما يبذل من جهد ليحوّلنى إلى عكس ما أعتقد . على حين يؤكد آخر : « إن الديمقراطية الحقيقية لخواها . . . » هأنذا قد أخذت حذرى؛ فقد اتخذ عدته إذا لم أوافقه ليزعم أن تصوّرى للديمقراطية ليس التصور الصحيح . فما الداعى إلى المناقشة ! وثالث يكتب : « إن الذين يحسنون قراءة أفلاطون يتبينون فى آثاره . . . » ما باله لا يعمد الى الصراحة فيقول إنى إذا لم أتبيّن فى آثار أفلاطون ما تراءى له فذلك أنى لم أحسن قراءته . وهكذا . فبالألفاظ والعبارات يمكن كلَّ إنسان أن يسترسل فى الحديث والكتابة كما يشاء ، دون حاجة إلى تجربة أو تفكير . وفيمَ يحرم الناس أنفسهم ذلك ؟ وإن منهم لمن أنفق حياته كلها لم يتحدث فيها إلاّ على هذا النحو . فما أيسر من أن يتحدث الانسان عما لا يعرف . بل إن ذلك لا سبيل إلى تجنبه ، كما أنه أقل لفتاً للنظر من أى شىء آخر . فلن ينزعج أحد إذا تحدث كاتب إلى قرائه عن شجر الساج الذى رآه وقد كانت الديدان تنخره ، أو إذا تألم فى شكل رسمى من أن الفضيلة لا تلقى ثواباً فى كل حالة . ومع ذلك فإن الديدان لا ترقى أبداً إلى شجر الساج ، والفضيلة لو أنها أثيبت دائماً لما كانت فضيلة ، بل

لأصبحت شيئاً يصعب التمييز بينه وبين المصلحة والتدبير الحاذق . ليراجع كل واحد نفسه . فأى الناس يستطيع أن يؤكد أنه لم ينكر بوجه من الوجوه ألا يكون للدائرة زوايا !

وما عسى أن يكون الأمر لو أنه لم يقتصر على عبارات وجيزة منعزلة ؟ فالذهن يميل إلى جمع الألفاظ بحيث تتبادل المعونة ، وتؤلف فى النهاية شيئاً كأنه شبكة ضخمة يكاد يكون فى وسعها أن تحل محل العالم أو على الأقل أن تقف بين الانسان وبين المعرفة التى يحاول أن يبغيها عن هذا العالم . فهو معرض منذ نشأته لهذا الشَّرَك الذى تنصبه له المذاهب . فالألفاظ هى التى يراها أول الأمر ، وسرعان ما تكوّن حاجزاً يحجب عنه الواقع . وهذه الألفاظ تهاجم الفكر وتخدّره بعددها وخلطها واضطرابها . وهى تسبق تجاربه بدلاً من أن تجىء فى الوقت المناسب أى حين ينتهى من هذه التجارب ويشعر بالرغبة فى تحقيقها والتثبت منها . وهكذا يعتاد فى حديثه أن يعطى الألفاظ أهمية تفوق أهمية الأشياء . فلا يراها على أنها إشارات لا تعدو مهمتها التعبير عن هذه الأشياء . هنالك يستلزم الأمر للتخلص من سلطان الألفاظ صرامة فكرية نادرة . وكيف لا يكون الحال كذلك وهذه الألفاظ تغزو كل رأس مسكين أول ما يتنبه إلى نفسه ! فالمدرسة ، والصحف ، والكتب ، والإذاعة ، كل شىء يتآمر على ملئه بضجيج الألفاظ بدلا من ملئه بضجيج العالم . وهذا الرأس لا يتلقى شيئاً إلا عن طريقها . وها هو ذا قد أُعدّ إعداداً طيباً ليصير ضحية لكل خدعة من خدع الألفاظ . بل أكثر من ذلك فقد يحدث أن يطمئن لهذه الحالة . فالفكر الذى به بعض النشاط سرعان مايعرف كيف يستفيد من ذلك . وهذا الجمهور قد احتشد فى الميدان العام فاغراً فاه ، ينتظر حضور المشعوذ وما سيعرض عليه من ألاعيب . ولن يعدم المشعوذ أغراراً يخدعهم بحيلة .

(للبحث بقية)

رجيه كايوا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

العراق

صلتى بالعراق قديمة تعود إلى زمن كنت ما أزال فيه بظهر الغيب . فأبى قد انحدر من جباله الشمالية إلى مصر طالباً للعلم ثم مستوطناً . وكان لا يفتأ يذكر العراق ويتمدح به ويتمنى لو يعود مرة أخرى إلى أحضان الجبال . فلما نفست عليه الأيام ما أراد تمنى على الله أن تذهب ابنته إلى العراق لتخدم شعباً أحبه وأخلص له الوداد حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الفكرة خلابة ، وخاصة لفتاة لم تكن قد خبرت من الحياة شيئاً ، ولا ميزت بعد بين حلوها ومرها . . وقد كان أن اتصلت بالعراق مرة أخرى . وكم جدول فى الأرض راجع منبعه !

***

هبطت بغداد منذ ثمانية أعوام طوال . ذهبت لأدرس فى مدارسها . وكانت فكرة مشاركتى فى رفع مستوى الفتاة العراقية ، ولا زالت تلهبنى حماساً ، وتزيدنى إيماناً بالشرق والفتاة الشرقية وتملأ قلبى بالآمال الكبار والأمانى الجسام . على أن كل ذلك لم يكن يخفى عنى قسوة ما أخذت على عاتقى من رسالة فى الحياة اخترتها وفضلتها ثم آثرتها على كل الرسالات لأنها رسالة مقدسة قل من يفيها حقها من الرجال !

لم تكن فكرتى عن بغداد صحيحة ؛ ولعل السبب فى ذلك راجع إلى مدرس التاريخ ومدرس الجغرافيا حفظهما الله ! أذكر أن مدرس التاريخ قال لنا إن بغداد « دار السلام » مدينة مدورة لم يبن مثلها من البلاد فى العصور الوسطى . وأذكر أن مدرس الجغرافيا قال إن بغداد مدينة بناها من بناها على الضفة الشرقية من دجلة لحسن موقعها . وأذكر أن خيالى صور لى صوراً متألقة بهجة تروح فيها الجوارى وتغدو الغلمان ، ويطوف بها الهمس والألحان والأنغام . ولشدما دهشت حينما لم أجد شيئاً من هذا . فبغداد ليست مستديرة اليوم

ولا مربعة . وبغداد تحتل ضفتى دجلة احتلالا رائعاً . وبغداد آخر الأمر بلد منكمش على العمل ، كادح ، يساير العصر ويحاول ألا يتخلف عن موكب الحياة !

طردت عن خاطرى الأشباح ، شبح مدرس التاريخ ، وشبح مدرس الجغرافيا ، وشبح ألف ليلة وليلة ، وبدأت من فورى أتصل بالواقع الملموس والتاريخ الحى المسطور ، والجغرافيا النابضة الحية . على أن جولتك الأولى فى بغداد لا تعطيك — ولن تعطيك — فكرة قيمة عن البلدة . وهذه حال يفهمها كل مسافر وكل رحالة . ولكنه يلمسها فى بغداد والعراق أكثر من أى بلد وقطر آخر . فأمر العراق مستتر يدق عن الفهم للوهلة الأولى . وقد لا أعدو الحقيقة إن قلت إنى أسفت ، وإن قصارى عزائى كان أنى سأبقى بها سنة دراسية واحدة لا أكثر . ولكننى لن أعدو الواقع إن قلت إننى بقيت بها ثمانية أعوام طوال عراض ولا يعلم الا الله متى أعود . وأكبر ظنى أن ذلك لن يكون إلا اذا فرغ ما فى قلبى من حب للعراق وناشئته ، وانقض عن ذهنى ما فيه من استمتاع فى التقدم بالفتاة العراقية ورفع مستواها ! وهذا — فى أكبر اليقين — لن يكون !

قلت بقيت ببغداد ثمانية أعوام عرضت لى فيها من الأحداث ما قد يتنكب بالصبور عن سبيله التى رسمها لنفسه ، وعرضت لى فيها من الفرص ما كان أيسره جديراً أن يجعلنى بأمريكا أدرس وأتم تعليمى وثقافتى منذ زمن بعيد . ولكنى صبرت وصابرت الأيام حتى اكتحلت عينى بثمار غرسى ؛ وصبرت وكافحت حتى نجحت فى عدم السفر إلى أمريكا ! والحمد لله على الفوز !

***

خير لى أن أرسم لك صورة صغيرة ترى منها العراق كما أراه : كان أول ما تعلمت من لهجة العراق كلمة « جُبَل » حينما سألت عن وزارة المعارف . و « جُبَل » هذه معناها الى الأمام . وعدت أسأل عن وزارة فقيل لى ثانية وثالثة ، ورابعة : « جُبَل » — إلى الأمام . . . ومن سار على الدرب وصل !

« جُبَل » هو شعار العراق ؛ كذلك علمتنى المشاهدة والتجربة . فالعراق يتقدم فى كل مرافق حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعمرانية « جُبَل » دون أن ينظر إلى الخلف . فان فعل فانما ليرى كم قطع من الطريق وهى طريقة يستطيع بها أن يقدر بالضبط ما يجب عليه أن يقطعه ليبلغ نهاية

الشوط دون أن يخامره اليأس أو يدب فيه الكلال ، وهو فى هذا أشبه شىء برجل يشرب كأسه الأولى ، فهو ينظر إلى مقدار ما أفرغ فى جوفه حتى يدرك مقدار ما عليه أن يكرع !

لم تكن ترى فى بغداد منذ أمد قريب سافرة واحدة اللهم إلا اليهوديات وقليلا من المسيحيات . تعال اليوم واشهد الصراع والتنازع بين السفور والحجاب ، بين الجديد والقديم . لن تجده « دراميا » عنيفا كما كان فى مصر أيام قاسم أمين ولكنك تجد أن الجديد ـ السفور ـ يتقدم « جبَل » دون مبشر يتمدح بمزاياه ويعدد مناقبه . السفور يتقدم تقدم الواثق الظافر . فما حاجته إلى العداء وإثارة البغضاء . قالت لى إحدى الصديقات عن السفور إنه أمر لو جرؤت عليه عراقية منذ عشرين سنة لكان مصيرها رهناً بمشيئة الجن الأحمر ، ولكنها أقدمت على السفور فكان مصير المسكينة أن نظر لها أبوها الغاضب المحنق نظرة شزراء قاسية . . . طويلة جدا .

والتعليم هو الآخر يتقدم « جبَل » ، دون توقف . واختلاط طلاب العلم وطالباته فى المعاهد تحت أجنحة الملائكة الموكلة بطلاب العلم يحدث دون أن تحول التقاليد أو تثور أو تنادى بفصل الجنسين ، كما حدث فى مصر منذ سنوات قلائل ! إن العراق يعلم أن التقاليد إنما هى عادات جمدت . وكيف يرضى بالعادات الجامدة شعب قوى يتقدم فى موقف الحياة « جبَل » ؟ ! حقا أن لها سلطاناً قويًّا لا يستهان به ، ولكن هذا الفهم لها يحدّ من سطوتها ويكسر من شوكتها بحيث إننا لا نكاد نحس ببطشها أو وخزاتها حتى باحتجاجها إلا قليلا ! تيار التقدم الجارف أقوى من كل شىء .

المدارس تزداد للجنسين بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛ وما أظن أن مدينة تخلو من مدرسة للبنين وأخرى للبنات . وأعرف مدينة أريد أن تنشأ فيها مدرسة للبنات فقامت قيامتها ، وأجمعت الآراء على مقاومة هذا العمل « الشنيع » فما كان من الحاكم إلا أن استأجر بيتاً علق على بابه قطعة كتب عليها « مدرسة . . . لبنات الموظفين فقط » ! ولم يعترض أهل المدينة . فالموظفون غرباء عن المدينة فهم أحرار فى بناتهم ! ونمت المدرسة وكبرت ، وأنشئت مدرسة أخرى ثانوية ولكن ليس لبنات الموظفين فقط !

ولمساء بغداد جمال عجيب : ترى الموظفين ، صغارهم وكبارهم ، يتأبطون كتبهم

ويهرعون إلى مدارسهم حتى يستدركوا ما فاتهم تحصيله فى وقت لم تكن المدارس فيه إلا شيئاً تنظر إليه التقاليد النظرات الشزراء . يقبلون على العلم ، وينهلون من موارده ، ولو على الشموع ، ولو فى البرد القارس أو الحر الخانق ..

على أن أعظم ما يعجبنى هو نهضة الفتاة العراقية وصحوتها وتقدمها . وتلك سمات كان من الممكن للملاحظ العادى أن يفطن إليها لو أنه نظر إلى الفتاة العراقية وهى تمشى . فهى تمشى ممشوقة كالسهم فلا تلكؤ ولا تلكع ، ولا تخلع ، ولا التفات إلى يمين ويسار بل هدف انطلق إليه سهم مريش ! وإننى لن أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لو أتيح للفتاة العراقية تلك الفرص التى أتيحت وتتاح للفتاة المصرية — إذاً فويل للمصرية من أختها ! وكثيراً ما فكرت فى هذا ، وأنا أعلّم الطالبات ، وأدربهن على التدريس ، وأترك لهن حرية التحدث والنقاش وإبداء الرأى ، ومعالجة شتى الأمور . وكثيراً ما أدهشنى أمرهن وهن يتولين مرافقهن فى كفاية محيرة !

وإن أنس لن أنسى الاعتماد على النفس . فهى مزية شعبية إجماعية ، لا يكاد يتفاضل فيها أهل العراق قاطبة . ولعل أبرز ما يصورها قصة رواها من أثق بروايته : كان له صديق عراقى يدرس معه فى الجامعة المصرية . واتفق أن سارا فى شارع سليمان باشا . فسأل المصرى زميله العراقى : أعندكم ببغداد مثل هذا ؟ فيجيب العراقى فى صبر الحليم : لا . وطفق المصرى يسأل ، فطفق العراقى يجيب بلا ، حتى ضاق العراقى فسأل زميله المصرى : ولكن قل لى : أعلى أكتافكم أنتم قامت هذه الأشياء الجميلة التى لا نجد مثلها فى بغداد ؟ وكم يملك المصريون منها ؟ وما نصيبهم من الاشتراك فى هذا التقدم ؟ وكان ما قاله العراقى صحيحاً . فإن بغداد تتقدم فى كل مرافقها على أكتاف العراقيين وحدهم ، وحدهم أفهمت ؟ « وليُقَسْ » مالم يقل » كما يقول أهل النحو !

أحسبنى أطلت عليك . ولكن لا أريد أن أنتهى من مقالى هذا دون أن أعتذر إليك عن عجزى عن الإحاطة بالموضوع كله ؛ ولكنى أعتقد أن كلمة « جبَلْ » ستتم لك ما تركته ناقصاً ، وسترسم لك ما لم أصوره « جبَلْ » !

جاءنى مصرى حديث العهد بالعراق وأخبرنى أن أول ماسمعه من لهجة العراق هو كلمة « جبَل » فلم أدهش . كنت أعرف ذلك ! وسألنى عن معناها فتبسمت وقلت « إلى الامام » . فصاح وهو ضيق الصدر : « كل شىء جبل ، جبل ! شىء

بجنى . أما عندهم شيء آخر ؟ » . قلت : « لا ! ! إن هذه أول كلمة تعلمتها . وأحسبها آخر كلمة ستنساها إذا أحسنت معرفتك بالعراق » . واشتكى المصرى الحديث العهد فيما اشتكى منه ، بطء الناس فى السير . قال : « امشى فى شارع الرشيد . فأرى الناس يتقدمون فى بطء . أدفعهم فلا هم يندفعون ولا هم يفسحون لى الطريق » . فقلت له : «أسمعت المثل الإنجليزى القائل : ببطء ولكن فى ثقة » .

بديع فرج الله

جنـــــاية

توهمت أنى الشرق « المتأمرك » الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأميركيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أر ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت النظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى وصرت لا أميّز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأميركيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خُلق الأميركان تستميلهم المغريات كالفرنسويين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور وما استتر من الأشباه وخفايا الناس أيضاً . وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ؛ فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل «متأمرك» آخر سواى ، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة ، لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، وقد استعان هؤلاء الـطُلَـعة بى وكانت رغبتهم فى معرفة ازورار مواطنى الشرقى تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حب الرهان .

قالت لى فتاة رقافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً لأن الحزن يغشّى نفسه بغشاء من اليأس » . وقالت سيدة فقدت حيلتها فى مغالطة نفسها فتركتها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام ، وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » . وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه تعشش فيه الخفاش والبوم وعاد إلى أميركا يجمع الدولارات لبتم

بناءه » ولكنني في بطني ، وهو يضحك ، لكنه لولا تعوّد بطون الأميركان تحمّلها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمل الرصانة : « الجنسية الأميركية للبنانيين حصانة تقي أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » . فقالت الفتاة الصبيّة مخاطبة هذا المترصّن : « كنت دائماً ياعمي العزيز تكبر في اللبنانيين مقدرتهم في شق طريقهم للحياة رغم تحاملك عليهم » . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث في خصال قومي سأحاسبكم عليه في ظرف مناسب . أما الآن وغايتكم معرفة أسباب صدوف مواطني عنكم فإني أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم » .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : إذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعياً انتقلت إليه . لقد استطعت بوسائلي الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة في لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم . فقال لي :

— أتعرف حيّ البرازيلي في زحلة ؟ قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف « البردوني » . قال : يوجد في عاصمة البرازيل حيّ يشبهه في هندسة البناء يدعى الحي الزحلي . قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية في تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول في خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بإخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة في الحي الزحلي في البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً في الحي البرازيلي الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة في الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والديّ أن يأذنا لي في السفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التي أقلتني آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالي ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمى وأبى بعين الولد البار ، وأنظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبى . لم تكن الفتاة غريبة عنى بل كانت من أقاربى الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصاً لوداعى . كانت معرفتى بها بسيطة محدودة ، أما فى ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحى فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كيانى الذاتى تدعونى إليها ، وأنها هى المتممة لتكامل وجودى فى الحياة . فوثبت على غير وعى وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت يد الفتاة بيدى اليمنى ، ويد أمى بيدى اليسرى وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدىّ بها . لن يطول غيابى ، سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربوناً للزواج من حبيبتى أنيسة هذه . وقبّلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

قال محدثى : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبّة مكوّرة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه أنيسة الصبوح وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعنى دفعاً إلى الأرض الجديدة التى سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل فى نفسى تمتد سوقها ، وتبرز براعمها وتورق وتزهر ، وأخذ خيال السعادة يحيطنى بشملة من فرح ترينى وجه المستقبل نضراً بساماً ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه ، فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل .

لقّننى مواطنىّ فى البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات وسقت أكياسى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سورى . أخذت أطوف شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتى . كنت أحسّ الشفقة بى والضحك من رطانتى .

كان تقبّل البرازيليين إياى على هذا النحو يحز فى كبريائى فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت فى القرى النائية أسعى على أقدامى . وكلما نقصت بضاعتى كنت أرسل فى طلب سواها من عميلى الذى استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى مواطنه !

لله در الأميركانى ياصديقى من عطوف شفيق ، ولكنه طـلعة مغامر مراهن . تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لاعن كرم ولابدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة .

وكنت إلى الريف أبيع فيه سلعى لا أفرط بمصروف إلا نادراً فى شراء سيجارة أو كوب شراب أو إرضاء رغبة متواضعة . وإن هبطت المدينة فإنما أهبطها لأدفع ما علىّ من دين لعميلى أو أودع المصرف مايتبقى معى من مال .

أخذت أرقام ريالاتى تزداد أسبوعاً بعـد أسبوع وشهراً بعد شهر ، فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدىّ ولأنيسة .

لم يكن شىء فى الوجود يعادل فرحي حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً لى من والدىّ يقول ابى فى ختامه : «أما خادمتك أنيسة فتهدى إليك السلام وتقبل يدك.»

كنت أغتفر لوالدى تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية فى كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالى تجول فى عوالم الرؤى أتصور نفسى ملقى عند أقدام خادمتى أنيسة أقبل يديها .

أجل ياصاحبى ! كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالى وألحف بطلب إيصال بالتسلم لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يحيد والدى عن تسطيرها بالنص الواحد فى كل كتاب « خادمتك أنيسة تهدى إليك السلام وتقبل يدك . »

اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع أرجاء العالم القديم . أما العالم الجديد برغم اشتراكه فيها فى الساعة الأخيرة فقد راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شىء فعجبى من أخبار كانت تنشرها صحفنا العربية فى أميركا عن بؤس الناس فى لبنان وموت بعضهم جوعا. ولم يكن يخامرنى شك فى أن أنيسة المحبوبة ووالدىَّ العزيزين أبعد من أن ينالهم ما ينال الناس الذين تكلمت عنهم الصحف وأطالت فى وصف حالهم !

انقطعت أسباب الاتصال بينى وبين أهلى ، ولـكنى كنت أغالط نفسى ، أتعمد المغالطة فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع وأتهم إدارات البريد بالتقصير فى القيام بالواجب . وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحيد بى عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة رجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التى لابسته طوال أربعة أعوام حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفرى إلى أميركا كان الأمل يحدونى وقد افتر لى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح . فهل ينضحانني يا ترى بأنداء السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ومقر الوالدين ، فهل يلازمنى الحظ فى هذه المرة أيضاً ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطاً من غشاوات غالطت نفسى فى تبيّن ما وراءها ويلقينى فى غبش صبح يتنفس الرِّيَب والشكوك . وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكنى كنت أتجلد وأبتسم .

كل شيء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجلوبة ورطانة مقتبسة . عمت المدينة ، لم ألتفت إلى همّة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة . أما قريتنا (كفر شيما) مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالاً بارزاً للأطلال الدارسة .

أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟ أسأل الجار ولا جار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية ، لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استعنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة .

ذهبت إلى مدينة زحلة أسأل عن أمى وأبى فقيل لى إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريّانة الشباب ، الغريضة الصبا هل يقوى الموت اللعين أن يمدّ إليها يدا ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

لا يستنيم الأمل فى نفسى ولا يهجع ، سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشع فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى . إذن سأجدها .

استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أميركا . . . استغرقتنى الأعمال أو كادت تنحرف بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه .

كان خيال أنيسة يلازمنى دائماً فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدىّ المسكينين إلا قليلا أستنزل عليهما الرحمة . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود !

هل تزوجت ؟ أشقية هى ؟

فى ذات يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لعج بى لاعج خفى ، فنازعتنى نفسى ودفعت بى إلى العودة إلى الوطن أعيد الكرة فى الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلى مهلة ليهدينى إلى الممكنات ويرينى المستحيلات بل لبَّيت الهاتف الخفى وعدت إلى لبنان ، إلى زحلة .

وفى صبيحة يوم إذ كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، وإذا بى ألقى فتاة تحمل سلّة على كتفها مغطاة بورق الدوالى . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيّا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفلت . لمحت فى عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم منى : أنيسة ، أنت أنيسة ؟

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عينين غضيضتين مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت :

لست أنيسة يا سيدى ، بل أنا يمنى ، اسمى يمنى .

يمنى ! يمنى مَن ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتى بنبرات سريعة جافية كادت تربك الفتاة ، ولكنى استدركت الأمر بتهدئة اضطرابى فتعملت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها فقلت : هل لك أن تحدثينى عن والدتك وأين هى الآن ؟

قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدى ! لقد ماتت أمى ومات أبى من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدى قبل اكتمال وعيى ، وكل ماأعرفه عن أمى أنها ماتت نفساء وأنها تدعى أنيسة الخشتاوى . أما أبى فأرمنى لا يحسن أحد نطق اسمه . واستطردت كأنها أحست تشوقى إلى الاستطلاع فقالت : إن أسرة بطرس بك قد ضمتنى إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسى بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها فى وصف يقظة نفسها تشغلنى عن غرضى وقد أحسست بعاملين قويين وثبا علىَّ وأغارا على مشاعرى : عامل الأمل وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التى لاشك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفسانى يماثل يقظة الحب الذى استيقظ حين رأيت أمها إلى جانب والدتى ساعة الوداع فى الهجرة الأولى .

رافقتها إلى بيت مخدومها . وإذ كنا فى الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل

إلى جوار أمه، وكانت الأفكار، والصوَر والتخيلات ومرائى الماضى والحاضر والمستقبل تتهاوى على ذهنى فتزدحم فيه وتكتظ .

طلبت من بطرس بك يد خادمتــه يمنى فلم يمانع فى الطلب بل علــقه على رضا زوجته التى كان يعز عليها فَقْد خادمتها اليتيمة .

لم أدع يمنى تشعر طوال أيام الخطوبة أنى كنت أعرف أمها ، وقد غامت أو كادت تمحى من ذهنى صور الماضى التى تقمصت وانبثقت متجسدة فى شخص يمنى .

أخذت أوقظ نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجدانها الذاتى كإنسان له كامل الحق فى وجوده وحريته فى الحياة . كانت تصغى إلى أقوالى بوعى وتتلقفها بعينيها . صرنا نقرأ الكتب فاندمجت روحها بروحى ، وما عتّمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق وتتمرد .

كم تمنيت مطاولة الزمن لأُيسر لها مجالات الروح فى حلبة الحياة بدراية وفرح ، وكدت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الخمسين وهى تشرف على العشرين ، لذلك أسرعت فى عقد إكليلى .

صمت محدثى قليلا وقد علت وجهه سحابة غبراء ، ولكن ما برح حتى أشرق جبينه وقال :

جعلتُ دانى أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتى الصبية وقلت : أترى تكون بنيتى هذه خاتمة غرامى كما كانت مقدمة كتاب حياتى ؟

كان مجرد هذا الخاطر ، وقد داهم ذهنى ليلة الزفاف ، كافياً لأن يبتعث فىَّ حيوية بكراً ويدفعنى إلى أن أولى على نفسى وقف وجودى وما أملك على زوجتى ابنة حبيبتى .

كم تمنيت فى ساعات الغبطة والهناءة التى كانت تُفيضها زوجتى علىَّ أن تطبق بأصابعها أجفانى فأنام أسعد نومة أبدية ، ولكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيتى فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتى البض اللدن أتشبث به كالطفل ، وأتمتم بكلمات متقطعات أغمغمها بلا وعى استحياء منها ومن نفسى الملتعجة .

لا تعجب يا صاحبى إذا قلت لك إنى كنت أحيا بشخصيتين وأعيش بماضيين . وقد كنت أقوى على صهر روحى فى بوتقة لا دَخَل فيها ولا زيف ، وعرفت

السعادة معرفة حسية واستبدلت بأنواع منها عامة شائعة نوعاً لدنيًّا روحياً بحتـاً .

أذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ولا تنس فواصل العقل ونزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابي وخلجات نفسي ووساوسي ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل يغالط الخمسين من عمره ليعيش في جنون العشرين .

ضحكت طويلا من الزمن وانتقمت كثيراً منه ، وسخرت من تقديرات أناس يعيشون في الضباب ويقدرون علة في زهرة لم تتفتح أوراقها في الربيع حاسبين وجوب انطباق علم النبـات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وعجائب الغريزة وأسرار الروح وقد تفتحت أكمام روحي في غير فصل الربيع .

انقضى الصيف والخريف ثم الشـتاء والربيع وأنا قابع في داري أرتع بنعم تفيضها على زوجتي المحبوبة ، مشمول بعناية خاصة منها . وكانت كلما اطمأنت نفسي بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة . وهكذا كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأني أنا وليست هي الطفل الخليق بالتدليل .

لم أكن لها زوجاً بل أباً ، ولم تكن لي سوى ابنة معبودة . وكان هذا الإحساس المختلط يحفزني إلى إشـعارها بأني زوج قبل كل شيء ! أقول لك ياصاحبي : إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تحايل على البقاء والخلود . ولـكل هؤلاء غاية واحدة هي حفظ النسل . وقد تجمعت هذه الادعاءات وانسجمت متوحدة في ذهني حين همست زوجتي في أذني : إنا سنصبح أبوين .

سوف أصبح أباً ؟ يا لجنون السرور ، بل ياللسرور المجنون ! أحقـاً يكون لي ولد له لطف الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم المرحوم والدي ، سيبقى اسم أسرتنا بعدي إلى الأبد . ولـكن أتراني أعيش حتى أراه رجلا يستعجله الطمع في الاستيلاء على أموالي ؟ سيان عندي . . . سأعود إلى العمل ، وأضاعف ثروتي لا لتكون حجاباً بين ولدي والفاقة بل سلماً يتوقل عليه ليبلغ قمة المجـد الزمني . هذا ماجال في خاطري ساعة وافتني البشرى السعيدة .

غدوت يا صاحبي في فردوس من الغبطة والسعادة يرف على خمائلها خيالي الفياض ، وتبدع في زخرفتها وتنميقها تصوراتي . لم أكن ذلك الراعي وقد

صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجى الظافر لم يصدّه النهم عن الاسلاب والسبايا ، ولم ينقص الحرص والحيلة فى ادخاره استعداداً لحرب مقبلة

عادت إلىّ أطماعى طافرة ، وتنبهت هواجسى وظنونى : خلت الأيدى التى تعمل فى إدارة أعمالى تنهب خيراتى ، وصور لى شيطان الحرص أن عمّالى الأمناء ائتمروا بولدى ليحرموه ما كسبته طوال أعوام الشباب .

لقد انقلبت طفلا ولا تستنى حالة جديدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجتى الحامل كرعاية الأم رضيعها ، وأصدف عن الصحاب وأزورّ إذ ألقى ضيوفاً فى منزلى . وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز .

قلت لصاحبى فى شىء من المباسطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه : يخيل إلى أن العامل الخفى فى زوجتك هو الذى جعلك لجوجا وثاباً تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق : إن بلوغك سر المرأة ابتعث فيك الشهوة عنيفة حادة .

أطرق قليلا وأجاب : الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء . نحن يا صاحبى نخلق الجمال ونعطى المعانى للأشخاص والأشياء ، فالمعنى الصحيح لسر المرأة الراحة والطمأنينة . ثم تابع قوله : كانت زوجتى . . .

فقاطعت كلامه قائلا : انتقال من الموضوع بارع ، ثم تقول : كانت زوجتى ، و « كانت » هذه تدل على فعل ماض . فأومأ أن تريث وتابع الكلام :

كانت زوجتى . أجل ! كانت زوجتى على شىء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذى أنميت فيها هذه الصفات وتعهدتها بدراية وحكمة . كان يلذ لى أن تعلو حجتها على حجتى فأذعن للحق ، وأن يصدم عنادها عنادى فننتهى إلى الرضا . ولم يبلغ كبرياؤنا فى ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نورى بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول . من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب فى فوضى الحياة خيطاً كان لنا بمثابة « الهارمونى » من نشيد العمر يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنسانى إلى أسمى مقام . أما خيط حياتى هذا فقد انقطع ، أنا الذى قطعته بيدى ، أجل يا صاحبى أنا الذى قطعته بيدى . لقد حطمت جرة السمن فاندلقت

أحلامى أنا انا الراعى الغبى ، وانساح أملى فى الرمل أنا الحى الضائع !
واستطرد يقول :

نظرت إلى عينيه فإذا بنورهما قد ناص كمصباح نضب زيته ، وأجفانهما تكسرت وجمدت فيهما دمعتان . ثم قال :

ذهبت أنا وزوجتى ذات عشية إلى وادى العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصحاب فاتسعت الدائرة واتسقت صفوف الأقداح وشعشعت النفوس فانطلقت الألسنة .

لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغنى يشدو « العتابه » برنين شجى وصوت رخيم تشترك مع معانى العتاب فى تطريب النفس وإثارة ما فيها من حزن وفرح . وقد استفاض صدرى بإحساس مضطرب إذ سمعت المغنى ينشد « غربوا أحبابى » وشعرت كأن أحباباً تنادينى .

لقد فاض الدمع من عينى وانهمر . لاشك أنه دمع حنان النفس التى تضطرب فيها الآلام جميعاً !

فى هذه اللحظة تلاقت نظراتى بنظرات زوجتى فاعتلج فى صدرى شوق مفاجىء يدعونى بإلحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالى المتروكة فى بلاد الناس . وعند ما عدنا إلى البيت سألتنى زوجتى : متى نسافر إلى أميركا ؟ فى تلك الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثانى ، وفى تلك الليلة المشئومة انتهى كل شىء !

أجل يا صاحبى ، فى تلك الليلة الملعونة انتهى كل شىء فى وجودى وبقيت وحدى كحروف رسالة بليدة جائمة على قرطاس .

ثم أخذ صوت محدثى يرتفع ونبراته تشتد ومسك يدى بقبضة متصلبة وقال : أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلها من الجيران فاصل . قلت أعرف ذلك . قال : كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى إحساسى وألصق بذكريات طفولتى ، هذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة من فراديس النعيم قد انقلبت بلحظة واحدة إلى قبر فى الجحيم تحيط به نيران قلبى وألسنة الناس . قلت : اكتشاف جناية ؟

فنظر إلىّ نظرة استخفاف خلتها تهز مكمن كبريائى فخجلت . واستطرد قائلا : فى هدأة الليل حيث كل شىء نائم إلا عيون السماء ، دوّى الوادى ، أو توهمت

أنه دوى ، بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع : الحرامى . . . الحرامى . . .
النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد ... استيقظت
بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة . تناولت مسدسى من تحت الوسادة
وهرعت لأقتنص السارق . لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية
والخيالات التى تراكمت فى ذهنى وازدحمت فيه مبلبلة مشوّهة . توهمت السارق
عميداً من عمداء الجبابرة سلّطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أم
ولدى ، وارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثارت فىّ فطرة
الإنسان أوغريزة لبوة بكرية اقتحم وحش ضار عرينها فهبّت تدافع عن أشبالها .
كنت أروح وأجىء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور حول
نفسى كاللولب ، أنادى السارق بصوت متهدج أجشّ .

اختلط صوتى بعجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك
بالسارق . إن السطو على منزل فى زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحد لكرامة
أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم .

لمحت شخصاً ماثلا قبالتى ، فتصورته عملاقاً من الجن ينقضّ علىّ . أحسست
بالعملاق الجبار يرفع يديه ليسحقنى . . . أطلقت رصاصة ، أو انطلقت من
المسدس رصاصة ردد الوادى صداها ، أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك .

أيقظنى الانتصار من غفوة الذهول فتنبهت إلى نفسى وإذا أرى حولى
طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى .

سمعت صراخاً وعويلا وتأسفات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة . . .
أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينتُ الوجوه فإذا بالعيون تحدجنى بنظرات
أسى وحيرة ملتاعة مضطربة .

دهمنا الجنــد فإذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه وقد دل
الجيران عليه .

يا للإجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم ! لقد منّوا علىّ
تكرماً منهم بإطلاق حريتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب !

ويلاه ! لقد جمدحسى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت
أعتصر عينى أستجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة أنطق بها .
كنت أرى جثمان يمنى مسجّى فى النعش على رأسها أزهار الليمون التى زانته

يوم إكليلنا وقد غطى الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامى أصورها لك مثل الرؤى والشعور .

أحسست الأرض تدور بى والآلام تنساب فى نفسى تنهب وتنوش أعصابى . أما محدثى فقد اعتدل فى جلسته واشتدت نبرات صوته وقال :

من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهى واحترام شرائع الناس ! أليس رعونة أن تبرأ ساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجف دم المقتول بعد ؟ أليس ظلماً أن تعاد إلىّ حريتى أنا القاتل الأثيم ؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع فى الشوارع ، أطوف حول الذكريات ، أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟

اسمع يا صاحبى : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن تشفى أدواء الناس ، إنما الذى يستطيع ذلك هو الضمير . وسأنفذ أحكامه التى ارتضيها لنفسى حا كما محكوماً .

ثم استسلمنا كلانا للصمت .

توهمت صاحبى المسكين لا يواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء ثم يتطوع للحرب حتى الموت . ولكن سرعان ماستلمح هذا الخاطر يتوارى فى طيات كلامى حتى قال لى ضاحكا : أتحسب الموت يقضى على الموت ؟ قلت : لاأفهم ماذا تعنى . قال : ولا أنا أيضاً أفهم كيف أقضى بيدى على حياة ألقيتها فى غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى فى فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى ألقى فى كل ساعة ميتة تكفر عن جنايتى .

طفرت دمعة كبيرة من عينى المسكين فتلقاها بمنديله . وعندما هم بالنهوض تخاذل وخانته قواه ، فتأبطت ذراعه وأسندته على كتفى حتى بلغ غرفته فى الباخرة . وإذ كنت عائداً لقيت الطُلَعة من الأميركان وقد تهيبوا سؤالى وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

حبيب الزحلاوى

من هنا وهناك

جولة مستطلع

من خير الشرط السينمائية التي وردت علينا هذا الشتاء شريط إنجليزي اسمه « هنرى الخامس » . وليس قدر هذا الشريط فى الموضوع ولا فى التمثيل . فالموضوع منحصر فى حملة هنرى الخامس أحد ملوك انجلترة فى المئة الخامسة عشرة ، وما اتصل بهذه الحملة من شؤون حرب وسياسة وغرام فى أرض فرنسة . وأما التمثيل فكانت صفته صفة التمثيل الانجليزى على وجه العموم : اقتضاب فى الحركة واقتصاد فى النطق . وكان التمثيل حسنا ، على أنه لم يكن فريداً فى حسنه .

إن قدر هــذا الشريط فى النص والاخراج . والنص من قلم وليم شكسبير . ولو كان بدا للأميركيين أن يبرزوا مسرحية « هنرى الخامس » لكانوا هموا على النص فجرؤا على التبديل والتحريف حتى يعدلوا الموضوع على قدر أذواقهم . ولكن المسرحية لم تعبر المحيط الأطلسى هذه المرة ، فظلت فى العالم القديم الذى يحترم القديم .

ويبلغ نص المسرحية لغة السماء أحيانا . فكان يرفع للناظر كلما بلغها . والجميل أن أصحاب الشريط لم يخشوا أن يرفعوا شعراً خالصاً تلمع فى صفحاته آيات المجاز وتنبض فى طياته دقائق الفكر المتفكر . . . جثونا تلك الليلة بين يدى رب من أرباب البيان . وقد حسنت الجثوة ، لأن البصر أعان السمع على الاستمتاع باللطائف .

والذى جعل البصر يعين ذلك العون أن العين سحرت باخراج ناعم نبذ الطريقة السائدة فى السينما الأميركية والفرنسية مثلا ، فعمد إلى اسلوب يغلب التخييل على التبيين وينصر الهمس من الزعق . ومدار هذا الأسلوب المعروف فى المسرح المستحدث ترك إبراز الواقع فى شكله الجافى مع دس خواطر شعرية ومعان فيضية فى المشاهد والمواقف والمجالس . من ذلك أن طائفــة من مناظر الطبيعة ، من أشجار وورود وأودية ومروج ، كانت تنبسط من خــلال النوافذ أو من تحت الأجنحة ، كأن ساحراً ذا افتنان هبط بها من الجنة العليا : ألوان وخطوط مفروشة على بساط من نور شفيف . تلك مناظر مرسومة فى كثير من الحذق واللطافة ، مدرجة فى تلافيف الشريط . والذى رسمها مشبع بصره بنضارة الأرض الفرنسية فى أيام الربيع ، مدرب مرفقة على أسلوب بعض المحدثين من المصورين الفرنسيين مثل Le Douanier Rousseau . من هنــا تلك الطراءة الساذجة فى المناظر كأنما المنظور طى الضمير كامن لا فى الفضاء ، فى الوهم منتشر لا على الأرض .

أكتب هــذا وأنا أدرى أن ناساً يدهشهم ما أكتب . فقد صارحنى فريق أن هذا الشريط لم يحسن عندهم ، بل رأيت جماعة يتركون القاعة فى أثناء العرض . فلما عدت إلى نفسى فكرت فى ذلك النفور ، فعرض لى سببان : أما الأول فلاحق بصناعة السينما ، وأما الثانى فراجع إلى ثقافة كثير من النظارة فى مصر . ولا بأس من الاشارة إلى السببين .

تتساقط علينا الشرط من ناحية أميركا فى غالب الأمر ، ودأبها فى الاخراج محاكاة الواقع الظاهر ، وإبراز المشاهد إبرازاً يذكرك نقل آلة التصوير . فلا وحى ولا همس ولا شعر . وقد اعتاد النظارة هـذا اللون من الاخراج الآلى ، فتى عدل بهم مخرج من خشونة المنظور إلى نعومة ما وراءه حرنوا . ثم إنهم ألفوا مع تلك الشرط السهولة ، أو الابتذال فى ألفاظ الحوار ، فكيف يأنسون بأشعار ، بأشعار نطق بها لسان لا يقف فى اندفاعه سد ، هو لسان شكسبير . . . ؟ هل السينما غناء ؟

وأما السبب الثانى فاشمئزاز كثير من موضوع المسرحية . قصة ذلك أن فى صدور فئة من النظارة عندنا هوى لفرنسة داخلهم من طرق منها طريق الثقافة على وجه التخصيص . ولا عيب ألبتة فى ذلك . وكأنى بهـذا الهوى يشط فيميل بالقوم عن مسرحية تحكى ظفر الانجليز ظفراً فيه امتهان لفرنسة ، ذلك أن المسرحية تدور على هزيمة الفرنسيين فى قرية (Agincourt) Azincourt ، وهى هزيمة انكسرت بها شوكة فرنسة وبذخ عز انجلترة . تلك مسرحية كأنما شكسبير أراد أن يتغنى فيها بجلال إنجلترة وبمجد أبنائها (وإن كانوا أثخنوا فى الفرنسيين حتى إنهم قتلوا بعض الأسرى !) .

*

مما يورث الأسف أن فرق الممثلين التى تهبط مصر ينظمها ناظم فى بلد من البلدان الأوروبية على غير توفيق أو على غير تدقيق . فنصيب فى كل فرقة ثلاثة ممثلين أو أربعة على دراية وكفاية . ثم نجد غيرهم دونهم قليـلا أو كثيراً ، حتى إننا إذا شاهدنا مسرحية أفسد المتخلف فى فنه مما يبذله المتقدم فأبطل بعض متعتنا .

أقول هذا بعد مشاهدة الفرقتين اللتين قدمتا هـذا الشتاء ، إحداها فرنسية تنتسب فى جملتها ، مع كثير من التجوز ، إلى « الكوميدى فرانسيز » ، والأخرى انجليزية . ولكن ماذا نصنع ؟ هذا الذى نقدر عليه ، أو هـذا الذى يريد بعضنا أن نقدر عليه ، فالصبر ، الصبر ! حتى تنشق الطريق إلى جهة الكمال (١) .

لست محدثك عن الفرقة الفرنسية ، فقد بلغك خبرها . إنما أحدثك عن تمثيل الفرقة الانجليزية لمسرحية « هملت » .

يقول فريق من الانجليز إن الممثل الأول واسمه جلجد J. Gielgud يخرج المسرحية فى شكل جديد ، ويؤدى دور هملت على أسلوب طريف .

والحق أنى لم أر الاخراج ذاهباً فى الجدة . فان كان جلجد أبى أن يسلك طريقة المخرج الانجليزى العظيم إدورد جردن كريج E. G. Craig فلم يتخيل هملت « كأنه روح موضوعة فى فضاء بارد لا نهاية له » فانه استوحى كريج فى الفصل الأول : هذه الستائر المسدولة ، وهذا الظلام ينعمه ضوء قمر مستتر أو كالمستتر ، ثم هذه الرهبة المنتشرة سراً فى الجو . كل ذلك عرفته فى انجلترة وفى غير انجلترة . وليس الاخراج فى الفصول التالية بغريب ، فمن السهل أن يفطن

---

(١) برع من الممثلين الانجليز فى مسرحية « هملت » من أدى دور هملت ودور الملكة ودور الملك ودور بولونيس . وأخفقت التى أدت دور أوفيليا مظهراً وتمثيلا .

فطن لسعى المخرج فى تيسير العناصر الظاهرة من أشكال وأضواء وألوان ثم حشدها فى سبيل إبراز الممثل أشار أو تحرك أو اضطرب . وذلك النهج معروف أيضاً فى الاخراج الحديث .
وأما من جهة الآراء فان جلجد حقيق بالاعظام . ما أجمل نطقه السهل الحافل للون ! ثم إنه أقبل على النص يتفهمه هو ويستخرج منه ما لم يخرج لغيره ، على ما أعلم . فما راقنى فى هذا الباب تعليله لاسراع الملكة أم هملت إلى الزواج بأخى الملك المتوفى ، وهو إسراع فيه طيش واستهتار ، ثم هو زواج فيه خروج على العرف واستخفاف بالمروءة ، وفيه انحدار لأن الملك الجديد (قاتل أخيه) على غير أخلاق الملوك كما كان أخوه . وقد علل المخرج هذا الاسراع وهذا الزواج تعليلا فيه الصواب كله ؛ إذ أبرز الملكة غير مرة وهى تبدى شغفها بالملك على غير استحياء ، فتستدعى قبلته وضمته ، وقد تطيل التقبيل والانضمام .
وفى المسرحية ما يؤيد هـذا ساعة يقبل هملت على أمه باللوم فيوجعها ، ثم يغلظ لها وهو يكاشفها بأن الشبق وحده الذى قذف بها بين ذراعى عمه :

proclaim no shame
When the compulsive ardour gives the charge,
Since frost itself as actively doth burn,
And reason pandars will.

إلى آخر ما ينفث به فى وجهها [الفصل الثالث ، المشهد الرابع ، طبعة أكسفرد سنه ١٩٣٤] .

ويزيد ذاك التعليل صحة أن فى المصدر الذى استق منه شكسبير قصته — وهو « تاريخ الدنمركيين » للنحوى Saxo أو « مآسى » François de Belleforest — أن أم هملت كانت خليلة القاتل وأنها ما انفكت بعد الزواج صبة به . وفى المصدر الاخير أيضا أن هملت يصيح فى وجه أمه أنها من سواقط العواهر لأنها تنقاد راغبة مشتاقة لفاجر أثيم .
هذا ، وأراد جلجد أن يبرع فى تفهمه لنفسية هملت . فقد درج الممثلون والمخرجون من قبل على أن يغلبوا الحيرة والذبذبة والسخرية والسوداء المتفلسفة على حركة هملت ونطقه . غير أن جلجد غلب الحماسة والحدة ، ولم تكونا من تكلف الجنون بل كانتا من عنفوان الشباب . وذلك أن جلجد رأى فى هملت الفتوة قبل كل شىء ، فلم يسلبه الرغبة الفعالة ولم ينكر عليه الاقدام كل ذلك الانكار الذى يميل إليه غيره .
وإنى لأخشى أن يكون جلجد ذهب إلى أبعد مما يحسن الذهاب عنده . ففى ثنايا المسرحية ما يدعم غير ما رأى : فهذا هملت لا يدرى أيؤثر الحياة على الموت أم يؤثر الموت على الحياة To be or not to be, ، فيقول : « إن الوجدان يردنا جميعا أهل جبن » :

Thus conscience does make cowards of us all;

[الفصل الثالث ، المشهد الأول]

ثم يعترف إلى شبح أبيه أنه « ابن متلكىء (العزم) » tardy son .

[الفصل الثالث ، المشهد الرابع]

ثم يناجى نفسه فيبدو رجلا يطيل الروية ويزن ما للأمر العارض له وما عليه فيقر بأن « ثأره رخو » dull revenge .

[الفصل الرابع ، المشهد الرابع]

ولكنه سينشط منذ هذا الحين فتدخل الحماسة قلبه ، فيقول : « لتكن أفكارى مشربة بدم منذ الآن » . [آخر المشهد المذكور] . ومن هنا نرى هملت [الفصل الخامس ، المشهد الثانى] يدع الاحجام وينبذ الرخاوة ويعزم على أن يثأر بيده من الذى قتل أباه وحرض أمه على الفحش .

والتحقيق أن هملت لا يبدو من لفظ شكسبير ذا فورات وهبات إلا فى الختام . فهذا هو يهدد أخا حبيبته أفيليا فيقول : « إنى وإن لم أكن غضابياً ولا عنيفاً لفى شىء ذو خطر يحسن بحكمتك أن تخشاه » .

For, though I am not splenitive and rash,
Yet have I something in me dangerous,
Which let thy wisdom fair.

[الفصل الخامس ، المشهد الأول]

وعندى أن هذا الشىء الذى فى صدر هملت ، هذا الشىء الذى يحمل الخطر إنما هو بلوغ السخط حد الثورة . ما أعظم شكسبير ! . درج ببطله هملت وبنا خطوة خطوة ، فأخذ يدفع هملت من باب التأمل إلى ساحة الغضب ، من التردد إلى الاقدام ، من النية المبهمة إلى العمل الصريح . كل ذلك ونحن نتعقب قلق النفس المتألمة ، الضجرة ، المريضة ، ومرضها لن يزول لأن اختلال العالم لن يزول ، ولأن خبث الشهوة لن يزول ، ولأن حيرة العقل بإزائهما لن تزول .

لا عدمنا ممثلين ومخرجين مثل جلجد يتفهمون فى جد ويحدثون فى إخلاص ! إنما بغيتهم خدمة الفن وأربابه وأصحابه ، فيثيرون مثل هذا التعليق ويعوزنا عما كتب لنا أن نشاهده الآن فى لغتنا الكريمة .

*

فى القاهرة ، فى حى قصر الدوبارة دار متواضعة ، نائية عن الجلبة ، اسمها «دار السلام» يقصد إليها الحين بعد الحين نفر من المشغولين بلطائف الوجدان ، فيستمعون إلى متحدث قد يسر إليهم بطوالع روحانية ولوائح قدسانية .

فى الرابع عشر من شهر فبراير استمعت إلى حديث كله طرافة وبعد . وكان المتحدث المستشرق الفرنسى الذائع الصيت الأستاذ لويس ماسينيون L. Massignon . وهو من أقدر الناس على كشف الحجب ، فهو صاحب انتباه وانزعاج وتلق وترق ، على حد قول الصوفية ، وهم أهل وده ولهم عنده ذمة . وهو أيضا صاحب علم بصير باللغات السامية ودراية فائقة بالفكر العربى ، يشهد بذلك تآليف له متداولة .

ذلك المساء استمعت إلى هذا الموضوع « خصائص الحياة الباطنة فى التاريخ الأدبى للثقافة العربية » . والحق أن أفقاً اتسع تجاهى من بعد ضيق ، وهو قابل للاتساع بعد . ولا أشك أن الأستاذ ماسينيون ذاهب فى جنباته ، موغل فى أطرافه ، على عادته ، يوم يخرج إلى الناس كتابة ما كان ألقى به فى آذان نفر منهم . فكأن حديثه فى ذلك المساء كان من باب الجس لعله أن ينبهنا إلى ما فى النفس ظمأ إليه .

تكلم الأستاذ باللغة الفرنسية ، فوطأ لحديثه بمقدمة لغوية خرج منها بأن النطق يعبر أحياناً عن اعتراف دفين أو عن فكرة أخذت من صاحبها مأخذها فى مسرى الحياة الروحانية ، فليس النطق إذن — فى كل حال — وسيلة تفاهم حسى وتجاذب وضعى .

ثم انتقل الأستاذ إلى تعيين المراحل التى تقطعها اللغة وهى تترفع عن بساط المادة تنزهاً ، فابتدأ بمتن اللغة وضرب مثلا كلة « الرحمة » ، فحروفها رح م تدل فى العربية على العطف وفى العبرية على الدفء ، وفى السريانية على الحب . وزاد مثلا آخر كلة « الصبر » فمفادها فى العربية الاحتمال ، وفى العبرية الأمل ، وفى السريانية التفكير .

ذاك التنزه من شأن متن اللغة . وأما الذى يخص بناء الألفاظ فخروج من طور النكرة إلى طور المعرفة ، من التنوين إلى التعريف . هذا ، وأما الذى يتصل بنظم الألفاظ فانتقال من أغراض حروف العطف إلى الفكرة الثابتة للوجود ، بأن يتجسم شأن المتكلم ويتغلب على سياق الجملة ، فينقلب الفعل إلى جهة الفاعل ويصير ذاتياً بعد أن كان فى جهة الحدوث يساير نقلاته .

ومما نشأ عن ذلك التبدل فى المتن lexique والبناء morphologie والنظم syntaxe أن الأسلوب style دخل فى طريق الحزم وقد هذب المواد التى فيها اشتباه ambivalence مثل مادة ح ر م ، س ل م ، ك ف ر .

غير أن التعبير عن الحياة الباطنة باللغة العربية — وهى لغة « متصرفة » flexionnelle — أمر فيه صعوبة لا نكاد نجدها فى اللغات « الوصلية » أو « اللصقية » agglutinantes مثل التركية . ومن دلائل هذه الصعوبة اضطرار اللغة العربية إلى إيثار الايجاز فى أحاديث الوجدان . من ذلك قول رابعة المتصوفة (توفيت سنة ١٨٥ هـ) : « الجار ثم الدار » (تريد : الله ثم الجنة) . وقول أبى يزيد البسطامى (توفى سنة ٢٦١ هـ) يخاطب الله : « أريد ألا أريد إلا ما تريد » .

ثم من هذا الايجاز خرج الأسلوب المتسلسل enchainé بفضل الاقبال على فلسفة يونان وعلى علم المنطق . من ذلك أقوال للحلاج . وهنا ذكر الأستاذ ماسينيون مثلا فاتنى . وإنى أقترح مثلا آخر على هذا الأسلوب مستأذناً . وهذا هو : قال الحلاج : « نزول الجمع ورطة وغبطة ، وحلول الفرق فكاك وهلاك ، وبينهما يتردد الخاطران ، إما متعلق بأستار القدم أو مستهلك فى بحار العدم [1] » .

وقد تلا هذا التعبير المتسلسل أسلوب الاعترافات ، ومنها « وصايا » أو « نصائح » المحاسبى [2] (توفى سنة ٢٤٣ هـ) ، ومنها « المنقذ من الضلال » للغزالى . وفى أمثال هذه

---

(١) « أخبار الحلاج » نشره ماسينيون وكراوس ، باريس سنة ١٩٣٦ ، ص ٥٠ .

(٢) راجع مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية .E.I مادة Muhâsibi .

الاعترافات تشرق تلقينات من دأبهـا أن تنزع النفس من المشتبهات الخارجيـة والملتبسات الخلقية ambiguïtés ، فكأنما المتكلم يجد نفسه من بعـد فقدان وقد وثبت به الحضرة الالهية présence divine ، ساعة الجلوة ، إلى الأنس والهيبة .

بشر فارس

ذكريات أدبية

سجل مسيو أندريه جيد فى يومياته عام ١٨٩٠ ما يلى :

« يجب ألا يعنى الانسان بأن يظهر وإنما المهم حقا هو أن يكون . ولا ينبغى أن يندفع الانسان بالغرور إلى أن يتعجل ظهور حقيقته . »

« ومن هنا يجب ألا يلتمس الانسان الكون رغبة فى الظهور ، وإنما يجب أن يكون الانسان لأن من الملائم أن يكون كما هو . »

هذه الفكرة قانون التزمه أندريه جيد فى حياته كلها . فكان مخلصا فى نشاطه الأدبى كله ، وكان مخلصاً حينما تحدث إلينا فى مساء الثلاثاء ١٢ مارس فى قاعة المحاضرات بالليسيه فرنسيه . ولذلك لم يلق علينا محاضرة ، وإنما تحدث إلينا ببعض ذكرياته كما استجابت لذهنه حين دعاها إليه .

وقد استحضر السماء الأدبية الفرنسية فى أول عهده بالأدب ، فأنبأنا بأنها كانت غير هذه السماء التى نراها الآن ، لم تكن تلمع فيها تلك النجوم التى تألقت فيما بعد حينما اتصلت فرنسا بالبلاد الأجنبية اتصالا قوياً . فلم يكن الشباب الفرنسيون يحفلون بابسن أو دستويفسكى أو جوت . وإنما كانوا يعنون بالأدباء الفرنسيين ويتأثرونهم . وكان أبرز هؤلاء الأدباء مالرميه مؤسس مذهب الرمزية فى الشعر . وكان هذا الشاعر معنياً عناية خاصة باللفظ والصورة ، يتجه فى ذلك اتجاهاً يذكر باتجاه الشعراء الشرقيين فى العربية والفارسية ، إن صح ما نقل إلى أندريه جيد .

ولم يكن فن مالرميه وحـده هو الذى يحببه إلى الشباب ويجذب الشباب إليه ، وإنما كان نبله ونقاء حياته من أعظم المؤثرات فى ذلك .

وكان الشبان يعنون بمذهب آخر فى الأدب هو مذهب الطبيعيين . ولا يحب أندريه جيد هذا المذهب ولا يطمئن إليه ؛ لأنه يرى أن أصحابه قد اتخذوا تصوير الحقائق الواقعة وسيلة إلى التشاؤم دائماً والاسفاف البغيض أحياناً . وأندريه جيد لا يرضى بحال من الأحوال عن هذه المغامرة التى يتخذ فيها الأدب والفكر والعمل سبيلا إلى اليأس . فأندريه جيد وزملاؤه قد رأوا أن فى الحياة من الخصب والتنوع ما يمكن من جعلها جميلة رائعـة ، وهم قد حاولوا ذلك ووفقوا له .

وقد ذكر جيد بيئة أخرى هى بيئة « المركور دى فرانس » التى كانت فى أوائل القرن التاسع عشر بعيدة الأثر فى نشر الأدب ، يشرف عليها ريميه دى جورمون وتؤثر فيها زوجه الذكية البارعة راشيلد ويختلف إليها جماعة من الأدباء . ولكن جيد لم يحب هذه البيئة لأنها لم تكن ترتفع بالأدب إلى حيث يجب له من السمو وإنما كانت تنحط به عن السمو ، ولا تطمح به إلى المستقبل وإنما كانت تنحط به إلى تراب الماضى العتيق .

وقد حدثنا جيد عن موريس بارس ، فأعاد إلينا رأيه المعروف فيه . فهو يعيب على بارس شيئين : أحدهما مذهبه فى السياسة والاجتماع ، وهو مذهب السلطان القوى المستأثر الذى أحبه الفرنسيون فى ذلك الوقت ؛ لأنه كان مذهباً فرنسياً . فلما رأوه يقبل عليهم من ألمانيا فى العهد الأخير أبغضوه أشد البغض . والثانى نصحه للشبان بأن يرسلوا أنفسهم على سجيتها حينما يكتبون أو ينشئون دون تأنق فى الكتابة أو احتفال بالفن . فقد يكون فى إرسال النفس على سجيتها شىء من النفع والاجادة ؛ ولكن هذا نادر لأن الاتقان لا يكتسب إلا بالعناية والجهد .

وقد تحدث أندريه جيد فى كثير من البساطة عن الموازنة بين الجيلين الأديبين اللذين عاش أولهما بعد الحرب العالمية الأولى ويعيش ثانيهما بعد الحرب العالمية الثانية . فالجيل الأول لم يقطع الصلة بين الماضى والمستقبل وإنما هبط من الماضى إلى المستقبل فى هدوء ودعة كما ينحدر النيل من شلالاته إلى السهل ، على حين قطع الجيل المعاصر أو كاد يقطع الصلة بين غده وأمسه ، فهو ينحط من الماضى إلى المستقبل فى ضجيج وعجيج واكتساح لكل شىء كما ينحط الماء من شلالات نياجرا غير مبق على شىء . وقد استكشف الشباب المعاصرون حقيقة جعلوها لأنفسهم غاية على حين كنا نجعلها نحن لأنفسنا مبدأ . وهذه الحقيقة هى أن الانسان يصنع لنفسه العالم الذى يعيش فيه . فأما نحن فقد اتخذنا هذه الحقيقة مبدأ للشوط ، فحاولنا أن نصنع عالمنا وأن نزينه بالمباهج والطموح إلى الخير . وأما هم فقد جعلوا من هذه الحقيقة آخر الشوط ، يصنعون لأنفسهم عالماً يقفون عنده ويقيمون فيه ولا يحاولون تجاوزه . وهذا العالم الذى صنعه سارتر قبيح ، حائل ، حزين ، قذر ، لا يشبه فى ذلك إلا العالم الذى صنعه هويسمانس ، وقد انتهى هويسمانس إلى الغرق فى التصوف حين أمضه عالمه البغيض . أما سارتر فلا يكاد يظهر أنه يتجه حتى إلى هذا الغرق . ومع ذلك فأندريه جيد ليس يائساً ولا متشائماً لأن طبيعته لا تحب اليأس ولا التشاؤم ، وإنما هو واثق بأن شيئاً إيجابياً سيخرج من هذا العالم السلبى المضطرب الذى تملؤه الفوضى . وهو يرى أن مبدأ حرية الفرد قد أصابه من الانحلال والفساد فى العالم الجديد ما يعرضه لخطر عظيم ويجب إنقاذه مهما تكن الظروف . ولم ينس أندريه جيد أنه يتحدث إلى المصريين فى وطنهم مصر ، فيذكرهم بأنهم يجدون فى بلادهم التى لم تصطل نار الحرب مثل ما يجد غيرهم من الناس فى البلاد التى اصطلت هذه النار . ولم يشك فى أن المصريين سيشاركون غيرهم من الأمم المتحضرة فى استنقاذ القيم الانسانية الخالدة التى لا تعيش الشعوب إلا بها .

ومن نافلة القول أن نصف ما قوبل به أندريه جيد حين أقبل وحين تحدث وحين انصرف من التقدير والاعجاب ؛ فقد كان حديثه بسيطاً سهلا يتجه مباشرة إلى القلوب ، لأنه كان يسوقه فى غير تكلف ولا تصنع كأنما كان يتحدث إلى كل فرد من المستمعين حديثاً خاصاً تزينه النوادر والفكاهات . ولم يتعود الجمهور المصرى مثل هذا اللون من المحاضرات .

ومن الناس من أسف لأن أندريه جيد لم يقدم إلى مستمعيه ما تعودوا أن يسموه رسالة أو نداء ومنهم من كان ينتظر أن يعرض عليهم مذهباً فى السياسة والأخلاق الاجتماعية : ولو أن أولئك وهؤلاء قرءوا آثار أندريه جيد لرءوا فيها رسالته ونداءه ومذهبه فى السياسة والأخلاق الاجتماعية . وهو لم يزر مصر ولم يتحدث إلى أهلها ليبلغ رسالة أو يصدر نداء ؛ فقد أنفق فى تبليغ الرسالة وإصدار النداء حياته الطويلة الخصبة .

* * *

النهضة الأدبية فى العراق وموقف الصحافة منها

حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربى

... أرجو التفضل بملاحظة هذه الخاطرة التى أوحتها إلى مجلة « الكاتب المصرى » الغراء، فان شئتم نشرها فلكم شكرى الجزيل ومعى عشرات من أدباء العراق، وإلا فلتكن سراً بينى وبينكم.

لايسعنى فى صدر هذه الكلمة إلا أن أشكر لمجلتكم العامرة خروجها عن العزلة الاقليمية التى سارت عليها كثرة الصحف المصرية منذ نشأتها حتى الآن؛ فكان من جراء ذلك فقدان الرابطة الأدبية بين مصر وسائر البلاد العربية ومن أهمها العراق. فلم تعد مصر — ولا مبالغة — تعرف عن النهضة الأدبية الحديثة فى العراق إلا النزر اليسير، ولم يصل إليها من تاريخ العراق الحديث إلا الشىء العابر، لا لسبب سوى ابتعاد الصحافة المصرية والأدباء المصريين عن مسايرة التطورات الأدبية فى العراق منذ بدأت النهضة الحديثة. وإذا كانت التبعة فى ذلك تقع على الصحافة المصرية وحدها فلأنها منتشرة فى البلاد العربية انتشاراً كبيراً وعلى الأخص العراق الذى كان نصيبه أوفر الأنصباء من مطالعة الصحف المصرية على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، والمطبوعات المصرية قديمها وحديثها، وقلما تجد أديباً عراقياً كاتباً أو شاعراً يجهل التيارات الفكرية فى مصر. ولا أغالى إذا قلت إن أدباءنا فى العراق يقرءون أدباء مصر البارزين قبل أن تقرأهم مصر، حتى أخذ معظم الشباب العراقى فى السنوات الأخيرة يترصد الأسواق لباغتة الكتب المصرية وشرائها ومطالعتها ونقدها وما إلى ذلك. وإن من الصعب على الأديب العراقى اليوم ألا تكون مكتبته حافلة بمؤلفات الدكتور طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى والرافعى وزكى مبارك وغيرهم من قادة الأدب العربى فى مصر، على حين يقابل ذلك فى مصر أن الشباب، حتى الشيوخ منهم، لايعرفون من أدباء العراق الحديثين إلا الزهاوى والشبيبى والرصافى والكاظمى والكرملى. ولو قدر للصحافة العراقية وللمطبوعات العراقية أن تنال مكانة فى مصر لكان الشأن غير هذا، ولعرفت مصر مقدار ما وصلت إليه النهضة الحديثة الجبارة فى العراق. فقد يعجب بعض المصريين — ولا عجب — إذا علم أن العراق أصدر أكثر من ثلثمائة صحيفة أدبية وسياسية منذ الحرب العالمية حتى الآن، وأن للطابع العراقية أخرجت مئات المطبوعات من مؤلفات تاريخية وأدبية ودواين شعرية لمختلف العصور ولا سيما العصر الحاضر. ولا ينكر أحد أن الوثبات الشعرية فى العراق لم تقف عند حد، وقد بلغت أوجها فى العصر الحاضر على ألسنة الشباب المفكر. ولعل أكثر أدباء اللغة العربية يشهدون للعراق بمقامه الرفيع فى عالم الشعر، وسيتفق معى على هذه الدعوى معظم الأدباء المصريين الذين زاروا العراق؛ فقد شهد أكثرهم الأسواق الأدبية على ضفاف الفرات ودجلة وحضروا تلك المهرجانات التى كانت تقام لهم فى بغداد والنجف والبصرة. ومع ذلك فاننا لم نقرأ فى الصحف المصرية ما يدل على العناية بهذا الأدب الزاخر إلا ما جرى به قلم الدكتور زكى مبارك وقليلين من أمثاله، على أنها لاتخرج عن حدود الكتابة المجملة، على حين نجد العراق قد عنى عناية كبيرة بالأدب المصرى الحديث، وشجعت هذه العناية وزارة المعارف العراقية بما أدخلته فى مناهج التعليم الثانوى للأدب العربى، فقررت دراسة شوقى وحافظ والبارودى

والمنفلوطي والرافعي والامام محمد عبده وسعد زغلول إلى جنب الأدباء العراقيين . وبهذه المناسبة يسرني أن أذكر تلك الأصوات التي دوت على ضفاف الرافدين بمناسبة وفاة المغفور له سعد زغلول والحفلات التأبينية التي أقيمت له ، وقد جمع ما قيل فيه من شعر ونثر وطبع في العراق . وكذلك صنع العراق في وفاة حافظ وشوقي على حين يقابل ذلك مافعلت احدى الصحف الأسبوعية الأدبية في مصر فكتبت عن الرصافي بعد موته مالا يليق بأي إنسان فضلا عن شاعر كالرصافي .

إن في العراق نهضات ادبية تعاقبت في القرنين الأخيرين ، فكانت صفحة كبرى من تاريخ العرب وسجلا خالداً من أدبهم الحديث . وكانت هذه النهضات تمثل جانباً كبيراً من النشاط الاجتماعي والسياسي والمحافظة على التراث العربي في أواخر الفترة المظلمة التي كادت تشل الحركة الأدبية في الشرق العربي . وبهذه المناسبة أرى من المستحسن أن أذكر بعض أولئك الأدباء الذين تغنوا على شواطئ دجلة والفرات وورثهم أبناؤهم وحفدتهم فأخذوا عنهم هذا الفن الرفيع . ومن أبرز هؤلاء الشيخ عبد الباقي العمري الموصلي ، والأخرس البغدادي والشيخ كاظم الأزرى ، وآل الآلوسي ، وآل كبة في بغداد ، والسيد حيدر الحلي ، والكواز ، والكعبي ، وآل النحوى ، وآل القزويني ، في الحلة . وكان أكثر هؤلاء من الشعراء والمؤلفين ، وقد طبعت آثارهم في مختلف مطابع الشرق ، ولا سيما ديوان الحلي والعمرى والأخرس الذين كانوا محور الحركة الأدبية في القرن الماضي . وجاءت على أثرهم طبقة أخرى من الشعراء لا تقل نصيباً عنهم وكان موطنها النجف . ومن هذه الطبقة السيد سعيد الحبوبي فقد كان عالماً وشاعراً كبيراً وقائداً من قواد الثورة ضد الانجليز في سنة ١٩١٤ وتوفي بعدها بسنة ، والسيد جعفر الحلي ، والسيد ابراهيم بحر العلوم ، والشيخ عباس النجفي شهيد الغرام ، والشيخ محمد جواد الشبيبي ، والشيخ هادى كاشف الغطاء ، والسيد رضا الهندى ، والسيد محمد حسين الكيشوان أحد العروضيين .

وكانت « معركة الخميس » من أشهر الأسواق الأدبية في النجف بين هذه الطبقة حيث كانت تعقد يوم الخميس من كل أسبوع مناظرة كبرى بين هؤلاء في النواحي الأدبية والعلمية دامت سنوات عدة ثم ماتت بموتهم . ولا يخفى على البديعيين وجه تسميتها بمعركة الخميس .

وجاء بعد هؤلاء شعراء الوثبة الفكرية الحديثة في العراق ، الزهاوى ، والرصافي ، والكاظمي — ضيف مصر حياً وميتا — وقد كان لهؤلاء الثلاثة أثر كبير في مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكان لهم الفضل في تنمية الحركة الفكرية في ربوع العراق .

ومن الأحياء اليوم سماحة الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أعظم علماء العراق الدينيين ورائد الوحدة الاسلامية ، وهو — إلى جنب علمه الغزير — شاعر وخطيب مفوه ، ومواقفه الخطابية معروفة في العراق وفلسطين وغيرهما .

ومعالى الأستاذ الجليل الشيخ محمد رضا الشبيبي أحد أقطاب الحركة الوطنية والفكرية في العراق ، وقد طبع ديوانه في مصر قبل سنوات ، وهو ديوان يمثل حياته العقلية أحق التمثيل ، ويصور نضاله السياسي في مقاومة الاستعمار أصدق التصوير .

والأستاذ الشيخ على الشرقي الشاعر العبقرى ، ولو قدر لديوانه أن يطبع لكان ثروة كبرى للمكتبة العربية ، فهو مجموعة من سياسة وفلسفة واجتماع .

والعلامة السيد حبيب العبيدى مفتي الموصل وهو عالم وشاعر ، وله آثار قيمة في اختصاصه .

والشيخ محمد السماوى أحد المؤرخين والعلماء ، وصاحب المكتبة المعروفة — فى النجف — بمخطوطاتها النفيسة .

والدكتور محمد مهدى البصير أحد شعراء الثورة العراقية ، وهو يتمتع بثقافتين : الأولى من العراق والثانية من باريس .

والأستاذ باقر الشبيبي صاحب البيت المشهور :

المستشار هو الذى شرب الطلا   فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟

والحاج عبد الحسين الازرى الشاعر والصحفى المعروف . والأستاذ أحمد الصافى النجفى نزيل دمشق اليوم . وشاعر الجيل الحديث الأستاذ محمد مهدى الجواهرى الذى يعد بحق صاحب رسالة شعرية أثرت فى كثير من الشباب العراقى ، ولاشك أن مجلة « الكاتب المصرى » قد تعرفت إليه أحسن التعرف . والدكتور مصطفى جواد اللغوى والمؤرخ الشهير . والأستاذ طه الراوى الأديب المطلع .

هؤلاء طائفة ممن استعرضتهم الذاكرة من العلماء والشعراء العراقيين الذين يرجع إليهم الفضل الكبير فى بناء النهضة الحديثة فى العراق ، وكان لأكثرهم الشأن الخطير فى السياسة ومقاومة الاستعمار ومعالجة النواحي الاجتماعية . وهناك طائفة أخرى من شعراء الشباب وكتابهم لاتستطيع هذه الكلمة أن تأتى على ذكرهم ، وهم ينتظمون فى بغداد والنجف والموصل والبصرة وسائر المدن العراقية ، ويتمثل جانب كبير من أدبهم على صفحات المجلات والجرائد العراقية أدبية وسياسية . فهذه المجلات « عالم الغد » و «الحضارة» و «الرابطة» و «الهاتف» وصاحبها من الكتاب النتجين و « الفرى » و « الوادى » و « الاعتدال » وغيرها . ومن الجرائد «البلاد» للاستاذ رفائيل بطى المعروف بأنتاجه وخدمته للأدب العربى فى مختلف الصحف التى أصدرها فى بغداد ، و«الأخبار» و« الساعة » و « الرأى العام » صحيفة الشاعر الكبير محمد مهدى الجواهرى ، و « صوت الأهالى » التى تمثل جانباً من الوعى الاجتماعى فى العراق ، و « الزمان » وغير ذلك من الصحف التى تصدر فى بغداد وسائر المدن العراقية .

هذه نبذة قصيرة عن النهضة الأدبية والعلمية فى بلاد الرافدين ، ولم يتسن لى البحث بأكثر من هذا ، فقد تركت عشرات الشعراء والكتاب ، وقد يغضبون على لعدم درج أسمائهم هنا . ولو اتسع لى صدر المجلة لكتبت لها فصولا قدر استطاعتى عن النهضة الحديثة فى العراق وعن أبرز الشعراء والكتاب الذين أسهموا فى بناء هذا الكيان .

أما السبب فى كتابة هذه الكلمة فان فضله يرجع — كما أسلفت — إلى مجلة « الكاتب المصرى » التى أخذت تتبع سير الحركة الأدبية فى العراق وتنشر لأدبائه ما استطاعت وتهتم بشؤونه . ولعل الصحف المصرية الأخرى تخرج من عزلتها فتعمل على توحيد الجهود الأدبية فى أقطار الضاد كما صنع أقطاب السياسة فى بناء « الجامعة العربية » ، فتسعى لبناء « جامعة أدبية » ينتظم فى سلكها رجال الفكر العربى ، فتكون خير كفيل لبعث النشاط والتقدم ، فان للأدباء شأناً فى التاريخ السياسى والاجتماعى أكثر من غيرهم ، وعليهم تعتمد الأمة فى كل ما تصبو إليه من أمان وآمال .

وكل ما أرجوه ألا تكون هذه الكلمة غير عتاب رقيق لبعض الصحف الأدبية فى مصر العزيزة ،. فانها من عراق يجعل مصر فى الطليعة ويعلق عليها الآمال فى مستقبل الشعوب العربية .

ابراهيم الوائلى

الرجوع إلى باريس

« البحر »

لم تكن سفينتنا سفينة زينة ، فقد قدر لها أن تنجو من مصير أخواتها اللائى ذهبن ضحية الحرب ، فهى سفينة بضائع لم تصنع لمتعة الراكب . . بل ألقت مرساها على بورسعيد كسفن التجارة الفينيقية التى تأتى السوق حتى ينفض فهى تنتظر أياماً وليالى فى بورسعيد ولا يعلم ركبها أيان تبحر وهى معلقة على صفقة « خروب وعدس » لتحملها إلى الجزائر . . . ومن استطاع أن يجد موضعاً بعد الخروب والعدس كان سعيداً . . ففى جيوب حول « زكائب » البضاعة يهبط إليها سلم عميق نام أكثر الركب من أبناء لبنان ومصر ، وأولئك طلاب يهاجرون فى سبيل العلم . وما بهذه السفينة من فضيلة أجل من مقاصد هؤلاء الذين يسارعون فى ولوج باب أوصدته الحرب ستة أعوام فهم راضون بكل ما يلقون من شظف العيش ، ليس لهم سلطان إلا على أنفسهم ، وكل خادم لنفسه من دون ثورة على شىء ، وهذه السفينة رغم خشونتها كانت آخر باب من أبواب الأمل لمن شاء أن يدرك العام الدراسى قبل أن ينصرم زمانه .

فى ليل الغد المجهول أشغال فى عالم الشعراء . وما تقبل الأنفس على باب الغد حتى يهز أوتارها الأمل والاشفاق والرهبة والايمان . وقد سألت عن نور يكشف لى حجب الغيب ويهديني سواء السبيل ، حتى تردد على سمعى دعاء حكيم : ضع يدك فى يد الله ، فذلك أهدى لك من كل نور وأسلم لك من كل علم . وتجاوبت فى هذا القلب أصداء ما كان لحى أن يعتزل آثارها التى أصغى فى سكون الليل إلى ما يتردد فى أفئدة الذين أحببتهم وأحبونى ؛ فهم يصحبوننى بفكرتهم بالليل والنهار ، ويقاسموننى أملى وقوتى ويفرضون على الصلابة فى الأحداث والعزة فى الأهوال . وفى ثنايا الشرف المصعد ضياء مبين تبعثه ذكرى الوفاء لا سلطان لأحد عليه ولا يحجبه فراق ولا موت ولا ليل ولا نهار .

قد رددت فى نفسى هذه الفكر فى ليل لم يرد أن يسمعنى سوى ثورة البغى ولم يرد أن يجعل منى باغياً ولا ظالماً ولا عدواً . ورأيتنى أتسلل فى الظلماء إلى ظهر السفينة . قد جاوزت فى الخلاء صياح الصائحين ونجوت من عدد النابحين ، واستقر بى القدر على سفينة فى البحر لا تمتد إليها يد أحد ممن تربصوا للخير وجعلت أتلو :

عـدس ما لعباد عليك إمارة   نجوت وهذا تحملين طليق

ولم يرد ليلنا أن يجعل من هذه الحرية نشوة ، بل جعل منها مزيجا من الخوف والرجاء . في ليل الهول بارق من نور ، وأنا أمد يدى إلى الله ليسلك بى مسالك الغد وليطمئن قلبى وإيمانى ؛ فقد قضيت ليلى أستمع لأشياء مبهمة فى نفسى لم تبرح سمعى حتى غلب النوم على سمعى وبصرى وكانت هذه اليد التى تثير ما سكن من وجدى وتظهر ما خفى من شواغل قلبى توسل النفس بين الضـلال حتى أوجس خيفة على من ودعت من شيوخ دارى . ثم لا يلبث هذا الضلال أن ترق حواشيه وأن يمحوه صوت من عنـد الله ويتردد على سمعى قول طيب جميل كيف يخاف الأحداث مؤمن (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) .

غداة هذا الحديث استقبلت الفجر وهو يرسل ألوانه الوردية إيذانا بطلوع الشمس فأمات هذا الفجر آلاماً وأحيا هذا الفجر آثاراً . والشعراء أحياء كالطير تشدو فى مشارف الأرض المشرفة على آيات الله . وموكب الشمس أول النهار أدعى لنشيد الخير والحب والشجاعة والأمل . وكان آباؤنا الأولون يؤمنون بكل قوة من هذه القوى كأنها إله ولى حميم . وكانوا لا يذهبون مذهباً مجهولا قبل أن يدخلوا معابد هذه الآلهة كيما تصحبهم بالسعد وتجنبهم ما يكرهون . وقضيت بين يدى الشمس ساعة من نهار على حين يتجاوب فى قلبى دعاء من الأمل الحافز للخير ، وتهليل وجوه الحب التى صاحبت شبابى . وسمعت نداء أمتى ووطنى ، ولم أبرح هذه الصلاة حتى استقر إيمانى وقلبى .

ثم غدت على عينى سفن فى سكون الليل ووضح النهار . وأبحرت سفينتنا ذات مساء ، فسقطت عنى شواغل نفسى كأنما اتخذت النفس من أفقها القريب وسيرتها المعلومة الموضوعة وبما حولها من جمود الأحياء والأشياء سبيلا إلى الضجر . ووسوس لها الشيطان الوساوس ، فهى عرضة ساعة لصرعة الحسد ، وساعة لحساب الكبرياء ، وساعة للضعف وساعة للصلف . وكأن النفس حمل تثقل موازينه إذا خفت موازين الحياة ، فليس للانسان مايشغله عن نفسه ، فلا يشكو حسد الحاسدين إلا الفارغون ، ولا يعيش فى الأحلام إلا الفارغون . وقد يميت هذا الفراغ النفس قبل أجلها وتنطفئ جذوة الروح قبل أن يموت الجسد . ومن الناس من تجف أرواحهم وهم لايعلمون ، وأولئك يكرهون الأمل والتوثب كما يكره المريض صحة الأصحاء .

وقد جاوزت بى السفينة هذه النفس إلى نفس أخرى ؛ فقد جاءتنى النجوم فى كبد الليل بأشغال ، وجاءنى البحر الفسيح المديد بأشغال ، ونفذ النسيم إلى قلبى بأرواح ، وتوالت كلها أثراً بعد أثر ، وأشرقت الشمس على عالمنا بألوان ، وأرسلت شعاعاً طيباً وضاء فأحيا ما كاد يذبل من روحى وأتى على بعهد سعيد جديد .

وفى سكون الليل حديث يجلو الليل مجهوله وغامضه ، إنما الأمواج سر ما أصاب الناس من عز وذل ، والذى علم الانسان سيادة الموج أوحى إليه أن سيادة البحر سيادة الأرض والذين يبكون إن غادروا ديارهم ويريدون أن يعيشوا ويموتوا عند ظل الشجرة التى غرسها آباؤهم أولئك لا يعلمون سر العالم ، ولا يدرون سبيل المجد والثراء . خيرات الأرض جميعاً والبحر معها طوع يمين الذين يملكون البحر . والذين يملكون البحر يستحلون كل سبيل . وتاريخ المدنيات التى ظهرت حول البحر الأبيض المتوسط شبيه بهذه الموجات التى تسترسل من كبد البحر ثم تعلو فتكون قمماً ، ثم تهبـط فتتوارى فى جوف اليم ، وهى جميعاً من ماء واحد ، مهما تبدلت صورها ، واختلفت طاقاتها . ولا تقوم مدنية حول هذا البحر حتى يسود أهلها

للموج . وكل هزيمة فى البحر مقدمة لزوال ملك ونذير بذهاب مجد . والذين أوتوا الملك والمجد يعلمون هذه الحقيقة ، فقد شرع القائد الاغريقى تيموستوكليس يحرق سفن حلفائه بعد ما هزم بها جنود الفرس لكيلا تجد أثينا منافسا للسيادة ، وذهب سلطان قرطاجنة بذهاب أسطولها . واتبع الرومان فعل سياسة تيموستوكليس لكيلا يكون لأحد سبيل على سلطانهم . ومدنيات العصر الحديث تقر بما حدث الليل .

ومكثت سفينتنا تقبل فى البحر على ميناء الجزائر ست ليال وخمسة أيام ولم تشبه ليلة من ليالينا أخواتها البارحة ولا يوم من أيامنا أمسه ؛ فنحن ندخل آفاقاً يشتد ريحها وموجها ويتلبد الليل بالسحاب ، وتتق المطر الذى يهبط على سفينتنا ، وهى ترفع عقيرتها فوق سطح الموج ، وتهوى برأسها فى منخفض الموج ، ويتطاير زبد الموج على جانبى السفينة وهى مصرة دائبة . ونسمع صفير الريح ساعة تعصيها حبال السفينة الحديدية ، وماء البحر قاتم حينئذ يتطاير من موجه زبد أبيض حتى أقصى الافق الذى تترامى إليه أبصارنا ، وتخال هذه الليلة إذا عصفت ليلة الأبد ، ولكنها لا تلبث أن تنام كما ينام الأحياء ، ويصحو النهار بفجر ذهبى ، وتشرق الشمس فتؤنس وحشة الأحياء ؛ فهى رفيق الأحياء المؤنس فى البر والبحر ، وهى الأب الرحيم الذى يغذى الكون بعنصر الحياة . وترى الناس يضيقون ذرعاً بالسحاب إذا حجب عنهم عجلة الشمس . وإذا صفا جوهر السماء واستقر النسيم وسكن الموج داعب عينيك ضياء النهار الناصع الساطع وزرقة البحر العميقة ، ويسترسل بصرك حتى أقصى الافق . وتمضى سفينتنا تقبل فى البحر على شاطئ طبقات إفريقية وتحسب ساعة هذا الأثر ساكنة لا تتجدد ، ثم تشرع بصرك فترى وراء الهواء طبقة كثيفة يحار فى تأويلها الناظرون ، ثم لا تلبث أن يقبل علينا رسول الأرض ، وهو طائر أبيض يحلق وراء السفينة كلما دنت من الأرض . وهذا الطير سر من أسرار الزمان ، فمن ذا الذى يحدثنا حديثه ؛ فهل تراه طيراً سائلا يلتقط ما ترمى السفينة من فتات الموائد ؟ إن كان ذلك أمره فما هو بسر ، أم تراه شيئاً من سر الزمان الخالى يعصم السفن من صخور الأرض ، ويهديها سبيلها ؛ فان كان ذلك أمره فهو سر . وليت شعرى من علمه الهداية والرشد . وأقبلت السفينة حتى دنت من شاطئ صخرى ذى صخور مسودة محمرة عاتية تدنو حيناً وتنفرج أحياناً . وغربت الشمس من وراء هذه الصخور . وهبط الليل عن يميننا وجاءت جمرة قرص الغروب بلونها المحمر اللامع ، فانبسطت فوق الصخور العاتية المحمرة وامتدت إلى زرقة البحر العميقة ، ثم ذهبت هذه الألوان كلها تحت أصابع الليل . وصحبت السفينة هذا الشاطئ ليلا عن شمالها ، وفى ثنايا الشاطئ فى حجب الليل بيوت تنم عنها مصابيحها . وعلم الركب أن السفينة تلق مرساها غداة غد على الجزائر .

على حافظ

شهريات

شهرية السياسة الدولية

أورثت هيئة الأمم المتحدة العالم الدولى ، إذ انتهت أعمال القسم الأول من دورتها الأولى فى التاسع عشر من شهر فبراير الماضى ، تركة منقلة : المشكلة الايرانية ، والمعضلة اليونانية ، والقضية الاندونسية ، والمسألة السورية اللبنانية . وقد طرأت على كل منها منذ ذلك التاريخ إلى ساعة كتابة هذه الشهرية مضاعفة أو أكثر كان لها أثر فى « كهربة » الجو الدولى الذى زاده ذبذبة ما ألقاه مستر تشرشل فى أميركا من خطاب وما رد به الرفيق ستالين من أقوال .

المشكلة الايرانية

وقد كانت المشكلة الايرانية حين استودعها مجلس الأمن الدولتين المتنازعتين كى تتناولاها بالحسنى هى مشكلة احتلال الجنود السوفيتيين لاذربيجان . وكانت الحكومة الايرانية تطالب بجلاء هؤلاء الجنود عن جزء من أراضيها ، وكانت حكومة الاتحاد السوفيتى تقول : إن اليوم الثانى من شهر مارس — الذى لم يكن حل يومذاك — هو الموعد المحدد فى اتفاقية طهران للجلاء ، وأن هناك أموراً يجب أن يتم التفاهم عليها بين الطرفين قبل الجلاء ، وكانت تلوح فى الوقت نفسه بأن بين الاتحاد السوفيتى وإيران معاهدة معقودة فى سنة ١٩٢١ تبيح للأولى احتلال بعض أراضى الثانية . وبدأت المفاوضة فى موسكو ، وظن المتفائلون أول الأمر أن المفاوضة ستكلل بالنجاح ، ولاسيما أن الذى يتولاها من الجانب الايرانى هو رئيس الوزارة الجديدة « قوام السلطنة » المشهور بميله للروس . لكن المتفاوضين قد انفضوا دون الوصول إلى نتيجة ، واليوم الثانى من شهر مارس قد انقضى دون جلاء القوات السوفيتية ، وكل ما أذيع عن كلا الأمرين أن الرفيق مولوتوف قد يذهب إلى طهران لاستئناف المفاوضة ، وأن حكومة أذربيجان المستقلة ، قد تعلن رغبتها فى بقاء القوات السوفيتية داخل أقاليمها إلى حين ، وإن كان قد أعلن كذلك أن الاتحاد السوفيتى لا يفتأ يبعث كل يوم إلى إيران بقوات أكثر ومعدات أضخم ، كما أعلن أن أنباء هذه المعدات والقوات إنما هى أنباء غير صحيحة يذيعها خصوم قوام السلطنة عمداً قصد إحراج وزارته وإسقاطها .

وكانت مضاعفة دولية قد طرأت لمناسبة ما عرف من أن محاولات قد بذلت من جانب سوفيتى قصد الحصول فى كندا على معلومات خاصة بأسرار القنبلة الذرية ، وعلى مواد تستعمل فيما يتصل بهذه القنبلة الذرية . فلما انقضى اليوم الثانى من شهر مارس وهو الموعد المحدد لجلاء القوات السوفيتية عن إيران بعثت الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى بمذكرة سألت بها عن سبب عدم تنفيذ التعهد بالجلاء ، ومضت عشرة أيام أعلن بعدها الرد السوفيتى

على المذكرة الأميركية متضمناً أن هناك مسائل يراد حلها قبل الجلاء ، ومذكراً بأن الولايات المتحدة لاتزال محتلة « كوبا » على الرغم من أنه كان محددا لجلاء قواتها عنها نفس الوقت الذى كان محدداً لجلاء القوات السوفيتية عن إيران وهو مدى ستة أشهر بعد انتهاء الحرب ، وبأن الجيوش الأميركية لاتزال فى مصر إلى الآن . وأغلب الظن أن مثل هذا التذكير ستدفع به حكومة موسكو إلى الحكومة البريطانية بالنسبة لبقاء قواتها فى العراق ، وفى اليونان .

على أن دعاية هائلة قد أخذت الصحف الانجلوسكسونية فى انجلترا ، وفى أميركا توجهها ضد الاتحاد السوفيتى تريد إظهاره بمظهر الملوح بالحرب المهدد بويلاتها الراغب فى اقتحام البلاد المجاورة . ولا شك أن تلك الدعاية ترمى إلى إلقاء الرعب فى نفوس من يتقدمون إلى بريتانيا العظمى هذه الأيام بمطالبهم كى تصل بهم الى السكوت عنها أو تأجيل بحثها .

والمقول أن المشكلة الايرانية ستعرض من جديد على مجلس الأمن فى اجتماعه الذى يبدأ فى الخامس والعشرين من شهر مارس إذا لم يصل الاتحاد السوفيتى إلى تفاهم قبل هذا التاريخ مع إيران . ويلوح أن هذا الافتراض يستساغ إذ أعلن فى لندن أن وزير خارجيتها مستر بيفن لن يحضر بشخصه اجتماع مجلس الأمن فى نيويورك إلا إذا حضره وزير الخارجية السوفيتية الرفيق مولوتوف أو نائبه «فيشنسكى» الذى كانت له معه فى لندن «جولات» .

المعضلة اليونانية

وأما المعضلة اليونانية فكانت واقفة عند حد ما تقرر لدى مجلس الأمن من أن وجود القوات البريتانية فى اليونان إنما هو بناء على طلب الحكومة اليونانية بالذات ، وأنه لامحل إذن لاعتبار وجودها هناك خطراً مهدداً سلام العالم . وكان المفروض أن تنتقل الأحوال اليونانية إلى إجراء الانتخابات التى يسفر عنها تعيين نوع الحكم الملكى أو الجمهورى ، وينبعث منها مجلس النواب الجديد تتولى الحكومة التى تنال ثقته شؤون البلاد . وكان المفروض أن يشهد الانتخابات ممثلون للحكومات الانجليزية والأميركية والفرنسية ، وكانت هناك محاولات لانضمام ممثلين سوفيتيين إلى هيئة المشاهدين . لكن جماعة «أيام» — وهى جماعة اليساريين فى بلاد اليونان — قامت تطالب بتأجيل الانتخابات حتى تتهيأ لها فرصة مقاومة التدبيرات التى دعمها الرجعيون طوال المدة التى انقضت منذ وجود القوات البريتانية فى اليونان ، وكانت روسيا هى المنفردة بتأييد هذا الطلب ، لكن فرنسا مقدمة على إعلان انضمامها إليه بما أذيع عن اتجاه لجنة الشؤون الخارجية فى الجمعية التأسيسية .

القضية الاندونيسية

وكذلك القضية الاندونيسية لاتزال معلقة . فقد قيل لدى مجلس الأمن إنها مسألة هولندية يقوم الخلاف فيها بين هولندا ومستعمرة من مستعمراتها ؛ إذ أن وجود القوات الانجليزية لايرجع إلا إلى مهمة نزع السلاح عن اليابانيين الذين لايزالون ملتجئين إلى جزرها . وفى الأنباء الأخيرة أن جنوداً هولنديين قد بدءوا ينزلون بعض هذه الجزر . ويلوح أن هذه الحركة إنما يقصد بها التمشى مع النظرية التى قررت أمام مجلس الأمن . وفى الوقت عينه كانت الحكومة

البريطانية قد أوفدت أحد أساطينها الدبلوماتيين لمعالجة التوفيق بين الاندونسيين الوطنيين والسلطات الهولندية . لكن شيئاً لم يذع بعد عن نتائج هذه المعالجة .

المسألة السورية اللبنانية

وقد خطت المسألة السورية اللبنانية خطوة ، بأن حدد موعد إتمام جلاء القوات الاجنبية عن سوريا فى غضون شهر إبريل المقبل . ولا يزال موعد جلائها عن لبنان محل أخذ ورد فى باريس بين ممثلى لبنان وممثلى الحكومتين الفرنسية والانجليزية . وقد عرض من الجانب الفرنسى فترة سنة كاملة حتى يتم جلاء القوات الفرنسية . لكن الجانب اللبنانى يستطيل هذه المدة من ناحية ، ويلح فى احترام مبدأ جلاء القوات كلها انجليزية وفرنسية فى وقت واحد من ناحية ثانية . وأغلب الظن أن سينتهى الأمر إلى اتفاق ، إذ قد تغير الجو بالنسبة للمسألة السورية اللبنانية فى فرنسا بعد ابتعاد الجنرال ديجول عن دفة الحكم .

مضاعفات

ولم تقف الحال خلال الشهر المنقضى عند حد معالجة المسائل التى عرضت على مجلس الامن العالمى ، بل إن مضاعفات قد جاءت تضاف إليها وتزيد الجو الدولى تعقيداً . فقد راح مستر تشرشل يخطب فى الولايات المتحدة داعياً إلى نوع من الاتحاد يربط بين الولايات المتحدة وجامعة الأمم البريطانية وتاركا فى نفوس سامعيه أنه إنما يقصد بهذا الاتحاد قيام جبهة أنجلوسكسونية فى مواجهة الجبهة السوفيتية . وقد أثارت أقوال مستر تشرشل غير قليل من القلق ، لا عند السوفيتيين وحدهم بل عند الأمريكيين والانجليز أنفسهم . فقام النواب والشيوخ فى أمريكا يعترضون على أقوال الزعيم البريطانى وقام عدد من أعضاء البرلمان البريطانى زاد على المائة يحتجون على ما تضمنه خطاب زعيم المعارضة من تلميحات وتصريحات . وقام الرفيق ستالين يرد عليه بعبارات قاسية ، إذ شبهه بهتلر ووصفه بأنه مثله « تاجر حرب » وأنه مثله يدعو إلى التفوق العنصرى وإلى سيطرة العنصر المتفوق — وهو فى نظره عنصر المتكلمين باللغة الانجليزية — على العالم جميعاً . ويلوح أن رد الفعل كان قوياً ، فألقى مستر تشرشل خطبة ثانية تراجع فيها كثيراً عن تلويحاته الأولى وتهديداته ، وأعلن فى صراحة أن الروس لا يريدون إعلان حرب الآن . وراح صديقه العتيق الجنرال سمطس يشد أزره باعلانه نفس الرأى فى نفس اليوم . ذلك أن ريحا قد عصفت داخل حزب المحافظين وهى تدعو إلى تخلى مستر تشرشل عن زعامة المعارضين فى مجلس العموم ، وهو ما يعنى تخليه عن زعامة المحافظين وحزبهم .

وتتوج المضاعفات بمضاعفة جديدة أخرى هى مضاعفة الموقف من حكومة الجنرال فرنكو بأسبانيا . وقد كان فرنكو من أعوان المحور أثناء الحرب ، ومن أجل هذا لم تكن أسبانيا بين الدول المدعوة إلى مؤتمر سان فرنسيسكو أو المقبول طلب انضامها إلى هيئة الأمم المتحدة بعد تكوينها . وقد أقدم فرنكو أخيراً على أعمال من العنف ضد طائفة من الجمهوريين أو الوطنيين الذين تحتضنهم فرنسا ، فاعتبرت حكومة باريس هذه الاعمال موجهة

ضدها ، فطالبت بقطع علاقات الدول العظمى بالحكومة الاسبانية مادام يتولى شؤونها الجنرال فرنكو . وطلبت إلى الحكومتين البريتانية والاميريكية أن تنضما إليها ، ولكنهما أجابتا بما لا يرضى فرنسا ، إذ انطوت الاجابة على نوع من المماطلة والاحالة إلى الشعب الأسبانى بحجة عدم التدخل فى شؤون الغير الخاصة . وقد قررت الحكومة الفرنسية رفع الأمر إلى مجلس الامن فى اجتماعه الذى يعقد فى الخامس والعشرين من شهر مارس .

الخلاصة

والخلاصة عندى أن انعدام الثقة بين الجانب السوفيتى والجانب الأنجلوسكسونى ، لايزال هو العامل السائد العلاقات الدولية ، وأن هذا العامل هو الذى يدعو كل فريق إلى الوقوف من الفريق الآخر ما ترى من مواقف . فروسيا تستمسك بموقفها فى إيران لأنها ترى انجلترا مستمسكة على خطوات منها بموقفها فى العراق ، وبمساعيها بين العراق وتركيا . وهى تستمسك بمطالبها فى الدردنيل مقابل ما تستمسك به انجلترا من موقف فى قناة السويس وفى اليونان . وهى تلح فى المطالبة بشىء لها فى جزر « دوديكانيز » أو فى طرابلس و «أيرترية» مقابل ما ترى لبريتانيا العظمى من نفوذ فى البحرين المتوسط والأحمر . والدولتان السكسونيتان تقفان الآن من فرنكو ذلك الموقف اللين لأنهما قد تحتاجان إليه لتهديد فرنسا إذا ما قوى فيها الاتجاه الشيوعى نحو روسيا .

وإذن فالعالم لايزال هو العالم : الأنانية طبيعته ، والتنافس وسيلته .

محمود عزمى

شهرية المسرح

رسالة من باريس

موسم التمثيل

ليس من اليسير أن نستعرض في إمامة الموسم التمثيلي في باريس ، وذلك لأسباب عدة : منها أن هذا الموسم يبدأ عادة أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ، ولا ينتهي إلا وسط الصيف في آخر أيام شهر يونيو أو أول أيام يوليو حين يشتد القيظ ، فتبلغ الحرارة ٣٥ درجة في الظل . فامتداد هذا الموسم يقيم صعاباً عسيرة . هذا فضلا عن أن كثيراً من المسارح تغير برنامجها خلال الموسم . والعقبة الثانية في سبيل دراسة الحياة المسرحية في باريس دراسة جلية واضحة ترجع إلى وجود نحو من خمسين مسرحاً في العاصمة ، وقد استبعدنا بطبيعة الحال ، الأوبرا ، والأوبرا كوميك ، والجيتي ليريك ، وكثيراً من المسارح الاستعراضية ، والملاعب الشعبية ، والكازينوات ، وما يسميه الفرنسيون « علب الليل » ، وهي المسارح الصغيرة المعدة للغناء المضحك ، وغير هذه من الملاهي المختلفة التي يرتادها الجمهور لقضاء عصر يوم من الأيام أو مسائه . فالى جانب امتداد الموسم التمثيلي امتداداً طويلا ، تجد لهذا الموسم مظاهر لا تحصى ، وترجع إلى العدد الهائل من المسرحيات التي تمثل . وأخيرا ، وقد تكون هذه العقبة من أشد العقبات ، فليس بين هذه المسارح المختلفة أقل وحدة ، أو أقل تناسقا . ومرد ذلك إلى شخصية مديريها الذين يقررون اختيار المسرحية التي تعرض ، وإلى اختلاف الممثلين الذين ، سيقومون بأدوارها ، وإلى تنوع عرض المناظر والملابس والضوء ، أي إلى مجموعة العوامل التي تطبعها بطابع خاص . على أن هذا التباين العجيب في الموضوعات وفي الأساليب وفي موهبة الممثلين بل في الجمهور نفسه ، هو الذي يرجع إليه ما يمتاز به الموسم الباريسي من رونق وازدهار ، شأن الماس الذي ترتفع قيمته ويزداد بريقه بتعدد وجهاته . يتبين من ذلك كله الصعوبة التي يلقاها من يريد أن يصور لقراء بعيدين تصويراً تراعى فيه بعض الدقة ما يمثل الآن في عاصمة الفنون والآداب !

١ — سنبدأ بالحديث عن المسارح التي تسمى « بالمسارح الوطنية » لأن الدولة تمنحها إعانة . وفي باريس مسرحان من هذا النوع فيما يتصل بالتراجيديا ، والكوميديا(١) وهما « المسرح الفرنسي » الشهير ، ويطلق عليه في بعض الأحيان اسم « الكوميدي فرانسيز » وفي أحيان أخرى اسم « بيت موليير » . وعلى الضفة اليسرى لنهر السين مسرح الأوديون القديم (وقد جمع المسرحان حديثاً تحت إدارة واحدة) . ولا نريد أن ندخل في تفاصيل نظامهما ، وحسبنا أن نقول إنهما تابعان للحكومة ، وإنهما لذلك مصطبغان بصبغة رسمية ، وإن

---

(١) « الاوبرا » و « الاوبرا كوميك » معتبران أيضا من « المسارح الوطنية » ، ولكن لا يمثل فيها ، بل بهما غناء ورقص .

ممثليها يختارون عادة بين الممتازين من خريجي معهد التمثيل ، وهذا المعهد نفسه منشأة وطنية . ويستثنى في بعض الأحوال من شروط الاختيار ممثلون موهوبون قد برعوا في فنهم وجذبوا الأنظار إليهم واكتسبوا حظاً كبيراً من ذيوع الصيت ، فيرقون ويصبحون موظفين في الكوميدى فرانسيز أو شركاء بها . وقد عومل على هذا النحو الممثل الشهير ريمو الذى كثيراً ما أتيح للجمهور المصرى مشاهدته والاعجاب به في الأفلام الفرنسية التى عرضت في مصر . والواقع أنه ضم إلى الكوميدى فرانسيز في عهد الاحتلال ، ولم يمثل إلا في رواية « البورجوازى النسيب »(١) الكوميديا الشهيرة التى ألفها موليير ، وكان هـذا من ثلاث سنوات . ولم يظهر بعد ذلك على مسرح الكوميدى فرانسيز منذ ذلك التاريخ .

ولهذين المسرحين بطبيعة الحال برنامج محدد ، يتراوح بين الروايات الكلاسيكية والروايات الحديثة . وهذه الروايات الأخيرة تخضع في اختيارها لكثير من الاعتدال ومن التدقيق ؛ لان هذا المسرح قد جرى على الاحتفاظ بمستوى تمثيلى ممتاز يحرص الفرنسيون على استبقائه حرصاً شديداً . فليس من السهل دائماً الاستقرار على قيمة مؤلف مسرحى معاصر ، أو تقرير أن آثاره التى يعلن عنها إلى جانب آثار راسين أو موسيه ، مصيرها البقاء ، وسيعتبر مرحلة ممتازة في التاريخ المجيد للمسرح الفرنسى فيحتل مكانه في هذا اللون من ألوان الأدب . على أن الاختيار لا يصيبه التوفيق دائماً . مثال ذلك أن الكوميدى فرانسيز كانت منذ عهد قريب تمثل للمرة الثامنة والعشرين منذ سنة ١٩٣٩ رواية من تأليف مسيو بول راينال عنوانها « تعذب في عهد بونس بيلات » ، أقل ما يقال عنها أنه مشكوك في قيمة موضوعها (وهو يرمى إلى رد اعتبار يهوذا بطريقة ماهرة على هامش الانجيل) وفى صفاتها الادبية بل المسرحية ! ومسرح الأوديون من ناحيته عرض تمثيلية عنوانها « أسطورة معاصرة في ثلاثة عهود : طولون » تأليف مسيو جان ريشار بلوك ، وهى تصور إغراق الفرنسيين لأسطولهم في ذلك الميناء سنة ١٩٤٢ . وليس ضعف الرواية مقصوراً على أسلوبها (في الحوار والقطع الطويلة) وعلى تأليفها والحركة فيها ، بل إن الفكرة التى أوحت إلى الكاتب بهذا الموضوع أقرب إلى الدعاية السياسية منها إلى الادب أو الفن . لذلك رأينا ذات مساء بعض الطلبة قد استقر رأيهم على أن يهوشوا على التمثيل حتى تسحب الرواية نهائياً ، لكنهم لم يفلحوا في تحقيق غرضهم ؛ فان جمهوراً كبيراً من النظارة لم يشاركهم في وجهة نظرهم واعترض على ضجيجهم ، لميل هذا الجمهور إلى الخلط بين الوطنية والأدب الرفيع .

ونظراً للظروف التى عرضناها ، والتى يذعن لها كل من الكوميدى فرانسيز والأوديون فانه يندر عرض روايات جديدة في هذين المسرحين . ومع ذلك فقد عرضت بعض الروايات الجديدة في هذه السنوات الأخيرة . ثلاث منها تستحق الذكر ، مثلت في الكوميدى فرانسيز . أولاها « الحذاء الحريرى » تأليف الشاعر الكبير بول كلوديل (وهو اليوم الشاعر الكبير الوحيد بعد وفاة بول فاليرى) . وهى تتطلب إخراجاً خاصاً جداً ، ويمتد تمثيلها لوقت طويل يقرب من خمس ساعات ، لذلك مثلت أثناء الحرب ، ولم يستأنف تمثيلها بعد . ثانيتها « رينو وأرميد » وهى تراجيديا شعرية مستقاة من القرون الوسطى لشاعر آخر معاصر هو جان كوكتو ويظهر أنها لم تنجح نجاحاً كبيراً . ولعل

---

(١) Le Bourgeois Gentilhomme

بعض السبب يرجع إلى شخصية المؤلف الغريبة . وآخر هذه الروايات « انطوان وكليوباترا » تأليف شكسبير ، في الترجمة الرائعة التي قام بها أندريه جيد . وهذه التراجيديا العظيمة التي نقلها الكاتب الفرنسي الشهير إلى الفرنسية في شكل رائع تمثل على وجه التقريب كل أسبوع . والاخراج ، وقد تولاه الممثل جان لوى بارو (وهو من أذكى ممثلي الكوميدى فرانسيز) يمتاز بقوته التي تجعل من حادث بسيط جداً عالماً تغمره الحياة . ومناظر القصة تمثل الاسكندرية في عهد البطالسة ، مما هيأ للرسام جان هوجو (وهو من حفدة الشاعر العظيم) أن يبتدع مناظر خلابة ، وملابس فخمة وأضواء بارعة . ويساهم في عظمة هذه المسرحية إلقاء الممثلين الرائع الاتقان (هذا الالقاء الذى اشتهر في العالم أجمع وكسب الكوميدى فرانسيز هذا الصوت البعيد) . والموسيقى البديعة التي وضعها لهذه الرواية المؤلف الموسيقى المعاصر جاك إيبير .

على أن جميع حفلات الكوميدى فرانسيز ليست مع الأسف بهذا القدر من الامتياز . فهذا المسرح يشكو منذ أن حررت فرنسا أزمة خطيرة جداً لم تعالج بعد ، وقد دفعت الكثيرين إلى الكتابة عنها ، وشغلت الصحافة الباريسية ؛ فان الفرنسيين يعنون بالمسائل المسرحية عناية خاصة مثلهم في ذلك مثل الآثينيين في عصر بريكليس . ومصدر هذه الأزمة أن الموظفين والشركاء في الكوميدى فرانسيز يرون أن مرتباتهم غير كافية ، فيتجهون اتجاهاً متزايداً نحو السينما ذى الأجور المرتفعة ، والذى يجعلهم ، بسبب ذيوعه العجيب يظفرون في يسر بشهرة عظيمة ، لا يصلون إليها إذا اقتصروا على إخلاصهم لذكرى موليير وبيته . ومما لا ريب فيه أن أسماء مثل تالما وراشيل وموينه سولى وساره برنار لم تذع في العالم كله لأن أصحابها كانوا ذوى موهبة نادرة فحسب ، بل لأن الفلم لم يكن وصل بعد إلى الخفض من مستوى الفن وإلى قلب بعض القيم التي كان يظن أنها استقرت استقراراً نهائياً . فليس من الميسور لأى شخص أن يشاهد في الكوميدى فرانسيز مسرحية لكورنى أو راسين ، وعلى العكس من ذلك في وسع جميع الناس أن يشاهدوا بت ديفيز أو كلارك جابل ، ومع ذلك فمن الخير من الناحية الثقافية بل من ناحية المتعة الفنية ، مشاهدة النوع الأول دون الثانى .

هذا هو السبب الذى من أجله يستقيل بعض الممثلين والممثلات استقالة نهائية ، على حين لا يذعن غيرهم لأنظمة هذا المسرح ، أو لا يحفظون الأدوار التي يعهد بها إليهم إلا حفظاً سطحياً لا يتكلفون فيه أية عناية ، أو يخلقون على المسرح شخصيات رديئة ؛ فقد فقدوا الاقتناع والإيمان اللازمين لنجاح الرواية . وأضرب مثلا لذلك : فبمناسبة مرور ثلاثمائة وأربع وعشرين سنة على تاريخ ميلاد موليير مثلت الكوميدى فرانسيز رواية « عدو الانسان »(1) وكانت طريقة تمثيل هذا الأثر الفنى الرائع مخيبة للآمال ، لم تتفق إطلاقاً والتقاليد المجيدة لهذا المسرح الذى كان يعتبر إلى عهد قريب أعظم مسرح على الأرض وأشهره .

٢ — أما وقد ألممنا بالمسارح الوطنية فسننتقل إلى غيرها ، ويبلغ عددها نحو ثمانية وأربعين ! وهى التي يطلق عليها إجمالا اسم « مسارح البولفار » مع ملاحظة أنها تسمية خاطئة ؛ إذ أن عدداً كبيراً منها بعيد عن البولفار ، بل إن بعضها قائم على الضفة الأخرى للسين . أما الروايات التي تمثل أثناء هذا الموسم فتقتصر عادة على رواية واحدة في كل مسرح تبدأ في

(1) Le Misanthrope ، مثلت مساء يوم الثلاثاء ١٥ يناير ١٩٤٦ .

شهر نوفبر أو ديسمبر ، ويواصل تمثيلها حتى نهاية الربيع أو حلول الصيف . ولا تضطر الادارة إلى تغيير برنامجها إلا إذا كانت الرواية لا تجذب جمهوراً كافياً ، وهذا لا يحدث الآن فى أى مسرح للأسباب التى سنوردها فى نهاية هذا الحديث . وللتمييز بين الروايات سنعرض تباعاً المسرحيات المستعادة ، ثم المؤلفات المترجمة أو المقتبسة من الخارج ، فالروايات الحديثة التى وضعها كتاب ذوو قيمة (وهم فى معظم الأحوال فلاسفة أو شعراء ، وقلما يكونون روائيين حقيقيين) وهى لذلك مقصورة على نخبة ممتازة من الجمهور ، وأخيراً الروايات التى توضع وتمثل للترفيه عن جمهور كبير جداً ، والتى لا يقصد منها إلا قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت .

أولا — الروايات المستعادة :

ولنفرق بادئ الأمر بين ما يستفاد من الروايات الكلاسكية وما يستفاد ومن الروايات التى وضعت قبل هذه الحرب أو منذ نحو ثلاثين عاماً .

فى الحى اللاتينى مسرح ضئيل اسمه النوكتامبول على مسافة خطوتين من السوربون الوقور ، فرقة محببة من الشباب المتحمسين . وهى تمثل منذ بضعة أسابيع رواية «المضيف » تأليف موليير ، وتلتزم فى تمثيلها أمانة تامة لهذه الرواية الخالدة ، وترمى بصفة خاصة فى إخراجها ومناظرها وملابسها إلى الرفع من شعر المؤلف وإظهار قيمته ، على حين تقوم فى مسرح مونتبارناس الذى يديره جاستون باتى الممثلة المغرورة « مارجريت جاموا » بتمثيل أبدع دور فى مسرحية « لورينز انشيو » تأليف الفريد دى موسيه على أسوأ الوجوه . وتصور مسيو باتى للفن المسرحى يختلف كل الاختلاف عن تصور الممثلين الشبان فى النوكتامبول فانه يضحى بالحوار فى سبيل إخراج ممتاز بلا شك ، ولكنه أقل امتيازاً من نثر الشاعر الرومانتيكى العظيم ومن آرائه الفلسفية .

وهذه الاستعادات من المسرحيات الكلاسيكية كثيراً ما يريد بها أصحاب المسارح الصغيرة أن يثبتوا أن فى وسعهم إجادة تمثيلها على نحو يضارع تمثيل الكوميدى فرانسيز أو الأوديون ، إن لم يتفوق عليه . (وهذا صحيح أحياناً ، وكان صحيحاً على كل حال فيما يتصل بممثلة عبقرية هى ساره برنار) . كما تستعاد ايضاً مسرحيات معاصرة ثبت نجاحها . فيمثل مسرح هيبيرتو رواية « الديوث العظيم » ، وهى دعابة مضحكة لا تخلو مع ذلك من عمق بسيكولوجى ، وضعها الكاتب البلجيكى فرنان كروملينك بعد الحرب العالمية الأولى بمدة وجيزة ، وهى بعض قصة زوج تأكله الغيرة إلى حد أن يلزم زوجته بخيانته حتى يصل بذلك إلى يقين يرجو أن يكون أشد إراحة له من الشك وما فيه من كرب أليم ، ولكن بعد أن يصل عن طريق ما بذل من جهد شنيع إلى هذا العمل الجنونى العجيب ، يجد نفسه أعظم بؤساً مما كان قبلا .

وقد استعيد فى الجمناز (وهذا فعلا من مسارح البولفار) رواية « الآباء المزعجون » تأليف جان كوكتو . وهذه التراجيديا الحديثة القوية كانت قد أخرجت مدة وجيزة قبل الحرب ، وسريعاً ما وقفت إزاء السخط الذى أثارته ، لانه رئى أنها مخالفة للخلق مخالفة فاضحة . وموضوعها أن أماً بها بعض الشذوذ تحب ابنها إلى حد لا تطيق وجود امرأة معه ، وحين تعلم بوجود خليلة له تنتحر . واليوم ، وقد قضت فرنسا خمس سنوات بين حرب واحتلال وبعد أن مرت بجميع ألوان الاضطراب المادى والمعنوى ، يقبل الفرنسيون على

هذه القصة . ونستطيع عن طريق هذه الاستجابة الجديدة الصادرة عن جمهور جديد أيضاً أن نقيس للمسافة التي تفصل عقلية فرنسي سنة ١٩٣٨ عن تلك التي ظهروا بها سنة ١٩٤٦ .

ثانيا — الروايات المترجمة أو المقتبسة من الخارج :

بعد أن حررت باريس مباشرة ، أي في نهاية صيف سنة ١٩٤٤ ، أسرع رجال المسرح إلى إخراج روايات كان يستحيل عليهم تمثيلها أثناء وجود الألمان ، أي روايات المسرح الانجليزي والأمريكي ولا سيما الروسي ، وبصفة أخص الروايات التي تكون من وضع كاتب إسرائيلي أو أسباني جمهوري ، أو أي كاتب آخر عرف بمناهضته للفاشية . وإذ تحت فرنسا هذا النحو أرادت في الوقت نفسه أن تشكر محرريها وأن تكرم الأدب المسرحي الأجنبي . لذلك رأينا ، وفي بعض الأحوال لا نزال نرى ، رواية « مقتل في الكاتدرائية » من تأليف ت.س. اليوت تمثل في الفيوكولومبيه و « مرتفعات ويذرنج » المقتبسة من رواية إميلي برونتي ، و « تحول خطر » تأليف ج . ب . بريستلي في مسرح لوفر . وتخرج بعض المسارح من وقت لآخر مسرحيات قصيرة للكاتب الروسي أنطون تشيكوف ، منها « الدب » و « مساوئ التبغ » و « عيد ميلاد المؤسسة » .

على أن التمثيليات الأسبانية هي التي تلقى أشد الرواج ، سواء في ذلك رواياتها الموضوعة في القرن السادس عشر (« السلستين » التي تمثل في مسرح البالاس) والأحدث منها (« ألفاظ إلهية » وتمثل في مسرح الماتوران) وهاتان الروايتان للشاعر المعاصر فيديريكو جارسيا لوركا الذي قتله أنصار فرانكو رمياً بالرصاص سنة ١٩٣٦ ، وهما « بيت برنادا » وتمثل في ستوديو الشانزيليزيه و « ماريانا بينيدا » في مسرح روشفور . وأولاهما دراما عنيفة تصور لنا « برنادا » وهي امرأة عجوز مستبدة ، فقدت زوجها ، فتتولى على أثر ذلك شئون منزلها وبناتها الخمس وخادمتها . والوقائع كلها تحدث في هذه الغرف أو في صحن الدار ، التي يسحقها الغيظ والصمت ، وبين هؤلاء النساء الثمان ، دون أن يظهر رجل أثناء الفصول الثلاثة ، وكبرى بناتها على وشك الزواج ، وهي قبيحة المنظر ، ولكن دافع المال قائم . وإحدى أخواتها تبادل خطيبها الحب ، فتحاول « برنادا » الطاغية أن تحبس ابنتها ، فتخنق هذه الأخيرة نفسها . وسيتخذ المنزل الحداد لمدة ثمانية أعوام . والقصة كلها مركزة في الجو المتوتر الذي يغمر هذا المسكن الضال في قرية صغيرة من قرى أسبانيا حيث لا تزال بعض التقاليد العائلية القديمة جداً قائمة .

ثالثاً — التمثيليات الجدية :

والواقع ان التمثيليات التي تكسب خطورتها من موضوعها أو قيمتها الأدبية ، قليلة الآن في باريس . ولعل تفسير ذلك أنه على أثر هذه السنوات القاتمة يشعر الناس بالحاجة إلى الاسترسال والضحك . نعم إن رواية « أنتيجون » التي كتبها أنوى استمر تمثيلها أكثر من سنة (وقد مثلت حديثاً في القاهرة) ، هذا على الرغم من أنها ليست في مستوى رواية كوكتو ، بل لا تقاس من بعيد إلى ذلك الأثر الرائع الخالد الذي وضعه سوفوكل . ولكن عرض هذه الرواية يرجع إلى أسباب سياسية وعاطفية أكثر مما يرجع إلى أسباب فنية بحتة ؛ فقد رأى الباريسيون أن النزاع الذي يقع بين الطاغية كريون وأنتيجون الحرة ، يذكر

بذلك الذى يقع بين النازية والديمقراطية ، وبين الطغاة والمضطهدين ، وهذا ما دفعهم إلى أن يتيحوا للرواية مثل هذا النجاح .

بقيت رواية « كاليجولا » للكاتب ألبير كامو وقد اتخذ الكاتب حجة من الجنون الذى يذكره التاريخ عن الامبراطور الرومانى ، لحاول أن يبين ما يصل إليه رجل يريد أن يكون حراً حرية مطلقة ، أو بالضبط يريد أن يحرر نفسه من كل شيء . فهو يبدأ بتكديس السخافات ، ثم بتكديس الجرائم ، ولا يشعر بالخلاص حقاً إلا حين يموت . وهى دراما متينة الكتابة قوية التركيب ، ولكن موضوعها ليس جديداً . وحسبنا من ذلك أن نقرأ رواية إيسكولوس المسماة « بروثيوس مغلولا » . وهذه الرواية التى تشبه التراجيديا دون أن تخلص لها قد غلب عليها التفكير البحت ؛ فهى من أجل ذلك لا تلق إلا نجاحاً ضعيفاً .

وليس فى هذا الموسم المسرحى إلا حدث تمثيلى واحد خطير ، وهو عرض آخر قصة تركها جان جيرودو . وقد أخرجها كريستيان بيرار إخراجاً رائعاً ، وقدمها الممثل المخرج المدير الشهير لوى جوڤيه . وهذه القصة وعنوانها « مجنونة شايو » تجذب إليها عدداً عظيما من النظارة بحيث يصعب جداً مشاهدتها فى الوقت الحاضر ، إن لم يكن ذلك من المستحيل . ولما كان جيرودو أبرع المؤلفين فى المسرح الفرنسى للمدة التى وقعت بين الحربين ، فقد اتخذه المتكلفون وسيلة من وسائل الغرور ، وأصبح حديث الصالونات الباريسية مقصوراً على هذا الكاتب .

رابعاً — التمثيليات الخفيفة :

أما الكوميديا والفودڤيل والمناظر الاستعراضية ، فحسبنا أن نمر بها مراً سريعاً . وهى مناظر جيدة التأليف والعرض فى كثير من الأحوال ، وتسمح بقضاء بضع ساعات مرضية جداً فى المساء أو بعد ظهر أيام الآحاد . وهى من أسهل الأنواع التى تعرض على المسارح ، لذلك تجذب إليها أكبر الجماهير . ويكفى أن نذكر لذلك مثلا واحداً ، ففى مسرح الپاليه رويال مثلت رواية « مومو » أكثر من ثمانمائة مرة

وإذا أردنا أن نستخرج خلاصة لكل هذا ، فينبغى أيضاً أن نتحدث فى تفصيل عن شخصية الممثلين ، ومقدار اشتهارهم ، وأوجه نشاط المديرين والمديرات (فكثير من المسارح الباريسية يديرها نساء) ، وأخيراً عن النقاد المسرحيين الذين يكتبون عن تلك الروايات كل يوم فى جميع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية وغيرها . ونظراً إلى أن صحف العاصمة لم يبلغ عددها فى يوم من الأيام ما بلغه فى الوقت الحاضر ، فإن فى هذا مجهوداً جبارا يقتضى ساعات عدة من القراءة وجمع المذكرات ، فضلا عن أنه لا داعى إليه لأسباب : منها ، أولا أن من الخير أن يذهب الانسان ، كلما استطاع ذلك ، فيشاهد بنفسه جميع الروايات المهمة . ثانياً : أن معظم هؤلاء الصحفيين ليسوا أهل خبرة ، بل هم قليلو الدراية بشؤون المسرح مع استثناء مسيو روبير كمب محرر جريدة « لى موند » ؛ فمقالاته كلها تنم عن ذكاء عميق وثقافة واسعة جداً ، وهو فى الوقت الحاضر بمثابة فرانسيسك سارسيه أو جول ليميتر فى عصرهما .

ولكن إذا كانت دراسة الممثلين والمديرين والنقاد المسرحيين تدفع بنا بعيداً جداً ، فإن أقصر طريق وأضمنه لتكون لأنفسنا فكرة دقيقة عن موسم سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ وعن العقلية

الجديدة التى تغمر المسرح سواء فيما يتعلق بالممثلين أم بالنظارة ، هو أن نفحص بعض الشيء الجمهور الحالى وندرس انفعالاته . نلاحظ أولا أن المسارح فى باريس لم تلق يوماً مثل الاقبال الذى تلقاه الآن ، وذلك على الرغم من الحفلات الموسيقية العديدة ، بل على الرغم من العدد الكبير لصالات السينما فى العاصمة . والحصول على تذكرة فى المسرح يعتبر فى الوقت الحاضر من المشكلات ، إذ ينبغى أن تتخذ العدة لذلك قبل شهود التمثيل بأيام ، ثم يجب انتظار الدور أثناء ساعات أمام شباك التذاكر . « فالعدد كامل » كل مساء . هذا فضلا عن أن ثمن التذاكر مرتفع جداً ، فلا يمكن الحصول على فوتيل أوركستر جيد بأقل من مائة وخمسين فرنكا . وأى فوتيل حقير يتراوح ثمنه بين ستين وثمانين فرنكا . وهذا الاقبال العجيب على المسرح يرجع إلى ثلاثة أسباب على الأقل :

الأول ، سبب عام يقوم فى جميع الأوقات وبالقياس إلى جميع البلاد ، ذلك أن المسرح قد اتخذ مركزا وسطاً بين أرفع أسباب الترفيه مثل الموسيقى أو معارض الرسم والتصوير أو المحاضرات الأدبية والعلمية ، وبين أنواع التسلية المبتذلة مثل السرك والاستعراضات الشعبية وصالات الرقص ، وبصفة خاصة السينما منذ أكثر من ربع قرن . فهو لذلك يرضى حاجة عدد كبير من الناس المنتمين إما إلى صفوة مثقفة قوامها الأرستقراطية والبروجوازية الكبيرة أو جمهور متوسط من البورجوازية الصغيرة أو من أبناء الشعب الذين يرتقون شيئاً فشيئا عن مستواهم الاجتماعى .

والسبب الثانى لهذا النجاح العظيم الذى تلقاه المسارح الباريسية يرجع إلى الظروف الخاصة التى مرت بها فرنسا . فعلى أثر خمس سنوات طوال ملأى بالآلام وبمختلف ألوان الحرمان والدموع والدماء ، والهدم والحداد ، يشعر الشعب بحاجة ملحة إلى الترفيه عن نفسه وإلى التسلى والنسيان . وهذا شعور طبيعى ومشروع .

والسبب الثالث الذى يدفع هذا العدد العظيم من النظارة يرجع أيضاً إلى الحرب . فبفضل هذه الحرب أثرى كثير من الناس عن طريق التجارة والسوق السوداء وعمليات مالية منوعة . فبين أفراد الجمهور الباريسى فى الوقت الحاضر عدد كبير من المحدثين ومن أثرياء الحرب .

الآن وقد استعرضنا الأسباب التى تفسر ازدحام المسارح بالنظارة ، بقى علينا أن ندرس النتائج التى تنشأ عن ذلك فيما يتعلق بتطور الذوق ، وأن نبحث عن تعليل ما يلاحظ من اتجاه نحو السهولة والابتذال فى موسم مثل هذا الذى نتحدث عنه .

وبديهى أن أية أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لها تأثيرها فى ميادين الخلق والفنون والآداب . فما دامت أمام فرنسا مشكلات تحتاج إلى الحل وتتصل بنظامها السياسى وهيئتها الاجتماعية وتجارتها ، فإن المسرح سيتأثر حتما بهذه الظروف .

ثم إن من الطبيعى أن يؤثر ذوق الجمهور فى المؤلفين والمديرين والممثلين . فهواة التمثيل المحدثون الذين أشرنا إليهم يدفعهم إلى هواياتهم ميلهم إلى الظهور وقدرتهم على الانفاق . فاذا ما ذهبوا كل مساء تقريباً إلى المسرح واتخذوا لأنفسهم أغلى الأماكن ، استطاعوا أن يظهروا مبلغ ثروتهم ومركزهم الاجتماعى . وعلى ذلك فلا يهم ما يجرى على المسرح ، ولهم أن يحدثوا ضوضاء ، وأن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ويفركوا الورق الشفاف الذى تلف به علب الحلوى . وما داموا قد أنفقوا من أموالهم فإن لهم جميع الحقوق .

لذلك يلاحظ (وهذا ما يدعو إلى الأسف) أن المؤلفين والمخرجين والممثلين ينزلون إلى مستوى هؤلاء النظارة الذين أوجدتهم الحرب ، والذين لا حظ لهم من ثقافة فيقنعون بالقليل .
وهذه العوامل الاقتصادية تنتقل انتقـالا متزايداً من الجمهور إلى رجال المسرح . فان المسرحيات الجيدة النادرة التي لا تهم إلا عدداً قليلا من النظارة الممتازين ، لا تسمح للمديرين الذين تولوا إخراجها ولا للممثلين الذين قاموا بتمثيلها بتغطية نفقاتهم ، فضـلا عن الحصول على أرباح . وأوضح نتيجة لهذه الحالة أن مثل هذه الحاجة التي ترضى في يسر تستتبع حتما فقداناً تاماً لروح النقد ، وانحطاطاً للذوق في إصدار الأحكام ، ويشمل هذا جميع الناس . فليس أقدر على العدوى من التصفيق . ونرى الآن إسرافاً عجيبا فيما يقدم من مدح وثناء لمسرحيات لا قيمة لها ولممثلين رديئين .

وهناك أمر آخر يدعو إلى الأسف . فأمام الموقف السلبي القانع الذي يتخذه الجمهور وأمام جوده الراضي لا يشـعر الممثل بالدافع الخـلق الذي يحتم عليه إجادة التمثيل ولا تعدو مهنته أن تكون مصـدراً من مصادر كسب العيش . وهذا هو الخطر الجدي الذي يهـدد المسرح في فرنسا ؛ فان هذا المسرح عرضة للتحول إلى مشروع اقتصادي واسع ، إلى اتجار بالفـكر ، إلى مساومة محزنة للآداب والفنون .

ولا نريد أن نختتم هـذه الالمامة بهذه النظرة القاتمة ؛ ففي باريس التي لا تزال تثقلها أعباء الحرب ، تأثر بعض المفكرين النابهين من هذا الانخفاض المعنوي من مستوى المسارح هذا العام ، وبادروا ببذل ما في وسعهم من قوى ليعيدوا تنظيم المسرح الفرنسي ويرفعوه إلى المستوى الذي طالما اشتهر به حتى الآن . فالمؤلفون موجودون وكثيرون . وحسبنا أن نذكر أسماء جان كوكتو ، وجان أنوى ، والبير كامو ، وجان بول سارتر ، بل فرانسوا موررياك نفسه الخ . . . أما الممثلون فعددهم لا يحصى . وإذا نقصتهم العبقرية فان لديهم على الأقل كثيراً من الخبرة والمرانة ، ولدى الشباب منهم كثير من الموهبة والحماسة . وهناك كثير من الممثلين قد اتفق على قيمتهم ، نذكر منهم بين النساء وبترتيب السن : مارجريت مورينو ، ومارسيل جينيا ، وجيرمين ديرموز ، وجابي مورلاى ، ومادلين رينو وماري بل . أما الرجال فمنهم : ريمو ، ولوي جوفيه . وبيير بلانشار ، وبيير دوكس ، وكلود دوفان ، وبيير براسور ، وريمون رولو . ومن بين الممثلين الذين ظهروا اثناء الحرب أهم من نذكر : ماريا كازاريس ، وجان دافي ، وبصفة خاصة جان لوي بارو ، ولم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٣٩ ، فقـد جمع بين مواهب ممتازة باعتباره ممثلا ، وصفات نادرة باعتباره مخرجاً ومديراً مسرحياً . وكما أن جوفيه قد بسط نفوذه على المسرح الفرنسي في المـدة التي فصلت بين الحربين ، فيرجى أن يقوم الآن جان لوي بارو بعمل جديد عظيم رائع .

وأخيراً فان الفنيين أنفسهم كثيرون ، سواء منهم المخرجون والمديرون ، والمشرفون على الاضاءة والمناظر والملابس والماكياج الخ . . . وحسبنا أن نذكر اسم جان هوجو ، ذى المواهب الرائعة الفريدة والذي تعتبر تصميماته ورسومه للملابس من آيات الذوق والفن .
فاذا ما تجمعت هذه المواهب المختلفة وأضيف إليها حسن الاستعداد والشعور بالواجب الذي ينبغي على السلف أن يزودوا به الخلف ، فشرارة واحدة تكفي لتلتهب هذه المواهب وتضيء المسرح الباريسي بسطوع لا يضارع . وحين يشتعل هذا اللهب الذي سيجذب إليه

هواة التمثيل الأصليين ، والذى سيشارك فى أن يعود إلى باريس اسم « مدينة النور » ، سيكون ذلك إيذاناً بأن العاصمة قد استردت أثمن الأشياء فى الأرض ؛ لأن أصعب الأشياء إرضاء هو الذوق .

باريس — فبراير سنة ١٩٤٦ — مؤنس طه حسين

شهرية السينما

لعبة الست (شركة أفلام الشرق الأوسط)

يعرض الآن فى سينما ستوديو مصر شريط « لعبة الست » من تمثيل الأستاذ نجيب الريحانى والراقصة تحية كاريوكا . والأستاذ نجيب قد آثر فى المدة الأخيرة المسرح على السينما وحرم جمهوره من تمثيله السينمائى . ولا ندرى ما سبب هذا الإيثار مع أن شريطيه السابقين ظفرا بنجاح كبير .

وقصة « لعبة الست » قصة ظريفة تكثر فيها الفكاهة والنكت التى اعتدناها فى تمثيليات الريحانى وبديع خيرى . يبدأ الفيلم فى قاعة محاضرات فى مدينة القاهرة حيث يدخل حسن أبو طبق مصادفة . وكان هناك شاب يلقى محاضرة عن السعادة وكيف يمكن أن يحظى بها المرء بالوفاء والاخلاص والاستقامة لا بالمال . ولم يرق هذا الحديث صاحبنا المتعطل ، فحاول أن يناقش المحاضر ، ولكن المستمعين يضطرونه إلى الخروج من القاعة ، فيخرج . وبينما هو سائر ، إذ تقع حادثة من سيارة كاد يذهب ضحيتها شيخ مسن ، فيساعده حسن على النهوض ، ويقوده إلى الرصيف . وبعد انصراف الشيخ ، يسترعى نظر هذا المتعطل قطعة نقود ذات الخمسة قروش ، فيلتقطها مبتهجاً . ولكنه سرعان ما يلحظ أنها مزيفة ، ومع ذلك احتفظ بها . فتجلب له الحظ ، إذ يجد وظيفة بائع فى محلات إيزاك عنبر ، وفى هذه الليلة يجد له أيضاً مأوى هو عبارة عن حجرة حقيرة على سطح منزل قديم . وبينما هو يعد حجرته ، إذ تدخل عليه « لعبة » ، وهى فتاة هربت من منزل أبيها فى يوم زفافها ، لأن خطيبها محمود بلاليكا لا يروقها . فيخفيها حسن فى حجرته حينما يحضر الخطيب باحثاً عنها ، وتحدث بعد ذلك غارة جوية ، تقرب بين الشابين الفتى والفتاة ، وتضطر لعبة أن تقضى ليلتها فى حجرة حسن ، بينما ينفق حسن ليلته على سطح الدار . ثم تمضى الأيام فيواتى فيها الحظ حسناً ولعبة . فهو ينال مركزاً محترماً فى عمله ، بينما تصبح هى نجمة سينمائية ذات صيت بعيد ، فيتزوجان ويعيشان عيشة هنيئة لا يعكر صفوها إلا عمل لعبة فى الاستوديو وغيرة زوجها حسن أبو طبق . وفى ذات يوم سافرت لعبة مع أسرتها إلى لبنان لأخذ المناظر الخارجية للفيلم ، وأخذت ترسل كل يوم رسالة إلى زوجها ، ثم انقطعت رسائلها عنه ، وعاش حسن فى جو قلق حزين . ذلك أن لعبة التقت فى لبنان بثرى لبنانى — وجيه بك — عرض عليها الزواج ، وقد أفهم أنها غير متزوجة ، ويقضيان معاً فى

ربوع لبنان ، وقتاً سعيداً . ثم تعود لبنة ، وقد أصبح اسمها فاتنتسا ، إلى القاهرة وتلبيء روحها حسن بأنها لا يطيب لها العيش معه ، وتطالب أن يطلقها . ولكنه يأبى لكي ينتقم منها لخيانتها وغدرها ، ولأنه كان يحبها حب هيام ، ويعتقد أنها تبادله حباً بحب ، وأن إعراضها عنه لم يكن إلا لارغام والديها لها أن تسلك هذا السبيل لكي يتسنى لها أن تتزوج من وجيه بك الثرى اللبناني . وأخيراً يضطره إعراضها الشديد عنه أن يطلقها ، ويحدث أن يشترى حسن المحل الذى يعمل به من صاحبه فى الحرب ، أيام هجوم الألمان على العلمين ، وأن يعلم وجيه بأن محبوبته فاتنتسا متزوجة ، وقد تركت زوجها من أجله ، فيأبى أن يكون سبباً فى هدم سعادة الزوجين ، فتعود لبنة إلى حسن تطلب إليه المغفرة مؤكدة له حبها وإخلاصها .

والقصة متقنة تمام الاتقان ، وإن كان ثمة مجال للنقد فى بعض نواحيها ، فكان يجب مثلا أن يكون مغزى القصة مستوراً يستنبط من الحوادث نفسها . ولم يكن ثمة من حاجة إلى أن يلتجيء المؤلفان إلى بيان المغزى وإلقاء موعظة على النظارة فى الأخلاق .

والممثلون جميعاً أهل للثناء عليهم فى أداء أدوارهم . فالأستاذ نجيب الريحانى من الممثلين القليلين فى مصر الذين يتقنون فن التمثيل ، بل ربما كان الممثل الوحيد الذى يتقن الفن إتقاناً لا يشاركه فيه غيره . وقد أثبت مراراً فى مسرحياته وأفلامه مقدرته الفنية الفائقة . وهو علاوة على إتقانه للكوميديا ، ممثل قدير فى الدراما . والفيلم بالرغم من صبغته المرحة لا يخلو من مواقف مثيرة . وفى هذه المواقف تجلى فن الأستاذ الريحانى الرفيع . وإذا كان المسرح فى مصر آخذاً فى النهوض ، فأعظم الفضل فى ذلك للأستاذ نجيب الريحانى ومجهوداته الجبارة .

أما الآنسة تحية كاريوكا فهى بلا ريب أمهر راقصة فى مصر ، رشاقة وجودة فن . وقد أفعمت الفيلم بهجة ومرحاً بغنائها ورقصها . وقد تأخذها بمحاولتها تقليد الراقصة كارمن ميراندا . فلابتعادها عن فنها الأصيل فى هذا المشهد ، بدت رقصتها فاترة كل الفتور . أما تمثيلها فقد لمسنا فيه شيئاً من الضعف ، يرجع إلى أنها حديثة عهد بالتمثيل .

وأحسن أيضاً الأستاذ عزيز عثمان فى دور خطيب لبنة إذ كان له حظ كبير من الإجادة فى غنائه وتمثيله .

ولن نؤدى إلى الباقين من الممثلين كسليمان نجيب بك وبشارة واكيم وحسن فايق وعبد الفتاح القصرى والسيدة مارى منيب حقهم من الثناء حين نمتدح تمثيلهم الموفق كل التوفيق .

حمى (مينرفا — ر . ك . و) (١)

لم تحرمنا الحرب المسرحيات الفرنسية فحسب بل حرمتنا الأفلام الفرنسية أيضاً ، نعم لقد استمتعنا بفضل « أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر » وأصحاب سينما كورسال ببعض أفلام يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب . ولكن كل هذا لم يكفنا وخاصة بعد أن سمعنا أن الأفلام الفرنسية قد خطت خطوات حسنة ، وأنها من الناحية الفنية تضارع ما تنتجه السينما الأمريكية .

(١) Fièvres *(Minerva — R.K.O.)*

وجاء فيلم «العودة الأبدية» للكاتب جان كوكتو آية فنية رائعة بثت هذا التقدم . وقد تلته أفلام أخرى إن لم تضارعه جمالا وروعة ، فهى على الأقل إنتاج حسن موفق . ومنها نذكر فيلم « حى » الذى عرض فى سينما أوديون .

فى دير من أديار الجنوب فى فرنسا ، قس شاب يمتاز عن زملائه بصوته الجميل . فهو المشرف على الموسيقى والترتيل فى الكنيسة . ولهذا القس مأساة دفعته إلى حياة التقشف والزهد .

كان فى بادىء حياته مغنياً من المشهورين ، له زوج وديعة تحبه حباً جا ، وتسهر على سعادته وراحته . ولكن سرعان ما ظهر فى حياتهما الزوجية ما فرق بينهما وأفسد هناءهما . ففى كل ليلة يغنى فيها فى الأوبرا ، كان يرى فى اللوج الأمامى امرأة جميلة اعتادت أن ترسل له مع الخادم خطابا تضرب له فيه موعدا . أهملت هذه الخطابات فى بادىء الأمر . وفى ذات صباح كان الشاب يسجل اسطوانة فى إحدى الشركات فوجىء بدخول هذه المرأة فى قاعة التسجيل . فقطع غناءه وطلب إليها أن تغادر المكان . ولكنها أبت ، فاضطر هو إلى إرجاء عمله وانصرف بملأه الحنق على هذه المنامرة . غير أن سحر جمالها قد أثر فى نفسه وأخذ بلبه ، فذهب إلى منزلها فى المساء حيث قضى السهرة ، تاركا زوجه يخالجها إحساس خيانته . وتعددت مقابلاته لتلك المغامرة ، وأهمل حياته الزوجية ، ونسى فنه أو كاد ينساه . وفى ذات ليلة أظهرت فيها عشيقته ميلا شديداً لشاب أسبانى كان هو يبغضه اشد البغض ، فعاد إلى منزله مبكراً . فلقى طبيب العائلة مصادفة خارجا من بيته إذ كان يعود زوجته . فأنبأه بأنها مريضة وأنها فى حاجة إلى عناية شديدة وراحة تامة . فيدخل الزوج منزله ويجد زوجته وقد شحب لونها من شدة التعب . فيفرض عليها أن يسافرا معاً . فترفض هى مشعرة إياه بخيانته وغدره . ولكنه يقسم لها أنه قد تاب وأناب ، ويعاهدها على الحب من جديد ، ثم يتفقان على أن يسافرا معاً . وتصادف أن غنى الزوج فى الليلة التالية فى حفلة خيرية ، وترك زوجه فى المنزل تعاني آلام المرض . ولكنها لم تنس أن تستمع إلى زوجها . ويحفزها الشوق ان تذهب إلى الحفلة ، فتذهب . وحينما تصل إلى حجرة زوجها حيث كان يستريح ، تجده بين ذراعى عشيقته . ومن هول الصدمة ، تنصرف عائدة إلى منزلها على قدميها ، وكان المطر يتساقط شديداً . ويعلم الزوج أن امرأته حضرت ، وأنها رأته فى أحضان عشيقته ، فيمتنع أولا عن الغناء من شدة اضطرابه ، ثم يعود فيعلن الجمهور أنه سيغنى أعز أغنية عنده ، إذ أنها مهداة إلى زوجته المحبوبة . وفى هذه اللحظة كانت الزوج قد وصلت إلى منزلها مبللة الملابس فارتمت على سريرها صريعة المرض . ولما سمعت هذا الاعلان من المذياع نسيت خيانة الزوج وغفرت له . وبينما هى تستمع إلى تلك الأغنية التى تذكرها بحبهما فى أول عهده تلفظ النفس الأخير .

وأمام هذه المحنة ، يعتزل الزوج المسرح ، ويهجر باريس إلى قرية صغيرة على شاطىء البحر فى جنوب فرنسا . وهناك يعيش سنتين مع صياد ارتبط معه بصداقة متينة . وكان هذا الصياد يهيم بفتاة من القرية ، ويريد الزواج منها . ولكنها كانت لعوباً مستهترة . فتتسبب فى شجار بينهما ينتهى بجرح الصياد جرحاً خطيراً . وقد أثر هذا الحادث تأثيراً بليغاً فى نفس صاحبنا ، فدفعه إلى أن يقصد الدير المجاور للقرية ليقضى فيه بقية حياته .

وكان إخراج الفيلم جد دقيقاً . فالمناظر تامة لا ينقصها شىء من التفاصيل التى تخلق جو الرواية وبيئتها . والصور جميلة تدل على فن مترف ، وذوق سليم .

وقد مثل مسيو تينو روسى شخصية هذا المغنى الشاب الذى وقع فى شراك امرأة شريرة، مهملا زوجته حتى تسبب فى وفاتها، ثم ذهب إلى الدير ليجد راحة الضمير ويكفر عن ذنوبه. وشتان بين الشخصية التى رسمها مؤلف القصة، والشخصية التى ساقها إلينا هذا الممثل الضئيل المواهب. كان فاتراً فى تمثيله لا يدرى ماذا يصنع بيديه، ولا كيف يعبر عن شعوره بإيماءات أو نظرات أو ابتسامات هى الدليل على الالمام بالفن المسرحى وعلى القدرة الفنية. وكانت تمثل إلى جانب مسيو تينو روسى مدام مدلين سولونى التى رآها الجمهور المصرى فى رواية « العودة الأبدية » وأعجب بها وقدر فنها الرفيع. وبالرغم من أن دورها لم يطل فقد ملأت الفيلم بشخصيتها، وأخذت على عاتقها النهوض بالرواية حتى تنقذها من إخفاق محتوم كان سيؤدى إليه تمثيل زملائها، إذ أن مسيو تينو روسى لم يكن الوحيد الذى أخفق فى تمثيله، بل شاركته فى هذا الاخفاق مدام جاكلين ديلوباك، وكان عليها أن تمثل شخصية امرأة مستهترة، أرادت أن تتخذ من أحد المغنين المشهورين عشيقاً لها، لا بدافع الحب، بل لمجرد إشباع رغبتها. وثمة برود فى تمثيلها، يتنافى مع الدور الذى قامت به. لم تكن مغرية كما يجب، ولا لعوباً كما ينبغى. وكانت المشاهد الغرامية التى دارت بينها وبين تينو روسى خالية من الحرارة التى كانت تتوافر لو أن الممثلين كانا أقدر فناً وأحسن تمثيلا. وكانت مدام جينيت لكلير تمثل دور هذه الفتاة اللعوب التى حاولت أن تستأثر بصديق خطيبها فبثت بين الرجلين الشقاق الذى أدى بهما إلى مشاجرة دامية. كانت حقاً موفقة كل التوفيق فى تمثيلها. وشتان بينها وبين مدام ديلوباك، مع أن الدورين اللذين مثلتاهما متشابهين كل الشبه.

ولولا الموسيقى والأغانى التى كانت تتخلل حوادث الرواية لما احتل هذا الفيلم دار السينما ثلاثة أسابيع متتالية. ونذكر من المقطوعات الموسيقية قطعتين إحداهما Ave Maria للموسيقى Schubert والأخرى من أوبرا Don Juan من وضع Mozart.

مأساة الوادى (مترو جلدوين ماير) (١)

من الأشرطة الأمريكية الجيدة التى قدمتها إلينا شركة مترو جلدوين ماير فى هذا الموسم نذكر فيلم « مأساة الوادى » الذى مثله جريجورى بيك وجرير جارسون. ويتوافر فى هذا الشريط روعة القصة، وحسن الاخراج، وجمال التمثيل، وقد استحقت جرير جارسون لدورها فى هذا الفيلم الجائزة الأولى للتمثيل فى أمريكا عن عام ١٩٤٥.

تقع حوادث القصة عام ١٨٧٥ فى بيتسبرج، المدينة الصناعية، حيث تعيش أسرة بات رافرتى العامل فى مصنع الفولاذ الذى تملكه أسرة سكوت. وكان بات بسبب حادث أقعده، يحقد على أصحاب المصنع الرأسماليين، ويبث بين العمال آراءه الاشتراكية حتى نجح فى حملهم على الاضراب طالبين الاعتراف بنقاباتهم ورفع أجرهم اليومى وتحديد وقت العمل وما شاكل ذلك من المسائل المتصلة التى تفصل دائماً العمال وأصحاب العمل.

وإلى جانب قصة العمال هذه، قصة غرامية أخرى نقية طاهرة كان بطلها مارى ابنة الثائر

(١) The Valley of Decision *(Metro-Goldwyn-Mayer)*

رافرتى ، وبيتر ابن سكوت صاحب المصنع . ومن هنا يظهر لنا ما اعترى هذا الغرام من مصاعب من جانب الاسرتين ، وما لقيه الفتى والفتاة من عذاب فى سبيل هنائهما . فقد أغضب هذا الغرام بات رافرتى الذى كان يحارب أسرة سكوت الرأسمالية ، وساءه أن يرى ابنته تريد الزواج من أحد أفراد هذه الأسرة . كما لم يرق هذا الغرام لمسز سكوت بالرغم من عطفها الشديد على مارى . فأبعدتها مع ابنتها التى سافرت إلى إنجلترا مع زوجها . ولما علم الأب بالغرام الذى كان يربط ابنه وخادمته ، استدعى مارى من إنجلترا واستقبلها كما تستقبل أية سيدة ذات مركز اجتماعى محترم ، وبارك زواجها من ابنه . وحدث هنا أن قامت حركة العمال ، وحاولت مارى أن تهدئ من حدة أبيها ، وتتوسط بين العمال وأصحاب المصنع لانهاء الاضراب . فلم تفلح ، إذ تدخل فى الحركة بعض المشاغبين ومنهم والد مارى فأطلق الرصاص وانتهت المعركة بموت بات رافرتى بعد أن لعن ابنته وذريتها ، وبموت رب أسرة سكوت أيضاً . كان لهذه اللعنات أثر سيء فى نفس مارى . فأبت أن تتزوج من بيتر ، وعاشت منفردة . أما بيتر فقد تزوج فيما بعد من فتاة كانت تريد الزواج منه لا لهيامها به ، بل طمعاً فى ماله . وقد عذبته عذاباً مراً . وبالرغم من كل هذه الحوادث واصلت مسز سكوت العطف على مارى ، وأورثتها نصيبها من أسهم المصنع ، وطلبت إليها أن تحول بين خروج بقية الأسهم من أيدى الأسرة . وفعلا حاول الأخوة سكوت ، بعد وفاة الأم — ما عدا بيتر — أن يبيعوا الأسهم فأقنعت مارى بعضهم بالامتناع ، فامتثلوا لنصحها ، وهكذا أنقذت المصنع وأبقته لبيتر الذى أخذ يديره بعد وفاة أبيه . ودبت الغيرة فى فؤاد زوجة بيتر ، فأهانت مارى فى حضرة زوجها . فاضطر هو أمام تصرفات زوجه وبغضها له أن يطردها ، وواصل الحياة مع محبوبته .

وقيمة القصة فى الصور التى تقدمها إلى النظارة . فهى أولا سجل لآراء بيئتين مختلفتين إحداهما بيئة العمال والأخرى بيئة الرأسماليين أصحاب المصنع ، وما نتج من احتكاك بين أولئك وهؤلاء . هذا إلى جانب الدراسات النفسية التى تملأ الفيلم . فكل شخصية من شخصياته يمثل حالة نفسية بينة ، محللة تحليلا دقيقاً . فهذه تمثل الفتاة فى سن المراهقة ، والعالم الذى تخيلته لتعيش فيه ، عالم كله سعادة وحب وهناء . وهذا مثال الشاب المستقيم الجاد فى عمله ، على حين يمثل الآخر الشاب المستهتر الذى لا يستغنى عن نشوة الخمر ليعيش .

والتصوير فى الفيلم دقيق متقن ، فالمناظر جميلة . فتارة نرى المصنع من فوق هضبة عالية فيبدو دقيقاً كأنه لعبة صغيرة ، وتارة تقترب الصورة فيبدو ضخما هائلا ينبض حياة ونشاطاً . هذا إلى جانب مناظر داخلية متقنة شاركت فى نجاح الفيلم نجاحاً تاماً .

أما التمثيل فيكفى أن نذكر ممثلى الفيلم لنعلم أنه كان فى الغاية من الابداع . ولا داعى للكلام عن فن جرير جارسون فقد تجلى منذ أمد بعيد فى الروايات التى عرضت علينا . أما جريجورى بيك ، فهو ممثل ناشيء وصل سريعاً إلى مرتبة الكواكب بتمثيله البسيط البعيد عن أى تكلف أو تصنع . وهو من الممثلين الأمريكيين القليلين الذين لا يستندون إلى وسامة الطلعة ، وأناقة الملبس لينالوا شهرة لا يستحقونها . وإنما اعتمد على التمثيل البارع ، والفن الرفيع .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

النقد فى كتاب الموازنة

يعد كتاب الموازنة من أهم كتب النقد العربى ؛ لأن الصفة الغالبة عليه صفة المقارنة والتقدير ، لذا رأيت أن أكتب عن النقد فيه .

وسأبدأ بالكتابة عن شروط المتعرض للنقد عند الآمدى صاحب الكتاب ، ثم عن طريقته هو فى النقد ، وأخيراً عن قواعد النقد فى كتابه . وأنا فى كل ما سأكتبه بين مؤيد أو مفسر أو مخالف .

شروط المتعرض للنقد

الفطرة والطبع — فلا بد أولا من الطبع والقريحة ؛ فكل إنسان مستعد لجنس من العلوم ومن يصلح لهذا قد يفسد لذاك . ومعنى هذا أن الانسان يولد ومعه استعداده وعليه هو أن يتعرفه أو يتبينه أو يترك لغيره ذلك . المهم ألا يخاطر بنفسه فيما لا يوائم ملكاته أو يزج بنفسه فيما لايناسب قواه ؛ «إذ قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع آخر ويتعذر ؛ لأن كل امرىء إنما يتيسر له مافى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه » . وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته ولم يكن له طبع يتقبل به تلك الطباع .

الدراية والخبرة — وهى التجربة الذاتية للنقد والتجربة النقلية فيه . فالمفروض فى الناقد المقوم لما بين يديه والحكم على ما يعرض عليه أن يكون منوع التجارب مكثراً منها فهى ثروته ومدده وهى قواعده وشواهده وهى أدلته وبراهينه ؛ كلما زاد نصيبه منها كان حكمه أقرب إلى الصواب وكلما اختلف حظه منها كان ميزانه أدنى إلى العدل ، فلا يعود بعد ذلك فج الرأى محدود الأفق ضيق النطاق جاهلا بما بين يديه . بل لا بد من طول التجربة الذاتية للنقد وكثرة الممارسة له ولا بد من طول النظر فى تجارب الخبراء فيه والعلماء به حتى يسهل ويتيسر .

الفطنة والتميز — وهى الميزة العقلية . فلن يغنى عن الناقد كل ما تقدم ما انعدم عنده التأمل أو انعدم النظر ، بل لا مناص من مقدرة على الفهم والتعمق فيه ، ولا مندوحة عن إتمام البحث بعقل يحسن الوعى ويجيد الادراك ؛ وبذلك يجعل من التأمل والنظر عليها مثمراً مفيداً . فليس الناقد ناقداً بتوافر القريحة لديه أو بطول التجربة عنده ، بل هو كذلك بصفاء الذهن أيضاً وبسلامة التميز والفطنة .

الانصاف — وهو الصفة الخلقية : فليس يكفى ذلك ، بل يسنده ويعينه عليه مزية خلقية كريمة ، لا بد منها ولا مفر ، وهى خليقة أن تتوافر له وحرية أن تلازمه . ثم هى أليق به

وأنسب له ، حتى لا يتحكم فيه هوى طارئ أو تنحرف به نزعة جامحة . وهل أكرم لمن ينصب نفسه حكما على سواه من أن يكون خالص النية برئ الغرض ، لا ينحاز بحكمه رغبة ولا رهبة ، ولا يخضع ضميره لمؤثر سوى الحق والصدق .

ثقافة الناقد — ولا ينسى الآمدى أن يعرج عليها وأن يجلوها بمقدرته ودقته ، فلا بد من سعتها وشمولها . فالناقد بوضعه الطبيعي أفسح مجالا من المنقود وأشمل ، وأكبر ثروة منه وعدة . فبضوئه تقارن الأنوار وبمقدرته تقاس المقدرات . وإذاً لا بد له من إحاطة بالمنطق والفلسفة والجدل والفقه وحفظ للغة ومعرفة لمقاييسها . ثم ما نعرفه نحن من إشارة الآمدى إلى الهندسة (ص ١٠٦ طبعة بيروت) تدلنا على سعة ثقافته هو وتنوعها ، وعلى اختلاف معارفه وتعددها . ولن يصل المرء إلى ذلك بغير « المعاناة والمزاولة » مع العناية المتصلة حتى لا تكون هذه الثقافة مجرد قشور أو محض عبث بالعناوين . ويضع الآمدى بعد ذلك الثقافة فى موضعها وراء الطبع وبعد القريحة ، فهى لن تجدى دونه ولا تفيد بغيرها .

وكأنما كان الآمدى يتكلم بلسان المحدثين حين راح يعدد شروط الناقد هذه . تلك الشروط التى يجب أن تتوافر دائماً فى كل الناقدين وفى جميع العصور وعند جميع الأمم . فالآمدى هنا يستحق التأييد والاعتبار إذ أثبت شيئاً كتب له البقاء . بل لقد يندر أن يجمع ناقد وحده كل تلك الشروط الواجبة دفعة واحدة ويمثل هذا الفهم الواضح والدقة الكاملة .

طريقته فى النقد — وهى أن يعرض البيت من الشعر أمامك بعد أن يكون قد انتزعه من بيئته . فقلما يذكر جيران بيت أو يعنى بذكرها ؛ وكأنه فى ذلك إنما يعتبره وحدة مستقلة يسهل فصلها ؛ وكثيراً ما يدفعه ذلك إلى ما يشبه التحكم ، أو على الأقل كثيراً ما يجعله بعيداً عن جو المعنى وروحه . فحين عاب على أبى تمام بيته فى مدح المعتصم :

لو كان فى عاجل من آجل بدل　　لكان فى وعده من رفده بدل

قال الآمدى (ص١٠١ نفس الطبعة) : « لم لا يكون فى عاجل من آجل بدل؟ الناس كلهم على اختيار العاجل وإيثاره وتقديمه على الآجل » . فبصرف النظر عما فى هذا القول من مادية أو واقعية ، ومن اعتداد بالمألوف فى تصرفات الناس ، فقد ظهرت هنا غربته تماما عن روح المعنى وجوه . فأبو تمام لم يقصد هنا مجرد العاجل والآجل ، ولكن العاجل الذى لا يغنى ، والآجل المغنى . فلما لم تكن هناك نفس رشيدة ترضى بالعاجل الذى هو عدم ، دون الآجل الذى هو حقيقة ، وكانت قد رضيت من الممدوح أو على استعداد أن ترضى بوعده العاجل — مع عدم غنائه عن رفده الآجل — فقد أصبح هذا الممدوح بمنزلة استوى فيها عاجلة بآجله ووعده برفده . ولكن الآمدى لم ينتبه إلى جو القصيدة وهو المديح ، ولا لروح المعنى الذى هو وصف للممدوح بصدق الوعد وبتحقيقه ، ولا للبيئة التى وجد البيت بينها ، وسؤال الشاعر أن يأتى بالمعنى مفصلا كما يؤتى به فى النثر خروج بالشعر عن أسلوبه . ولو قد ذكر الآمدى بيتا قبل هذا البيت وبيتاً بعده — أى لو انتبه إلى بيئة البيت التى يحيا فيها — لكان رأى الشاعر قد أوضح معناه إيضاحاً فيه كفاية .

وبعد أن يعرض الآمدى البيت وحيداً يأخذ فى عرضه على المعنى التقليدى المتعارف عليه

عند الأقدمين ، فاذا اتفقا فالمعنى الذى يزنه جائز وجيل ، وإن اختلفا كان « سخيفا » و « خطأ » . وهو فى هذا العرض لا يأتى بالمفاهيم المتعددة والمعانى المحتملة للجملة أو التركيب ، وكذلك لا يعرض الجوانب المتعددة من مفهوم اللفظ ؛ وإنما يفرض عليك — أو فى الحقيقة — على الشاعر معنى بعينه يلزمه به ويحاكمه عليه . وربما احتمل الأسلوب معنى آخر يصح به وتطمئن النفس والذوق إليه .

ربما كان ذلك آتياً من شغفه بتقليد الجاهليين ومحاكاة طرقهم فى التصور والتعبير ، والتزامه حدود ما ذهبوا إليه من المعانى والأخيلة ؛ حتى لم يعد يتعمق بنفسه فى حقائق الشعور ، ولم يعد يصطنع الدقة فى توجيه المعانى واختيار ما يمكن أن يكون مناسباً لما بين يديه مستقلا بنفسه مختارا .

والآمدى لا يستعين ولا يعتد بنية الشاعر فى فهم مراده ، ولا يحاول أن يستحضرها فيما يعالجه من نقد . بل يأخذ الكلام بعيداً عن قائله فى ناحية ما ، ليطبقه على القوالب اللغوية وليرى قدر اتفاقه مع العرف الأدبى والتقاليد التعبيرية عند الأقدمين (ص ٩٣) . ويغلب على ظنى أنه لم يكن يعنى بتغيير المعنى الاستعمالى للفظ ، أو يلتفت إلى مسألة تطور المعانى حسب تطور البيئة والزمن والذوق والحضارة . فكثيراً ما كان يعيب على أبى تمام المعنى لمجرد مخالفته لاستعمال الجاهليين . وربما تجوز فاعتمد استعمال الاسلاميين الأول . فهو يعيب على أبى تمام وصفه للحلم بالرقة لمجرد أن ذلك على حد قوله ص٧٤ : « لأنى ماعلمت أحداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة » . ثم قال : « وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك » . فلم ينتبه الآمدى هنا إلى أثر الحضارة فى مفهوم اللفظ وهو الحلم ، وفى اختلاف تصور النفس له وشعورها به عما كان أيام البداوة . ولم ينتبه إلى صلة الصور الخيالية بالبيئة البغدادية المترفة الناعمة . أو إلى ذوق أبى تمام الخاص المتأثر بحياة المدن الاجتماعية والعقلية والمغرم بالاغراب والمباينة . ولا انتبه كذلك إلى المناسبة التى أورد فيها المعنى . فأبو تمام يصف رجلا عظيما من الطبقة المترفة بالحلم ، فأراد أن يثبت له فى هذا الحلم صفات اللين والتلطف والوداعة ، لا صفات الغضب والجهامة والصلابة والخشونة ، فقال إن الممدوح يندى عليك فى حلمه كما يندى البرد .

قواعده فى النقد — يحتكم الآمدى فى أحكامه النقدية أولا إلى المعروف من عادة العرب وتقاليدهم ، وإلى المشهور من كلامهم ومعانيهم وخيالاتهم وتصوراتهم ؛ فهذه أهم قاعدة يزن بها الكلام . وهو لا يؤمن بهذه القاعدة جزافا ، بل ذكر الأدلة والعلل فى ثنايا الكتاب وفى أماكن متعددة منه . قال (ص ٨٣) : « لا يجوز أن يحدث الانسان لغة غير معروفة وينسب إلى العرب ما لم تعلمه ولم تنطق به » . لماذا ؟ لأن « المتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم ويقتدى بهم » (ص ١١٣) . وقال (ص ١١٨) : « إنما ينبغى أن ينتهى فى اللغة إلى حيث انتهوا ولا يتعدى إلى غيره فان اللغة لا يقاس عليها » إلى كثير من أمثال هذا الكلام .

ثم إن الآمدى يقيس المجاز والتشبيه والاستعارة بالصواب والخطأ (ص ١٠٧ ، ١١٥) لا بالدقة فى نقل الأحوال النفسية . وهو يقيد الخيال ويحكم عليه بواقع الحياة اليومية ، وبالحقائق الخارجية العرفية ، وكذلك بالمصطلحات العلمية والعادات المتفق عليها عند عامة الناس ، كرفضه أن يكون للزمن عرض ، وأن يكون الدمع مما يزيد التوقد فى جمرة اللوعة ، لأن ذلك « خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها » (ص ١٠٩) حتى قال مرة فى صراحة

« كل ما دنا من المعانى بالحقائق — ويريد بها الواقع الخارجي — كان ألوط بالنفس وأجلي » .

وهو دائماً يمقت المعانى الجديدة ، ويريد أن يضع حدوداً للتصور والتذوق والروح لا تتعداها النفس ولا تتجاوزها ؛ كما قال مثلا فى مسألة المجاز (ص ١٠٣) حين رفض أن يكون العرض فى الدهر من سبيل المجاز قال :« لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، وألفاظ مألوفة لا يتجاوز فى النظر بها إلى ما سواها » .

وأخيراً نلاحظ على الآمدى أموراً نذكرها موجزين :

١ — أنه ضيق على الفنان دائرة شعوره وتذوقه حين حرمه من سعة النفس والأفق ولذة الشعور والاحساس الحر القائم على التجربة الشخصية . وضيق عليه دائرة عمله حين حرمه من التوسع فى التعبير والتصور والتخيل ، وحين حرمه من القياس على ما جاءت به العرب وما جاء به القرآن الكريم (ص ١١١) . ولعل هذا هو أكبر نقص يمكن أن يلاحظ على النقد العربى عامة .

٢ — أنه أخضع الخيال — وهو من أهم وسائل الفن فى التعبير — للواقع الخارجى وللمصطلحات والحقائق العلمية ، مما يمكن أن يؤدى إلى جمود الصور وتحجرها ، أو يؤدى إلى التكرار والسآمة وعدم التنوع والتجديد .

٣ — وبخضوعه للمتقدمين اضطر أن يقف دون تطور النفس وتطور البيئة من حولها مما يمكن أن يسبب لها الضمور والانكماش ويصيبها بالموات والعقم .

وبخضوعه هذا أيضاً أطلق الشعراء يدورون فى حومة محدودة وحلقة مفرغة ودائرة مغلقة : يقلد بعضهم بعضاً ويكرر أحدهم ما قال الآخر ويتنفس الواحد منهم ما يقيئه سواه . حتى لم يكن يحسب السرقات الشعرية عيباً ، لأنها فى معان معروضة للجميع .

ولكن من حق الآمدى أن نذكر له مزاياه النقدية وفضيلته ، خاتمين بها هذا البحث القصير .

١ — محاولته التعليل لأغلب ما يذهب إليه قاعدة تحمى النقد من الواغلين والأدعياء والذين يحتمون بالقاعدة المبتذلة من أن الذوق لا يعلل .

٢ — إنه حاول أن يجعل للنقد القواعد والأصول الثابتة التى ينهض عليها ، فكأنه كان ينظر إليه نظرة جدية حديثة .

٣ — وإن تنبهه لتلك الشروط اللازمة للناقد بمثل هذه الدقة والاحاطة لخير ما يمكن أن يتاح لباحث الوصول إليه فى هذه الناحية ، وهو أهم فى الحقيقة من كل ماقى الكتاب .

٤ — ثم إن توسعه فى فهم الثقافة هذا الفهم الشامل وضرورتها عنده للناقد ، لدليل على قيمة النقد فى نظره ، وعلى أنه ليس مما يسهل على كل متصد له ، وعلى أنه ليس عملا هينا سهلا تكفى فيه الرغبة وتشفع فيه المزاولة .

على ابراهيم الاقطمه

من وراء البحار

قصور السلام

كتب مستر ريتشارد جننجز فى مجلة « القرن التاسع عشر » وما بعده الانجليزية (عدد فبراير ١٩٤٦) يقول إنه فى ذلك الشهر أو فى الشهر الذى يليه على الأكثر سيكون الاحتفال بجنازة عصبة الأمم بجنيف ، ولا يحضر هذه الجنازة غير واحد من أقرباء المتوفاة وهو بريطانيا العظمى . ولقد سبق أن نشر نعى هذه العصبة ، وألقيت الخطبة على قبرها ، ألقاها السكرتير العام السابق لها الذى حذر العالم بأن العصبة لم تخفق وإنما الأمم هى التى أخفقت فى استعمالها . وهذه فكرة يجب أن ينعم النظر فيها فلاسفة السياسة ورجال الأخلاق ، وهى كذلك موضوع جدير بأن يسقط عليه الشعراء فيتخذونه رمزاً . فماذا يكون مصير قصر السلام الذى أقيم فى جنيف ، وثبت فى أرض أوربا مع مبالغة — فيما يظهر لنا الآن — فى مظاهر الكبرياء التى يستطيعها فن البناء ؟ وماذا ينتظر أن يحدث للقصر التالى الذى يقام تحت اسم نظام الأمم المتحدة فى أمريكا ؟ هل سيكون مصير هذا القصر أيضا أن يهجر إلى مكان أكثر أمناً ؛ مكان تحت الأرض أو قصر حقيق من الثلج على مقربة من القطب الشمالى ؟ ففى فترات متعاقبة يكون السلم حائراً يبحث عن بيت جديد ، ويكون فى ذلك أشبه بالمهاجر . لعل هذه الصورة من البحث الطويل عن مسكن ترتسم أمام مصور ساخر ذى خيال بعيد كخيال الأنبياء .

موطن رئيس الولايات المتحدة

نشرت المجلة « الوطنية الجغرافية » التى تصدر فى أمريكا (عدد مارس سنة ١٩٤٦) مقالا طريفاً عن أهل إقليم ميسورى ، وهو الاقليم الذى ولد فيه الرئيس ترومان . وهذا المقال مزين بصور عدة بعضها ملون وهى صور فى غاية الاتقان شأن كل مايظهر فى هذه المجلة من صور ، وقد قالت إنه يسكن هذا الاقليم ثلاثة ملايين وستمائة ألف من السكان ، ولقد أرسلوا من الجند فى الحرب الأهلية الأمريكية — بين الولايات الشمالية والجنوبية — أكثر من أى إقليم آخر إذا قيس ذلك بنسبة عدد السكان وأنشأوا تجارة واسعة فى الفراء حول نهر ميسورى . وهم قوم أشداء لا يركنون إلى الدعة بل يحبون المغامرات . وهم مزيج من مهاجرى شعوب الأرض ، ففى مدينة سانت لويس مثلا تجد عدداً كبيراً من الشرقيين إلى جانب الأوربيين . ويوصف أهل ذلك الاقليم بالحذر ، وتملك الأعصاب والتحكم ؛ فقد تجد الرجل منهم حائزاً على وسام رفيع ولكنه لن ينبئك بذلك ، وإنما تقف على أمره من زميله . وقد تجد الرجل فى لباس زرى فتحتقره وهو فى الحقيقة رجل ذو مكانة .

وروى الكاتب أنه كان جالساً مع مستر كنجزبرى من كبار تجار التفاح فى ذاك الاقليم ، فاذا بأحد زارعى التفاح يخرج إليهم من بين مزارعه فيتحدث معهم عن الجو ،

والمحصول والأجور وما شابه ذلك من موضوعات ، ثم يعود إلى حقله ، فبعد أن اختفى بين الأشجار ، قال كنجزبرى : « إنه لأعقل من البوم . (وهذا الطير يوصف فى أمريكا بالعقل) فقد رأى فى أحد المزادات فى الريف فى الربيع الماضى كومة من ٥٥ صورة قديمة بين أدوات بالية أخرى ، فاشتراها جميعاً بعشرة سنتات (الدولار مائة سنت) ثم أرسل هذه الصور القديمة إلى بائع للصور فى نيويورك ، فباعها وبلغ ثمن بعضها سبعة عشر دولاراً ؛ إذ أنها كانت من تصوير كاريار وإيفز » .

ملاحظات عن مصر

لقد أمضى الدكتور أدوين كالفرلى الأستاذ بجامعة هارفرد وبرنستون ورئيس تحرير مجلة العالم الاسلامى الأمريكية سنة فى القاهرة ، وأحدث حضور هذا المستشرق الكبير حركة فى الأوساط العلمية . ولقد نشر أخيراً فى تلك المجلة ملاحظات عن زيارته لمصر ، وهى ملاحظات كانت جديرة بالنقل إلى اللغة العربية بأجمعها لما حوته من آراء قيمة جديرة بانعام النظر . على أننا لانستطيع هنا إلا أن نلخص هذه الملاحظات ، ويمكن الاطلاع على المقال بأكمله فى عدد يناير ، وهو عدد طريف حافل بمقالات شيقة عن مصر والشرق .

يرى الدكتور كالفرلى أن مصر الحالية تعكس ثلاثة عصور : مصر القديمة ، ومصر القرون الوسطى ، ومصر العصر الحديث ؛ فمصر القديمة عجيبة بأهرامها ومعابدها وقبورها وبدائع متاحفها ، وهى البلد الذى غذى بحضارته الأمم الأخرى ، والمصريون الحديثون هم سدنة هذا الكنز الذى هو منبع للثروة والشرف ، كما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية .

ومصر القرون الوسطى جميلة براقة بهيجة الألوان ، وتراها فى المساجد والمنائر والآثار الباقية من عصر الفاطميين والأيوبيين . وفى القاهرة شوارع وأسواق لاتزال تحتفظ بجو تلك العصور الخالية .

ويحتفظ المصريون اليوم فى لغتهم وآرائهم وعاداتهم بالكثير من عادات أسلافهم الأقدمين . وقد لايستمر هذا الميراث أمام دفعة التربية الحديثة ، والحياة الصناعية الحديثة . ولكن بعض الصفات قائمة على الطبيعة الأساسية للشعب وللبلاد ؛ فليس من المحتمل كثيراً أن يستعمر المصريون بلاداً أخرى لأنهم متعلقون بأرض وطنهم تعلقاً شديداً . ومن المرجح أن يستمر المصريون على رى الأراضى ، بل الحدائق باغراقها بالماء بدلا من رشها ، فهم قد تعلموا من الطبيعة فيضان نهر النيل بدلا من تساقط المطر ، ولكنهم قد يقلعون عن ترك القطط الصغيرة طعاماً للطير أو استعمال الفلاح الأجير فى رفع ماء النهر لكى يفيض على الحقول .

وتوجد فى المصريين أيضاً بعض العادات والآراء من ميراث القرون الوسطى جاء بها بعض المهاجرين ، أو بعض الجيوش الفاتحة ، واستوطنت فى البلاد بمرور الزمن . فالمصريون الأقباط تلقوا دينهم من الخارج ، ثم مزجوه بحضارتهم وطرائقهم وصار جزءاً أساسياً منهم . والمصريون المسلمون قبلوا دين النبى العربى ، وصاروا بعقيدتهم ورغبتهم أمة عربية بين الأمم العربية ، وفى أكثر الوجوه أكبر ممثلى العالم العربى .

ولكن المصريين اليوم يعيشون أيضاً فى العالم الحديث . فان الآراء والتيارات الجارية فى بقية أنحاء العالم تهتم بها طائفة كبيرة من المصريين اهتماماً كبيراً ويتصلون بها ، فاذا كان

مما لا ريب فيه أن أكثر المصريين من المحافظين على التقاليد فى آرائهم وطرائق تفكيرهم ، فان هنالك فريقاً كبيراً لم يكتف بقبول طرق الغرب فى الملبس والمسكن ، بل هو اتخذها فى نظرته إلى الحياة الفردية والاجتماعية .

ولقد تعلم كثيرون من المصريين فى أوربا أو فى مدارس مصرية حديثة . وبين هؤلاء عدد كبير من الفتيات ، فآراؤهم تختلف مع آراء آبائهم وإخوتهم الذين تربوا تربية قديمة . والتعليم مزدهر الآن فى مصر ، والحكومة غير قادرة على مواجهة الاقبال على التعليم . ولا يسع الباحث فى المؤلفات والمطبوعات الجارية إلا أن يتعجب لمبلغ النشاط العقلى . فعدد الكتب والمجلات والصحف كبير جداً لا يحده إلا صعوبة الحصول على الورق ، وتنفد طبعات الكتب سريعاً . وهذا النشاط الفكرى فى مصر ليس جديداً بها ، ولكنه لم يكن قط كبيراً على هذا النحو .

وقد بلغت مصر الحديثة تفوقاً على العالم الاسلامى فى ميادين عدة من نواحى النشاط . فليس فى بلد إسلامى آخر مثل هذا الانتاج الكبير فى الأدب ، ومثل هؤلاء الكتاب فى الطبقة الأولى ، ومثل هؤلاء الزعماء فى مناحى الأدب . والمستقبل يبشر بمجد ثقافى أكبر عند ما تنشر كنوز الماضى الثمينة وفهارس الكتب .

وفى عالم السياسة نجد مصر كذلك فى الطليعة بين الشعوب المتكلمة بالعربية ، فهى العاملة على تحقيق تأليف جمعية الأمم العربية . والمصريون محبون للحرية والسلم . فمن المنتظر أنهم يرغبون أن تتحقق لجيرانهم مثل هذه الحرية ، وأن يبذلوا مجهوداً سلمياً للوصول إلى هذا الغرض .

وليس من الواضح لصاحب المقال أن مصر ستظل زعيمة الأمم الاسلامية فى عالم الدين ، فمصر قد قبلت الآراء الحديثة فى جوانب النشاط الانسانى ، وحصلت على حقوق فردية واجتماعية بعد أن بذلت مجهوداً كبيراً ، ويكون من العجيب ألا تتطور فى آرائها الدينية .

ولقد كان لمصر فى القرن الماضى زعيم دينى اعتبرت تعاليمه فى عصره بعيدة فى التجديد ولكن آراءه الآن محترمة وذكراه ممجدة . وقد يجد الزعماء الذين ينصحون ببعض الاصلاحات التى لها علاقة بالدين كثيراً من المعارضة فى بلد كمصر محافظ على التقاليد ، ولكنه من المنظور أن تتقدم مصر لا على الرغم من الدين بل فى حدود الدين ، حتى تتمتع بكل ما تتمتع الأمم الحديثة .

رحلة فى سويسرا

استطاع مستر سيرل كونولى محرر مجلة هورايزن الشهرية أن يزور بلاد سويسرا فى يوليو الماضى ، وكان من أثر ذلك أن صدر عدد فبراير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة وكله حديث عن سويسرا ومقتبسات من آراء أدبائها وشعرائها ورجال الفن فيها . وقد وصف مستر كونولى رحلته من باريس إلى تلك البلاد فى جو شديد الحرارة كما يحدث أحياناً فى شهر يوليو ، فوصف هذه الرحلة بأنها حلم مزعج فيما مر به من ألوان المتاعب . فقد ظل المسافرون منذ الساعة التاسعة مساء حين بارحوا باريس إلى أن وصلوا فى ظهر اليوم التالى إلى الحدود السويسرية وهم بلا ماء ولا طعام ، وكان أكثرهم واقفاً فى طرقات القطار لا يجد سبيلا للجلوس ، ثم تبدت لهم فجأة ما يشبه أرض كنعان وهى تدر لبناً وعسلا ، وهجم راكبو القطار على طعام من السمك واللحم والنبيذ الأبيض وأخذوا يشعرون بعد الحرمان بأنهم من السياح . ولا يقصد

بلفظة السياح هنا هؤلاء الناس المدنيون الذين يشك فى أمرهم وكانوا يرون فى القطارات العسكرية بل سياح من النوع المألوف قبل الحرب الذين يحملون أدلة السفر والصحف وعلب السجائر . وسار بهم القطار وهم يستمتعون بجمال الطبيعة حتى بلغوا بحيرة نيوشاتل التى ذكرتهم أن ماء البحيرات قد يتخذ ألواناً فى الطبيعة ، ثم أخذت الأسماء تنقلب ألمانية واختفت كروم العنب ووصل المسافرون إلى برن عاصمة الاتحاد السويسرى حيث نزل مستر كونولى فى أحد الفنادق ، وجلس على شرفة الفندق بعد أن كاد ينسى أن للفنادق شرفات . وأخذ يتأمل فى منظر من أجمل مناظر العالم حيث يطل على قمم الجبال الدائمة البياض على حين يشق الصخر فى جريه السريع نهر الآر كأنه سيف عملاق . وكان يتناول طعام فطوره على هذه الشرفة وأمامه كمية وافرة من القهوة والفاكهة وفى يديه جريدة سويسرية ، وهو ينظر إلى أجساد المستحمين فى النهر . ومن عادة أهل برن فى استحمامهم أنهم يرمون بأنفسهم فى الماء ويتركون للتيار حملهم فيه فيكونون كأعواد الثقاب . وتبدو مدينة برن لمن ذاق الحرمان خمس سنوات فى انجلترا أشبه بوهم من الأوهام بما فيها من حوانيت مزينة كأنها شجرة عيد الميلاد وما يرى فى حوانيت باعة الساعات من العجائب التى تلمع بالذهب وتوقظ الرغبة فى نفوس المتفرجين ، ثم حوانيت الملابس وبائعى السجائر حيث تجد أنواعها بالمئات ، ويرى المحروم من هذه الأشياء ما يدفعه فى آخر الأمر إلى أن يكره هذه الحوانيت ، وليس فى العالم القديم بلد أتقن صناعة الحياة مثل سويسرا حيث بلغ الاتقان غايته لذوى المال ، فالقطارات السويسرية جنات تسير على عجلات ، وهى نظيفة ساكنة سريعة ذات نوافذ محكمة ، والفنادق يعجز الوصف عن ذكر محاسنها ، ومدن بلغ تناسق الأبنية فيها غايته بين الحديث والقديم ، والاضاءات على طرق جديدة فى نهاية الطرافة .

والذى يطير من لندن إلى زوريخ مثلا يكون قد انتقل من مدينة ثلاثة أرباعها قذر غير صحى مخرب ، إلى بلدة صناعية هى أكثر بلاد أوربا تقدماً فيها خير المساكن للعمال وأصح المصانع ، حيث تجد هواء جميلا يشجع على التفكير الجديد والابداع فى الفن ، كما يثبت ذلك سكنى جديون ودادا وجويس ويونج لهذه المدينة .

ماذا دفعت سويسرا ثمناً لهذا التقدم المادى ؟ إنها دفعت بعض الشعور بالجريمة والوحدة ، وهما ثمن لمن بقى على الحياد ، فهى لم تلق عليها القنابل ولم تغز ولم تتخرب فى سبيل الحرية مع أنها بلد حب الحرية فيه ميراث ، وذلك يوجد شعورا بعدم الرضا . وقد دفعت كذلك ثمناً داخلياً هو أن سويسرا بلد مترف بالكماليات مختنق بما فيه من ذهب ، ولكن ضرورات الحياة فيه نادرة مرتفعة الثمن .

واسترسل الكاتب فى وصف أهل سويسرا الذين هم من عنصر ألماني وفرنسى وإيطالى وكيف كانوا يتطلعون إلى مونيخ أو ڤينا وباريس وميلانو ، وإذا هم الآن لا يجدون شيئاً . ووصف جنيف ومحاسنها ، ثم تكلم عن لوزان ، ثم وصف لوسيرن حيث تغص بالباحثين عن اللهو من لاعبي التنس والجولف والأمراء المنفيين . وقال إنها أشبه شىء بمتحف لذوى الثراء . وإنه يشعر بالرغبة كما شعر فى كثير من المدن السويسرية بأن يطلق عليها جمعاً من السنغاليين السود أو من البحارة الفرنسيين أو العمال أو من نساء أمريكيات سكارى أى جماعة من أولئك الذين هم عمد للسفالة الأخلاقية الذين يسيرون غير آبهين على الحشائش أو يصفقون فى النقالات التى تسير بين الجبال على أسلاك معلقة فى الهواء .

ظهر حديثا

كليمنصو وحياته العاصفة تأليف ليون دوديه ، تعريب الأستاذ حسن محمود (دار الكاتب المصرى)

يظهر أن للاستاذ حسن محمود كلفاً شديداً بالساسة البارعين الذين يتركون فى حياة أوطانهم آثاراً ذات خطر عظيم . ويظهر أنه فى الوقت نفسه يحب أن يشرك مواطنيه المصريين فى العناية بهؤلاء الساسة وتتبع حياتهم والانتفاع بما يملأ هذه الحياة من تجارب خصبة ، ويظهر بعد هذا وذاك ، أنه يحب تصوير الكتاب الفرنسيين لهؤلاء الساسة يرى فيه من الوضوح والائتلاف وملاءمة المنطق ما يلائم مزاجه ومزاج المصريين الذين هم آخر الأمر من أهل البحر الأبيض المتوسط .

فقد ترجم الأستاذ حسن محمود ، منذ أعوام ، كتابا للأديب الفرنسى أندريه موروا ، صور فيه حياة السياسى الانجليزى البارع دزرائيلى ، وهو الآن يترجم كتابا للأديب الفرنسى ليون دوديه ، صور فيه حياة السياسى الفرنسى العظيم كليمنصو . وليست براعة ليون دوديه بأقل من براعة موروا فى التصوير ، وليس كليمنصو بأقل أثراً فى حياة فرنسا وعظمتها من دزرائيلى .

والناس جميعاً يعرفون من أمر كليمنصو أنه كان سياسيا فرنسياً عظيما ، شارك أعظم المشاركة فى إنشاء الجمهورية الثالثة بعد الهزيمة الفرنسية سنة ١٨٧٠ ، وأثر فى حياة هذه الجمهورية الثالثة آثاراً عظيمة مختلفة ، منها ما رضى عنه الفرنسيون ، ومنها ما ضاقوا به . والناس جميعاً يعرفون كذلك أن كليمنصو كان برلمانياً من الطراز الاول ، وخطيباً قل أن تعرف له فرنسا نظيراً منذ عهد الثورة ، وأنه قد امتاز باسقاط الوزارات ، حتى سمى النمر . والناس يعرفون بعد ذلك أن كليمنصو هو الذى أنقذ الجمهورية الثالثة ، بل أنقذ فرنسا فى الحرب العالمية الأولى ، وقادها إلى النصر ، واستحق تقدير الوطن الفرنسى ، وكنى أبا النصر ، وتغنت فرنسا كلها باسمه عاما كاملا بعد انتهاء الحرب .

كل هذا يعرفه الناس ، لكثرة ما تناقلته الأحاديث وجرت به الألسنة والاقلام . ولكنه لا يعدو أن يكون ظاهراً من العلم ، ليس له حظ من العمق ، ولا نصيب من الدقة ، وهو من أجل ذلك يدعو إلى هذا الاعجاب اليسير الذى لا يعتمد على أساس متين .

فالكتاب الذى يهديه الأستاذ حسن محمود اليوم إلى قراء العربية ، يرد هذا العلم بأمر كليمنصو إلى أصوله ، ويقيم هذا الاعجاب بعظمة كليمنصو على أساسه الصحيح ، ويتيح للقراء فرصاً كثيرة جداً للتفكر والتدبر وللتأمل والاعتبار . وهو فى الوقت نفسه يتيح لهم ألواناً كثيرة مختلفة من لذة العقل والقلب والذوق جميعاً ، كما يظهرهم على فنون كثيرة من الحياة الفرنسية المتنوعة المتناقضة التى لا تكاد تحصر ولا تحصى .

وليس هذا الكتاب ترجمة دقيقة لكليمنصو بالمعنى المألوف من معانى هذه الكلمة ، وإنما هو مصاحبة له فى حياته الطويلة التى أشرفت على تسعين عاماً مصاحبة متقطعة لاتتبع الرجل

العظيم فى دقائق حياته ، وإنما تلقاه بين حين وحين فى مواقفه الحاسمة ، وفى أشد أطوار حياته خصباً وأبعدها أثراً فى نفسه ، وفى نفس أمته ، وفى الحياة السياسية الأوربية ، بل فى الحياة السياسية العالمية وفى الحياة العقلية الانسانية أيضاً .

فالمؤلف لا يفصل لنا مولد كليمنصو ، ولا نشأته ، وإنما يحدثنا عنه فى طور من أطوار حياته حين تم تكوين عقله وخلقه ومزاجه ، وحين أصبح رجلا من رجال السياسة الفرنسية فى أواخر القرن الماضى . وهو يصوره لنا فى أول أمره شديد النشاط ، شديد الذكاء ، شديد الايمان ، قوى الشخصية ، يعرض نفسه على جميع الذين يتصلون به من قريب ثم من بعيد ، ثم يفرض نفسه على جميع مواطنيه .

وقد تكونت شخصيته المعنوية من عناصر لزمته طول حياته ، أولها حرية العقل ، هذه الحرية التى جعلت منه ثائراً متصل الثورة على كل قديم ، وبطلا من أبطال الحياة الحديثة فى تحرير العقل الانسانى ، وخصما عنيداً لرجال الدين . وثانيها إيمانه بالتقدم الانسانى ، وثقته بأن الانسان طامح بطبعه إلى الرقى ، قادر بطبعه على أن يحقق هذا الرقى ، وبغضه من أجل ذلك للمحافظين الذين لا ينظرون إلا إلى وراء ، وللجامدين الذين لا يسعون إلى أمام .

وهو قد اكتسب هذين العنصرين من حياة القرن التاسع عشر كلها ، ومن تأثره العميق بفلسفة أوجست كونت واستيوارت مل .

العنصر الثالث إيمانه بوطنه فرنسا ، وحنقه على ألمانيا التى هزمت هذا الوطن ، وحرصه على الثأر وإصراره على أن تسترد فرنسا الألزاس واللورين . أضف إلى هذه العناصر ذكاء حاداً ، ومزاجاً عنيفاً ، وثقة بالنفس لا حد لها ، وازدراء للمصاعب والعقبات ، واستخفافاً بما يفسد حياة الناس من الكيد والدس والنفاق ، وقدرة على العمل ، واستعداداً قوياً جدا للمرح ، وزهداً شديداً جداً فى الثناء ، وانصرافاً عن الشهرة ، وإعراضاً عن الخوف من آراء الناس .

كل هذه الخصال هى التى تكون هذه الشخصية الفذة التى تركت فى حياة الفرنسيين أبعد الآثار وأبقاها .

وقد عرض مؤلف هذا الكتاب علينا شخصية كليمنصو مجتمعة كاملة ، لم يعرض لها بالتحليل وإنما أظهرنا على هذا الرجل العظيم وهو يضطرب فى حياته الخاصة وفى الحياة الفرنسية العامة وتركنا نرى إقدامه وإحجامه ، ونسمع حواره وخطبه ، ونقرأ آثاره المكتوبة ، فنتبين هذه الشخصية شيئا فشيئا ، ونردها نحن إلى أصولها وعناصرها ، دون أن نجد فى ذلك كثيراً من العناء .

فنحن نرى كليمنصو بعد إنشاء الجمهورية الثالثة ، زعيما لحزب الراديكاليين ، ومديراً لجريدة العدالة ، وعضواً خطيراً فى مجلس النواب ، مطالباً بالثأر ، مقاوماً للنفوذ الألمانى ، مبغضاً للحركة الاستعمارية ، التى كانت تلهى فرنسا ، ببسط نفوذها من وراء البحار ، عن الثأر من عدوها المجاور لها ، والذى يتربص بها الدوائر وينتظر أن يغير عليها مرة أخرى . ونحن نراه مختلفاً إلى الأندية متردداً على الصالونات محاوراً فى هذا كله مشاركا فى الأدب والفن والعلم ، مدافعاً عن الاصلاح الاجتماعى ، وإنصاف الطبقات الضعيفة ، مناهضاً فى الوقت نفسه للاشتراكية التى كان سلطانها يعظم من يوم إلى يوم ، فارغاً فى أثناء هذا كله لحبه ولذته لا يصرفه الجد عن الدعابة ولا تصده الدعابة عن الجد ، ونحن نراه حين تتنكر له الأيام ويخذله الأنصار وينصرف عنه الأصدقاء ويضطر إلى العزلة والانصراف عن السياسة حيناً والفراغ للانشاء الأدبى صابراً جلداً ساخراً واثقاً بالمستقبل على كل حال . ثم

نراه حين يعود إلى السياسة وحين ينهض بأعباء الحكم فيستقبل أموره حازما صارماً لا يحب الهوادة ولا الملاينة وإنما يمضى فى طريقه كأنه السهم لا ينحرف عن غايته إلى يمين أو شمال ثم نراه معارضاً ولا سيما فى أثناء الحرب يدير صحيفته «الرجل المغلول» ويصلى فيها رئيس الجمهورية ورؤساء الوزارات ناراً حامية . ثم نراه وقد نهض برياسة الوزارة حين أوشك الحلفاء أن يخسروا الحرب ، وكان شيخاً قد قارب الثمانين فاذا هو يسترد شبابا غريباً وقوة غير مألوفة ، وإذا هو يفرض نفسه لا على فرنسا وحدها بل على الحلفاء جميعاً ، وإذا هو يدير الحرب من وراء الميدان كما يديرها فوش فى الميدان . وإذا هو يقود الحلفاء إلى النصر ويملى على المنهزمين معاهدات الصلح . ثم نراه يجنى بعد ذلك بوقت غير طويل جزاء ما قدم لوطنه من معروف وما أسدى إليه من جميل جحوداً بغيضاً مراً ؛ فقد أبى مواطنوه عليه رياسة الجمهورية واختاروا لهذه الرياسة رجلا أديباً ضعيفاً انتهى إلى الجنون . وقد كثر الكيد له والتشنيع عليه،وقد أخذ الذين كانوا يتملقونه ينصرفون عنه شيئا فشيئا ، وإذا هو يعود إلى عزلته ويلتمس فى هذه العزلة هذا العزاء الذى لا يلتمسه إلا عظماء الرجال ، عزاء الحياة العقلية وإذا هو عاكف على التأليف منصرف إلى الكتابة ساخر من كل شىء إلا من العقل،وساخر من كل إنسان إلا من الانسان المعنوى الذى لم ينكره قط ولم يشك قط فى أنه مستعد بطبعه للرقى ، قادر بطبعه على الرقى، بشرط أن يتحرر عقله من قيود القديم وأن يتخذ العلم لنفسه سراجاً وإماما .

وقد أحس كليمنصو دنوه من الموت فى التاسعة والثمانين من عمره ، فكتب وصيته وهى آية فى رفض النفاق وازدراء المنافقين وثورة الفرد على التقاليد وعلى النظم الاجتماعية كلها ؛ فقد أبى أن يحتفل أحد بجنازته وأمر أن تحمل جثته فى سيارته فى غير احتفال ، بل فى غير مظهر من مظاهر الاحتفال ، وأن تمضى هذه السيارة بجثته إلى تلك المقبرة التى دفن فيها أبوه وأن يوارى فى التراب هناك فى قبر بسيط يسور بسور من حديد ولا يكتب عليه شىء ما . وكذلك نشأ هذا الرجل عظيما ، وعاش عظيما ، ومات عظيما ، وكانت البساطة هى المظهر الرائع لهذه العظمة .

وأنت لا تقرأ فى هذا الكتاب حياة كليمنصو وحده ، وإنما تقرأ فيه حياة باريس ، بل حياة فرنسا من نواحيها المختلفة فى السياسة والأدب والعلم والفلسفة . ولعلك لا تعجب فيها بشخص كليمنصو وحده ، وإنما تعجب فيها بشخصيات كثيرة أخرى قد شاركت فى الحياة الفرنسية الخصبة أكثر من نصف قرن . وربما كان من أهم هذه الشخصيات شخصية المؤلف ليون دوديه الذى كان محافظا شديد المحافظة ، مسيحيا ممعنا فى المسيحية ، ملكياً متطرفا فى الملكية ، والذى أحب على هذا كله كليمنصو الديمقراطى المتطرف ، الجمهورى الملحد الذى لم يحارب شيئاً قط ، ولم يبغض شيئاً قط بعد ألمانيا كما حارب المحافظة والملكية والدين .

فالأستاذ حسن محمود حين يهدى إلى مواطنيه هذا الكتاب إنما يهدى إليهم متعة فنية رائعة وكنزاً من كنوز المعرفة ، لا يكاد يقدر ، وسفراً من هذه الأسفار التى تمتلىء بالصبر والعظات . وترجمته سهلة سمحة ، لا يجد القارىء فيها مشقة ولا عسراً ولا تكلفاً وإن كنت آسف أشد الأسف لأنه لم يسلم مما يتورط فيه المترجمون عادة من هذا الخطأ اللغوى الذى يمكن اتقاؤه بشىء قليل من العناية .

فالأستاذ حسن محمود يتجافى عامداً أو غير عامد عن بعض الأصول التى لا ينبغى أن يتجافى عنها الكتاب . فقاعدة التذكير والتأنيث تلقى منه عناء شديداً . وفى الكتاب أغلاط نحوية لا أدرى أأحلها عليه هو أم أحملها على الخطأ المطبعى ، ولكنها على كل حال لا تطاق ولا يصح أن تشوه جمال كتاب كهذا الكتاب .

وما أحب أن أمثل لما فى الكتاب من خطأ فى اللغة والنحو ، فسيجد القراء هذا الخطأ ، وسيعرفونه بأنفسهم ، وسيغيظهم ذلك كما غاظنى ، ولعل الأستاذ حسن محمود يعتبر بذلك فيعنى بلغته ونحوه أولا ، ويصلح ما فى هذا الكتاب من خطأ حين يعيد طبعه إن شاء الله .

وازن الأرواح تأليف أندريه موروا ، ترجمة الأستاذ عبد الحليم محمود (دار الكاتب المصرى)

لست أدرى أأثنى على الأستاذ عبد الحليم محمود لأنه أقدم على الترجمة أم لأنه أحسن فى الترجمة . ولعل من الحق أن أثنى عليه للأمرين جميعا . فالأستاذ عبد الحليم محمود شيخ من شيوخ الأزهر ، تخرج فى معهدنا الدينى العظيم ، ثم سافر إلى فرنسا فتعلم لغتها ، وأخذ من ثقافتها بحظ ، وتخرج فى الفلسفة وعاد فاستأنف فى الأزهر حياة جديدة لم تخل من بعض الجهد . وهو الآن يقدم إلينا قصة فرنسية ، قد ترجمها إلى العربية . وكل شئ جائز ، حتى أن يترجم شيوخ الأزهر قصص أندريه موروا . وما من شك فى أن هذه آية من الآيات التى تدل على تغير الزمان ، وعلى أن مصر تمضى حقاً إلى أمام لاتداعب فى ذلك ولا تحب المزاح .
ومن الحق أن نسجل للأستاذ عبد الحليم محمود أنه لم يترجم فكاهة ، ولا مجوناً ، ولا تهالكا فى الحب ، ولا إمعاناً فى الغرام ، وإنما ترجم قصة إن لم تكن فلسفة فهى شئ يتصل بالفلسفة اتصالا متيناً . ويكفى أن تعلم أن موضوع القصة هو البحث عن خلود الروح . وقد صدق الله العظيم فى قوله الكريم :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والقصة التى ترجمها الأستاذ عبد الحليم محمود تنتهى إلى أن الروح من أمر الله ، وإلى أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . فهى قصة طبيب قرأ فى بعض الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى أن زميلا له فى الطب قد استكشف أن وزن الجسم الانسانى ينخفض بعد الموت انخفاضاً مفاجئاً ، جرب ذلك مرة ومرة ، فلما استيقنه استنبط منه أن هذا الانخفاض دليل قاطع على وجود الروح ، وأن الجسم إنما ينخفض وزنه لأن الروح يفارقه .
قرأ الطبيب جيمس هذا فى الصحف ، فعنى به واستأنف التجربة فصحت له ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وإنما مضى فى تجربته إلى مدى أبعد ، فحاول أن يستخلص هذا الذى يفارق الجسم الانسانى بعد الموت ويحصره فى حيز ضيق ، ووصل إلى ما أراد فاستخلص شيئا من النور حصره فى أنبوبة زجاجية ضيقة ، وعرف أنه هو الطاقة التى تمنح الحياة ، ثم مضى فى تجربته إلى مدى أبعد من هذا المدى فجمع بين هذه الطاقةالتى تستخلص من شخصين متحابين . فرأى شيئا عجباً ، رأى ابتهاجاً هائلا فى هذا الضوء حين يستخلص من شخصين متحابين ، ويجمع فى حيز واحد ، فاستيقن أن هذه الطاقة لها حظ من وعى وأنها تسعد بالحب إذا اجتمعت إلى الطاقة المستخلصة من شخص الحبيب ، فتزداد بالامتزاج تألقاً وإشراقاً .
وقد أحب هذا الطبيب نفسه فتاة كلف بها أشد الكلف ، ولم يفكر إلا فى شىء واحد وهو أن يسعد بحبها فى حياته ، وأن يسعد بحبها بعد موته . فأظهر صديقه — مؤلف

القصة — على بحوثه وتجاربه . وعهد إليه بأن ينفذ هذه التجربة فى شخصه وشخص حبيبته إذا أدركهما الموت . وكانت حبيبته مريضة لا أمل فى شفائها وكان هو قد قرر أن يموت إذا ماتت حبيبته ، وأن ينبىء صاحبه قبل ذلك بوقت كاف لاجراء التجربة . وقد فعل ، ولكن صديقه كان بعيداً عن فرنسا فلم يصل إلى الحبيبين الميتين إلا بعد فوات الوقت ، ولم يستطع الطبيب البائس أن يسعد بالحب بعد موته لأن الروح كما يقول الله عز وجل من أمر الله وما أوتى الناس من العلم إلا قليلا .

فالقصة كما ترى علم وفلسفة وتجربة . والترجمة سهلة يسيرة صادقة ، وفى أسلوبها العربى رصانة وجمال . وكنت واثقاً بأنى لن أجد فيها خطأ نحوياً أو لغوياً لمكان الشيخ المترجم من علوم اللغة والنحو ، ولكنى رأيت الرأس مؤنثاً ، فلأحمل ذلك على الخطأ المطبعى . ولأشكر للأستاذ جهده ولأهنئه بما أتيح له من توفيق ولأتمن له المزيد من هذا الجهد ومن هذا التوفيق .

شفاه غليظة وقصص أخرى للاستاذ محمود تيمور (مطبعة الاستقامة)

الأستاذ محمود تيمور كاتب خصب بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ، لا تكاد تمضى أسابيع حتى يهدى إلى قرائه طرفة قيمة من هذه الطرف الممتعة التى تعينهم على أن يحتملوا أثقال الحياة .

ولو لم يكن للأستاذ محمود تيمور على قرائه الذين لا يحصون إلا هذا الفضل لكان ذلك خليقاً أن يضمن له فى نفوسهم مكاناً محمودا . فأثقال الحياة بغيضة فى هذه الأيام سواء منها الخطير واليسير ، والناس يستقبلون العيش بقلوب لا تكاد تعرف الرضا ونفوس لا تكاد تألف الابتسام . فاذا استطاع كاتب كالأستاذ محمود تيمور أن ينسيهم نفوسهم ويصرفهم عن قلوبهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار ، فقد ضمن لهم راحة نادرة ، وأتاح لهم سعادة لن يجدوها عند أنفسهم المظلمة ، ولا عند قلوبهم الساخطة ، ولا فى هذه الحياة الكئيبة التى تأخذهم من كل وجه .

وليس هذا بالشىء القليل ، بل هو الشىء الكثير حقاً . والأستاذ محمود تيمور متعب للنقاد لمكانه من هذا الخصب من جهة ولتنوع آثاره واختلافها من جهة أخرى . فلو أراد النقاد انصافه حقاً لكتبوا عنه فى كل شهر ، وقد كدت أملى فى كل أسبوع ، لأن آثاره كثيرة متلاحقة ، وأنا أتمنى على الله أن يزيدها كثرة وتلاحقاً . وانصافه ليس بالشىء اليسير ؛ فتنوع هذه الآثار واختلافها يضطر النقاد إلى أن ينوعوا نقدهم ويخالفوا بينه ، مع أنهم مضطرون إلى هذا التنويع وهذه المخالفة بالقياس إلى آثار الكتاب الآخرين . ويكفى أن أذكر أن أمامى الآن للأستاذ تيمور كتباً ثلاثة مختلفة كلها يدعو إلى القراءة ، ثم إلى النقد ، أحدها هذا الكتاب الذى أتحدث عنه الآن ، والثانى قصته التمثيلية « حواء الخالدة » ، والثالث قصته الروائية « كليوبتره فى خان الخليلى » .

ولست فى حاجة إلى إن أقول أن شخصية الأستاذ محمود تيمور واحدة فى هذه الكتب الثلاثة ولكنها على ذلك مختلفة متباينة باختلاف مذاهبه فى الانشاء وتنوع ما بث فى كتبه من آراء . وليس الأستاذ محمود تيمور كاتباً فحسب ، ولكنه شاعر ، قد اتخذ القصص وسيلة لاهداء شعره إلى الناس . فكل قصة من قصصه قصيدة من الشعر الجميل . وما ينبغى أن تطلب إليه

جزالة الفرزدق أو رصانة جرير وإبداع أبي تمام وتكلف المتنبي ، فهو أدنى إلى اليسر والسذاجة وإلى الحياة من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . هو رجل يعيش في عصره ويحيا بحياة أهل عصره ويحب الناس الذين يحيا بينهم . وهو من أجل ذلك يصورهم لأنفسهم تصويراً صادقاً كل الصدق ، ولكنه قريب منهم كل القرب . وهو من أجل ذلك أيضاً يعرض عليهم في هذه الصور ما في حياتهم من خير ليألفوه وما في حياتهم من شر ليعافوه . وهو من أجل هذا أيضاً يظل بينهم لا يرتفع عنهم كثيراً ، ولا يكلفهم أن يصعدوا معه إلى اطباق السماء ، وإنما يكلف نفسه أن يهبط إليهم على ظهر هذه الأرض البائسة .

وهو من أجل هذا كله كاتب يتعب النقاد ولكنه يريح القراء . وأي بأس عليه من أن يتعب النقاد ما دام قد ضمن لقرائه حظاً من الراحة والسعادة والاستمتاع .

والكتاب الذي أتحدث عنه الآن طائفة من القصص توشك أن تكون ديوانا من الشعر قد ائتلف من قصائد ومقطوعات كلها قريب جداً لا يشق على القارئ في فهمه والاستمتاع به ، وأكثرها بعيد جداً مع ذلك يستطيع أن يدفع القارئ إلى تفكير عميق متصل . فهذه الشفاه الغليظة التي تفتن القاص في أول الكتاب يسيرة كل اليسر ينفق القارئ بفضلها ساعة سهلة مريحة ويلهو فيها بهذا الذي تفتنه الشفاه الغليظة ، وبهذه الفتاة الماكرة الماهرة التي تحسن اختلاس العقول والأموال جميعاً ، وبهذه المناظر التي نلقاها في كل يوم فلا نكاد نحفل بها أو نلتفت إليها . غير أن القارئ الذي يحب التفكير ، ويتعمق ما يقرأ لا يستطيع أن يمر مسرعاً بهذه الشفاه الغليظة التي تستأثر وحدها بحب القاص فتملك عقله وقلبه وتكلفه احتمال ما لم يتعود أن يحتمل . فلماذا تفتنه الشفاه الغليظة وحدها دون غيرها من محاسن هذه الفتاة ؟ هذه مسألة نفسية يعنى بها الذين يحللون دقائق الفتنة والعشق . والتعلات المختلفة التي تتكلفها الفتاة كلما أخذت متلبسة بالجريمة تصور كيد النساء تصويراً حسناً . وهذه الأسباب التي تدعوها إلى السرقة والاختلاس ، والتي تتصل بفساد النظام الاجتماعي تحمل القارىء على أن يفكر في الاصلاح الاجتماعي وفي أن جيلنا الذي نعيش فيه يكاد يحرقه الظمأ إلى العدل . والقصة بعد هذا كله تذكرنا ، لا أدري لماذا ، بمقامات الحريري أو بمقامات الهمذاني ، فهذه الفتاة التي تؤخذ ثم تفلت محتالة في ذلك متفوقة في الاحتيال تذكر بهؤلاء الأشخاص الذين يتحدث الحريري والهمذاني عن براعتهم في الاحتيال والافلات . ومع ذلك فليس بين الأستاذ محمود تيمور وبين أصحاب المقامات شبه ما . فهو لا يتكلف ، ولا يتصنع ، ولا يسجع ، ولا يذهب مذهبا من هذه المذاهب التي لا تحتمل في هذه الأيام .

ولو أني ذهبت أتحدث عن كل قصة من قصص هذا الكتاب كما تحدثت عن هذه الشفاه الغليظة لحلت هذا الباب من أبواب المجلة أكثر مما يطيق . ومع ذلك فكل القصص التي يشتمل الكتاب عليها ممتازة بهاتين الخصلتين : فهي قريبة يسيرة لمن أراد أن يقطع الوقت ويستريح وهي بعيدة عميقة لمن أراد أن يروى ويفكر . وما أحب أن أختم هذا الحديث القصير دون أن أذكر « القبلة التائهة » التي تذكر بآيات الف ليلة وليلة ودون أن أذكر قصته الأخرى التي اتخذ لها هذا العنوان « حكام من السماء » ، والتي جدد فيها حياة الأساطير بطريقة رائعة في بساطتها ويسرها حقاً .

طه حسين

ظهر حديثاً

غلواء « قصة » للشاعر إلياس أبي شبكة (مطبعة صادر — بيروت)

هذه قصة فتـاة من لبنان ، كتبها شاعرها بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٢ ونشرها في هذه الأيام . وقد حرص الشاعر على أن يذكر هذا التاريخ في صدر القصة ليذكر أنه « ليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه إلا شطر ضئيل » ، و « أنها قصيدة لا تاريخ ! »
ولعل في حرص المؤلف على إثبات هذا القول في صدر القصة ما يحمل بعض القراء على لون من الحدس كان الشاعر يريد أن يمحوه عن أذهان القراء ، فهو نفي يشبه الاثبات !
وغلواء هذه فتاة يصفها الشاعر فيقول :

غلواء — ما أحلى اسمها المعطارا — صبية تغبطهـا العـذارى
لا يستطيع شاعر أن يبـدعا قصـيدة أجمـل منها مطلعا
تصـور الأزهار في نوار تنعشهـا ارتعـاشة الأنوار

ويمضي في وصف مفاتن الطبيعة على اختلاف فتونها في أسلوب غزلي بديع ، حتى ينتهي إلى أن يقول :

وانظر أخـيراً نظرة سريعه مختلف الجمـال في الطبيعـه
تعـرف إذن معرفة عليـاء كيف السماء أبدعت غلواء !

وكان لغلواء هذه التي يصفها الشاعر فيبدع ويفتن قريبة في صور اسمها وردة يصفها فيقول

جمـالهـا يحمـل للجنون وميضـة الشهوة للعيـون
تشـعر من جسـدها المشتعل في كل عرق بدماء رجـل
تصور البركان في ثورته ... ...

ويمضي في وصف شرور الطبيعة حتى ينتهي إلى أن يقول :

وانظر أخـيرا نظرة سريعـه مختـلف الشرور في الطبيعـه
يبـد لك اللفت إذن فتعـلم كيف أرادت « وردة » جهنم !

وذهبت غلواء إلى صور لزيارة قريبتها وردة ، فالتقت الملك الأنثى بشيطانة ، هنا فتاة نقية الضمير صافية الروح ، وهناك فتاة عابثة مستهترة ، تبيع نفسها للشيطان ؛ واطلعت غلواء على منظر بغيض من مباذل قريبتها ومضيفتها وردة :

وأرسلت نظرة ـبر طـاهر فهالهـا في المخدع المجـاور
فاجرة على ذراع فاجر !

وكانت مفاجأة هزت كيان غلواء هزاً عنيفاً وملأت خيالها بالأوهام ، وبدلت نظرتها إلى نفسها وإلى الحياة :

واستيقظت من نفسها المحمومه من « وردة الحبية » الأثيمه
صارخة أخيـلة الجريمه !

وجحظت فى صدرها الآلام | كجفنها المحموم لا تنام
وانتقل الاثم بها انتقاله | أجرت على خيالها خياله
فعظم الوهم ، وفى الأوهام | أفتك بالعقل من البرسام
وقام فى أحلامها المعذبه | رؤيا كأنما هى المرتكبه

واستبد بها الوهم منذ تلك الليلة ، من هول الجريمة المنكرة التى شهدتها عيناها ، فكأنما هى — فى نظر نفسها — تلك الآثمة الشهوى ، فلم تجد كفارة لهذا الذنب الذى قام بنفسها أنها هى التى اقترفته دون غيرها إلا أن تقطع ما بينها وبين الناس ، حتى فتاها شفيق الذى كان يملأ خياله قلبها ، وكان خيالها يملأ قلبه — قد قطعته وباعدت ما بينها وبينه ، وراح الفتى يزدلف إليها وهى تأبى ، ضناً به على مثلها وهى — فيما ترى — آثمة مقترفة !

ومضى الوهم بها إلى غايته حتى أشرفت على التلف من الندم ووخز الضمير على غير ذنب . ومضى الوجد بالفتى إلى غايته حتى أشرف مثلها على الهلكة من الشوق واللهفة . والفتى لايدرى ما بها ، وهى لا تدرى ما شأن نفسها ، وإنما هى من حمى الوهم فى هذيان !

والتقيا ذات يوم فى الربيع ، وقال لها وقالت له ، وكان يمد إليها يداً وهى ترده عنها بيدين ، وطال بينهما الحديث والنجوى ، وأحست أوهامها تتسرب رويداً رويدا ، فتنقشع النشاوة بين قلبيهما قليلا قليلا ، وعرف الفتى كل ما هنالك ، وانكشفت له الحقيقة ، وصفا ما بينهما من الوداد .

وشفيت غلواء من أوهامها | لكنها لم تشف من آلامها !

هذه هى القصة كما صورها الشاعر إلياس أبوشبكة : قصة بسيطة لا تكاد ترى فيها حادثة تروى ، ولكنها إلى ذلك معقدة أشد التعقيد ، لأن حوادثها تجرى فى باطن النفس لا فى ظاهر الحياة . وهى قصة فريدة الموضوع ، وإن كانت صورها النفسية مما يمكن أن يعرض لكل ذى حس مرهف وشعور دقيق حين تشهد عيناه حدثاً منكراً تشمئز منه الفطرة وتنفعل به النفس . على أن جمال القصة لا يبدو فى موضوعها كما يبدو فى فن الشاعر وجمال معرضه ودقة ملاحظته لما يتعاقب على النفس من ألوان الوجدان وعلى الطبيعة من فنون الجمال .

هى قطعة جميلة من أدب لبنان ، لشاعر مبدع من شعراء لبنان ، يصور فيها لبنان ، عاطفة ووجدانا وموطناً من مواطن الحسن والفتنة !

محمد سعيد العريان

جائزة الكاتب المصرى للقصة

أقبل الأدباء على جائزة القصة إقبالا كبيراً ، وألفت الدار لجنة من حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى والأستاذ محمود تيمور بك والدكتور محمد عوض محمد بك والأستاذ حسن محمود لمراجعة هذه القصص وينتظر أن يصدر حكم اللجنة فى أوائل شهر مايو .

فى مجلات الشرق

التواكل

فى مقال بعنوان «القول فى اتكالنا» للاستاذ محمد كرد على بمجلة «المجمع العلمى العربى» بدمشق ، الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادى والعشرين :

« كانت أعمال الأفراد فى معظم العصور أكثر نفعا وأوفر عائدة مما تتولاه الدول . ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج إلى التدقيق ، وفى عمل الدولة تختفى التبعات ، ويزيد الاسراف فى النفقات ، ويتهاون بالجزئيات وأحياناً بالكليات . ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات فى الغرب والشرق من المشاريع أقل ريعاً وأكثر نفقة مما يديره الأهلون .

« ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض ، تنتحت للحكومات منافذ التدخل فى أمور الرعية ، فتستتبع بعض طبقاتهم على ما تهوى ، ويقوى بذلك سلطانها ، وتتشعب فروع أعمالها ، وتتضاءل سلطة الفرد ، ويفنى فى المجموع . وإذا قل اعتماد الناس بعضهم على بعض يكلون إلى ولاتهم أمورهم ، ويطلبون إليها العناية بما ليس من واجبها معاناته ، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصى من أمر اليتامى جعلوا تحت وصايته ! »

الفكر

من مقال للباحث الرحالة الأستاذ حنا خباز فى العدد الثانى من مجلة « الفكر » التى تنشر بحوث الندوة الثقافية بدمشق :

« رفيق لم يفارقنى خمسة وسبعين عاما . هو ألصق بى من أبى وأمى ، وأخى وأختى ، وزوجى وأولادى . لم أدرك شيئاً من أمره وأنا جنين فى بطن . ولكنه حالما بدأت أزحف على وجه الأرض بدأت مطالبه تنجلى . أفادنى فى فهم لغة الأم وبعض لغات الأعاجم . ورافقنى فى الكتاتيب والمدارس . فأفهمنى كثيراً من العلوم على أنواعها . أعطانى معرفة شىء زهيد من كل موضوع ، ولكنه لم يعطنى كل شىء فى موضوع ، فلم أختص بشىء . وقد قادنى إلى الاتصال بكثيرين عاشوا قبلى . إن خمسة يستغنون عنه فقط ، وهم : الموتى ، والنائمون ، والمجانين ، والسكارى ، والأطفال . وقد يلحق بهؤلاء ثلاثة آخرون ، وهم : العشاق ، ووطنيو الشوارع ، وبعض الصحافيين ! »

امرأة ولعلها كل امرأة !

وللأديب الشاعر الأستاذ مواهب الكيالى فى العدد نفسه من مجلة « الفكر » :

أنت ، يا من صغتها بالأمس كأساً لشرابى
وبها ذوبت حرمانى وشوقى وعذابى
لهفى كم كنت مجنوناً بأحلام كذاب
لم أفق منها وفى كفى شىء من شبابى !

•

أنت ، من أنت ؟ دعى عنك أكاذيب الأمانى
لست إلا جسداً تنثيه أحداث الزمان
لم تكونى مرة روحاً يناجيه افتتانى
أنت جسم ، وأنا لست بمن يهفو لفانى ؟

•

آه من أمسى وقد كان دموعاً فى المآقى
آه أشواق وهل مثلك يدرى ما اشتياقى ؟
من تكونين فأعطيك مع الفجر انطلاقى ؟
من تكونين وما أنت سوى :
ثدى وساق !

آداب البلاد العربية

سأل مراسل مجلة « الأديب » البيروتية فى مصر الأستاذين العقاد والمازنى عن رأيهما فيما قد يكون هناك من فروق بين الأدب المصرى وآداب البلاد العربية تحمل مصر على عدم العناية بغير ما ينتجه أدباؤها . . .
فقال العقاد — عدد مارس سنة ١٩٤٦ من مجلة « الأديب » :

« والذين يلومون أدباء مصر ويعتقدون بأنهم لا يعيرون الكتب اللبنانية اهتماماً ، هؤلاء قوم مخطئون ولا صحة لدعواهم هذه ؛ فما من كتاب وصل إلى مصر إلا وأعطته حقه من العناية ، وقد مضى زمن كانت مصر هى الميدان الوحيد لأقلام الأدباء والشعراء من بلاد العربية جماء ، واشتهر أدباء سوريون ولبنانيون بما كتبوه وطبعوه ووزعوه فى الديار المصرية . . . إن الجائزة الأولى فى كتاب سلسلة « اقرأ » قد منحت لأديب فلسطينى بناء على اختيار القراء المصريين . فليست المسألة أن مصر لا تلتفت إلى أدباء الأمم الأخرى ، بل

أن فريقاً من الأدعياء لا يطيقون أن يذكر الأدباء المصريون فى غير بلادهم ، وهم لم يبلغوا هذه الشهرة بدسيسة أجنبية ، ولا بحيلة من الحيل المصطنعة ، ولكنهم بلغوها لأنهم أهل لها ... وسيظلون أهلا لها من غير حاجة إلى استئذان أولئك الأدعياء ! »

وقال المازنى :

« وقد كنا فى مصر إلى عهد قريب والأدب اللبنانى هو السائد ، ولا يزال أثره باقياً فى صحافتنا ، فإن الصحف اللبنانية الأصل من أقوى الصحف المصرية وأقدمها وأرسخها قدماً . ولعل هناك دورة نهوض محلى ، فليس ثم مانع من أن يبرز الأدب اللبنانى ويشيع فى الأقطار العربية وتكون له الغلبة والمرتبة الأولى ثم يتبعه بعد زمن أدب مصرى فيظهر ويستولى على الميدان ، ثم يلى ذلك عهد نهضة للأدب السورى ، ولكنه — على كل حال — أدب عربى ومن الخطأ جداً أن نفرق بينه ، وأن نطلق عليه هذه الأوصاف المحلية فنقول هذا لبنانى وذاك عراق ، والثالث سورى أو مصرى ، لأنه كله عربى كما أسلفت ... »

الأدب الحجازى

وفى عدد صفر سنة ١٣٦٥ من مجلة « المنهل » التى تصدر فى مكة المكرمة ، رأى للاستاذ محمد عمر توفيق فى استفتاء موضوعه « أدبنا وهل يصلح للتصدير أم لا ؟ وكيف يصلح له ؟ » يقول :

« إنى أريد أن أقول — وسيقول الكثيرون — إن أدب الحجاز مغمور كأدب الزنوج إن صح أن لهم أدباً مدفوناً فى ذلك الجانب المقفر من الدنيا ! ولست أعنى أن هناك أدباً حجازياً أثمرته أقلام كتاب هذه البلاد وشعرائها وألقت به فى النار ، أو فى قبور من الأوراق المطوية ، وإن كان الحديث يجرى بأن بعض من نعرف من الأدباء قد أثمرت دراسته مؤلفاً أو مؤلفات من النثر والشعر ، فتلك مجموعة مستورة لا يتسنى لناقد أن يتخذ منها قاعدة لتقرير قيمة الأدب الحجازى المغمور ما لم تنشر على الناس . ولكن ما أعنيه هو هذا الأدب المنشور من قبل ومن بعد فى الصحف والمجلات وفى كتب قلائل لعل بعضها أرث من بعضها ...

« ولعلنا غير مغالين أو مبالغين إن قلنا إن بعضاً مما تنشره الصحف والمجلات المصرية الممتازة ، وبعضاً مما يذيعه المؤلفون هنالك ، لا يكاد يلحق ببعض ما أنتجه وينتجه الشعراء والكتاب فى هذه البلاد ! »

البيت والمدرسة

وفى عدد يناير سنة ١٩٤٦ من مجلة « المعلم الجديد » التى تصدرها وزارة المعارف العراقية فى بغداد ، مقال للأستاذ حسن طه المدرس فى الاعدادية المركزية ببغداد ،

عنوانه «التربية المدرسية والبيتية» يتحدث فيه عن أثر البيت العراقى فى تعويق عمل المدرسة ، ومنه قوله :

« تتميز العائلة العراقية قبل كل شىء بزعامة الأب فيهـا . . . وقد أثر هذا فى مستوى المرأة الثقافى وأخرها أشواطاً بعيدة عن التطورات الاجتماعية . ولما كان الطفل أشد اتصالا بأمه من أبيه فانه يتأثر بإرشادها حتما أكثر مما يتأثر بأبيه ، ولما كانت أمه جاهلة منعزلة عن الدنيا فلا بد إذن أن يكون إرشادها قاصراً . . . ثم إن العائلة العراقية ولا سيما الأب ، لا يمتلك شعور الحياة المنزليـة Home-life الذى تتميز به أكثر العائلات الغربية ، فنجد الرجل يقضى أكثر أوقاته خارج البيت ولا يعود إلى بيته إلا لينام ، فلا يعلم ما حل بأطفـاله وبعائلته طول اليوم ، وهذا ما يعدم بطبيعة الحال كل مظهر من مظاهر التعاون بين الوالدين على تربية أطفالها . . . »

الفن والأدب والخبز

وفى العدد ٤٢٩ من مجلة « المكشوف » التى تصدر فى بيروت مقال بهذا العنوان بقلم رئيف خورى ، يقول فيه :

« هل من علاقة بين الفن والأدب من جهـة ، وخبز الشعب من جهة ؟ هذا هو السؤال الذى أتصور أنه يعرض لذهنك كما وجدتنى أو وجدت أديباً أو فناناً يتصدى للحديث عن خبز الشعب . . .

« إذا كان فن فمن يصنعه ؟ وإذا كان أدب فمن ينتجه ؟ . . إن الانسان هو الذى يصنع الفن وينتج الأدب ، وهو لا يصنع الفن ولا ينتج الأدب إلا بصفته كائناً اجتماعياً يعيش فى مجتمع ما . ثم إنه إنما يصنع الفن وينتج الأدب لهذا المجتمع الذى يعيش فيه ، فالفن والأدب ، إذن ، كلاهما صـنع ونتاج اجتماعى ، وككل حالة تعلق بالمجتمع كان الانسان هو منشأ الفن والأدب . . .

« إن الحاجة العقلية والعاطفية هى أم الفن والأدب ، وإن هذه الحاجة ليس يتأتى للانسان أن يحس بقوتها وإلحاحها عليه إلا بعد أن تستقيم له حاجته المادية . فالانسان الذى يقع على عاتقه العبء الثقيل من الكدح الدائم فى سبيل حاجته المادية لا يستطيع أن يصنع أدباً ولا أن ينتج فناً . . .

« هذه الجماهير الكثيفة تستطيع أن تغذى الفن والأدب بما تحتضنه منهما ، بل تستطيع أن تجعل للفنان والأديب استقلالا يكفل له الحريه ويكفيه مئونة العيش المشرد أو الحياة على هامش بلاط أو وظيفة . والفنان والأديب اللبنانى ، والعربى على وجه الاجمال ، كلاهما فى حاجة إلى هذا الاستقلال وهذه الحرية . إن مرض الحياة على هامش بلاط أو وظيفة قد أزمن فى فنانينا وأدبائنا . لقد مات المتنبى متحسراً على منصب يتولاه ونحن بعد ألف سنة لم نكد نخطو ، ولو أن المتنبى بعث حياً لما أدهشنى أن أراه هاجاً فى الهاجين على « السراى » يلتمس حتى قائمقامية ! »





VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INEDITES A MAXIME DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ELEMENTS D'UNE POETIQUE

ETIEMBLE
EVOLUTION DE LA POETIQUE CHEZ SUPERVIELLE

ALBERT CAMUS
LA PESTE

EDITH BOISSONAS
POEMES

RAYMOND GUERIN
APRES LA FIN

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR
(traduction, avec une introduction de R. Levesque)

GWYN WILLIAMS
VENUS MUTILEE

SAINTE BEUVE
DEUX LETTRES INEDITES

REVUE DES LIVRES FRANÇAIS,
LETTRES ARABES, LETTRES ETRANGERES,
REVUE DES REVUES, NOTULES, BULLETIN.

Dans les numéros 6 - 8 VALEURS publiera notamment des inédits de:

Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges Dumézil, Michel Leiris, Raymond Quenea, Jean Tardieu, etc...

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية